ثورة تبسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

في هذا التقرير سنحاول بإذن الله أن نلخص الوضع القائم في أفغانستان وحقيقة القتال الدا
ئر فوق أراضي هذه الدولة المسلمة وأطراف هذا القتال وأبعاده وقد اعتمدنا في بحثنا هذا
على زيارتنا التي قمنا بها إلى مواقع القتال حيث وفقنا الله إلى لقاء المجاهدين والإشتراك معه
م في القتال والتعرف على أحوالهم عن قرب في أحد أهم مناطق القتال الدائر هناك وهي ولاية
باكتيا حيث قابلنا هناك كثيرا من الشخصيات القيادية ومجاهدين من مختلف الولايات الأفغان
ية ورجال الأحزاب الإسلامية المختلفة .

وإذا كانت زيارتنا ومقابلاتنا في مواقع الجهاد هي مصدرنا الرئيسي في هذا البحث فإن تقار
ير الصحف الأجنبية التي أرسلت بواسطة مندوبيها في كابول تمثل مصدرا آخرا حيث لا يتيسر ما
دة للمسلمين الدخول إلى هذه العاصمة لتقصي الوضع هناك . اللهم بعض الرسائل التي يرسله
ا المجاهدون هناك للقيادة العامة في جلال آباد عند مولانا محمد يونس خالص 1 المصور الثال
ث والأخير هو ما ذكرته تقارير الصحف الغربية نفسها ونسبته إلى مصادر أجهزة المخابرات الـ
غربية 2 .

بداية الصراع

بدأ التسلل الشيوعي في أفغانستان منذ حوالي خمسين عاما . وبدأ هينا متسللا حيث أن أهل هذ
ه البلاد عرفوا منذ الفتح الإسلامي بشدة تمسكهم بالإسلام واعتزازهم به ودفاعهم عنه بالأموا
ل والأنفس . وقد مارس الحكام الروس ضغوطا مختلفة على حكام أفغانستان لكي يغضوا الطرف ع
ن هذا التسلل الجديد وقد نجحوا في ذلك بدرجات مختلفة . وسار المد الشيوعي في خط متدرج ولك
نه صاعد إلى أعلى مستشر في مرافق الدولة الحساسة .

حتى كان عهد الملك ظاهر شاه الذي سهل للشيوعيين التسلل إلى جهاز الإعلام وجهاز التعليم ثم
القوات المسلحة وفتح الإتحاد السوفييتي أبواب البعثات التعليمية على مصراعيها حتى
أنه قدم في أحد السنوات عددا من البعثات التعليمية تخريج الجامعات الأفغانية أكثر من مج
موع طلبة هذه الجامعات .

في عهد الملك ظاهر شاه كانت فترة ذهبية للشيوعيين مكنوا لأنفسهم فيها في كافة المرافق الحيو
ية في البلاد وانتهت تلك الفترة بانقلاب عسكري قام به محمد داوود خان لان عم ظاهر شاه ونص
ب نفسه رئيسا للدولة الأفغانية واعتمد في تثبيت دعائم حكمه على الإتحاد السوفييتي في الخار
ج والشيوعيين في الداخل ومكن للنفوذ الشيوعي أن يستشري ويحكم قبضته تماما على كافة المرا
فق الحيوية في البلاد بما فيها الجيش وانتهت تلك الفترة بانقلاب شيوعي صريح قام به نور مح
د تراقي رئيس حزب خلق الشيوعي الذي أعلن أفغانستان صراحة دولة ديمقراطية شعبية تحكمها
العقيدة الشيوعية وأعلن برامجه الإقتصادية التي أممت الملكيات الزراعية والصناعية والعق
ارية وبرامجه التعليمية التي اعتمدت الماركسية اللينينية مذهبا فكريا وأعلنت الحرب على
القرآن والسنة وحاربت الدين الإسلامي وقامت أجهزة السلطة على الفور بإلقاء القبض على
علماء الدين وقتلهم وتعذيبهم وسجن طلبة المدارس الدينية وتعقب الأفراد المعروفين بتمسك
هم بالدين الإسلامي وهي قائمة طويلة تشمل أكثر من 90٪ من مجموع الشعب الأفغاني ونشط أعـ
ضاء حزب خلق في الهجوم مباشرة على العقيدة الإسلامية وحرقوا القرآن وداسوه بالأقدام علنا
في شوارع المدن والقرى ـ تحت حماية الجيش بالطبع ـ ونادوا بالحرية الجنسية وإلغاء الحجاب ا
لإسلامي للمرأة كمطلب عاجل وسريع 3 .

رد الفعل الإسلامي

منذ اللحظات الأولى للتحرك الشيوعي في أفغانستان أي منذ حوالي خمسين عاما تحرك بعض علماء ا
لمسلمين لشرح العقيدة الشيوعية وبيان زيفها وكفرها وتحذير الأفغان من الإنخداع بها بل وطالـ
بوا السلطة بمصادرة حرية نشر مبادئها الكافرة في البلاد ولكن للأسف لا السلطة استجابت لـ
طلبهم ولا الشعب في أغلبه قدر خطورة هذه الأفكار الشيوعية على مستقبله معتمدا على شدة
تمسك أهل البلاد بدين الإسلام .

ولكن هذه المواجهة اشتدت في أيام محمد داوود وحدثت صدامات دامية داخل المدارس والكليات
والجامعة بين الطلبة المسلمين وهم الأغلبية وبين الطلبة الشيوعيين الأقل عددا والأكثر تنظيم
ا وكانت النصرة دائما للطلبة المسلمين حتى تتدخل السلطة انصرة الطلبة الشيوعيين وتلقى ز
عماء الطلبة المسلمين في السجن أو تفصلهم من الكليات والمدارس .

واستمر الحال على ذلك الحال بل وازداد حدة نظرا لتوسع المد الشيوعي وزيادة نصرة أجهزة
الحكم لذلك التيار الفاسد ودفع هذا الوضع الشاذ عددا من علماء المسلمين وعلى رأسهم الز
عيم الإسلامي محمد يونس خالص إلى
إعلان الجهاد على حكم داوود خان الذي مكن الروس والشيوعيين في بلاد الإسلام ومهد لعقيدة الـ
كفر وناصرها على دين الإسلام .

وبدأ العلماء وأنصارهم ـ وكان العدد قليلا جدا ـ
بدأوا الجهاد من ولاية باكتيا وولاية ننجرهار مسقط رأس محمد يونس خالص . وبدأت هجمات عل
ى مراكز الشرطة والجيش ولاقت نجاحا في بداية الأمر ولكن استجابة الشعب لهم كانت ضعيفة وظر
وف الجهاد كانت غاية في الصعوبة كما أن داوود هان لوح لهم بمغريات مادية لو أنهم توقفوا

عن المعارضة المسلحة وتحت وطأة هذه الظروف انسلخ بعضهم عن الجهاد واختاروا المناصب الحكومية الكبيرة في حكومة داوود خان وبقي محمد يونس خالص في الساحة بمفرده ومعه قلة من العلماء وطلبة العلم فاضطر إلى اللجوء إلى
باكستان ليدعوا إلى فكرة الجهاد ويحشد الأنصار من حوله حتى يشاء الله أن تكون نهاية حكم داوود خان على يد أصدقائه الشيوعيين الذين استولى زعيمهم تراقي على السلطة بانقلاب عسكري أزاحه عن الحكم .
وعلى الفور اجتمع محمد يونس خالص مع أنصاره وقرروا دخول أفغانستان وبدأ الجهاد فورا ضد حكم الشيوعي الجديد ووجه نداءا إلى جميع العلماء وزعماء الجماعات الإسلامية بالالتحاق به وتنظيم صفوف المسلمين للجهاد . وبدأ محمد يونس وجماعته الجهاد في اليوم الثالث لانقلاب تراقي .

انقسامات في الصف الإسلامي

عقب الإنقلاب الشيوعي بدأت مطاردة عنيفة للمسلمين وخاصة العلماء ورؤساء الجماعات الإسلامية وطلبة العلم وكل من كان له نشاط إسلامي قل أم كثر . وكانت التصفيات الجسدية تتم بصورة من الوحشية دفعت الآلاف إلى
الهجرة إلى باكستان فرارا بدينهم وحياتهم واكتظت سجون الشيوعيين بآلاف أخرى ممن فشلوا في الهرب .

وكان من المتوقع أن يكون رد فعل رؤساء الأحزاب الإسلامية هو إعلان الجهاد واللحاق بمحمد يونس وإخوانه ولكن من المؤسف أنهم فشلوا في الإتفاق على رأي وبدأوا سلسلة من الشقاق لم تتوقف حتى الآن . 4

فعقب الهجرة رأت الزعامات بأن الجهاد ضد الحكم الشيوعي الآن يعد نوعا من الجنون والإنتحار نظرا للفارق الشاسع في العدد والعدة بين المجاهدين والجيش المدعوم بقوة الروس ووفقا لهذا لا بد حسب رأيهم من الإنتظار وتركيز الجهد على
جمع الأموال من دول الإسلام لإعداد جيش مكتمل بالعدد والعتاد بما يماثل الجيش الحكومي ثم يبدأ الجهاد بعد ذلك . 5

وتبنى هذا الرأي جميع الأحزاب الإسلامية فيما عدا محمد يونس خالص وجماعته الذين تلقوا انتقادات مريرة من باقي الجماعات الذين وصفوا محمد يونس بالتهور وعدم المسئولية وأضاف بعضهم لهذا الرأي رأيا آخر مفاده أن الجهاد ضد تراقي لا ينبغي أن يكون إسلاميا خالصا بمعنى أنه يمكن أن يشمل كافة الإتجاهات المعارضة لحكم تراقي ولو كانت هذه الإتجاهات إقليمية قومية أو اشتراكية أو حتى شيوعية موالية للصين ومعارضة للإتجاه الشيوعي السوفييتي الذي يتبناه تراقي وأصحاب هذا الرأي دافعوا عن رأيهم هذا بأنه الأكثر عصرية والأكثر تقبلا من العالم الخارجي والدول الغربية بالذات . 6
وأضاف بعضهم إلى أن المناداة بعودة ظاهر شاه ملكا تستميل الغرب إليهم أكثر ويكون أقرب لجذب التعاطف الدولي إليهم .
وهكذا أصبح منهجهم كالتالي
1 ـ المناداة بعودة ظاهر شاه ملكا .
2 ـ إنشاء جبهة مع كل القوى السياسية المعارضة لنظام تراقي بما فيها القوميين والشيوعيين .
3 ـ التركيز على جمع الأموال من الدول الإسلامية وإنشاء جيش تقليدي يواجه جيش السلطة .
وكانت هذه البنود الثلاثة سببا في إفشال كافة الجهود التي بذلت لتوحيد هذه الجماعات مع جماعة محمد يونس خالص الذي أبدى استعداده لحل جماعته والإنضمام تحت لواء أي جماعة تقرر النزول إلى ميدان المعركة ضد الشيوعية 7 على أساس إسلامي خالص وواضح ومعلن وأن تتخلى تلك الجماعات عن تلك البنود الثلاثة على أساس
1 ـ أن ظاهر شاه هو الذي مكن للشيوعية من السيطرة وساق البلاد إلى ما هي فيه من فتنة وحرب فكيف ننادي به ملكا مرة أخرى ؟ .
2 ـ إنشاء جبهة مع قوى سياسية على
أساس غير إسلامي لا يعتبر جهادا لأن مفهوم الجهاد في الإسلام هو القتال لإعلاء كلمة الله وأن يكون الحكم لشرع الله فكيف نجاهد مع الشيوعيين ضد الشيوعيين بهدف أن يكون الحكم بعد الحرب مناصفة بين الإسلام والشيوعية . فهل يعقل هذا . وهل هو جائز شرعا ؟ . بالطبع لا .
3 ـ التركيز على جمع الأموال أولا غير صحيح وغير جائز لأن الجهاد أصبح فرض عين على كل مسلم في تلك البلاد وأن الواجب القيام به فورا بكل ما هو في مقدورنا واستطاعتنا من سلاح ومال وعتاد ومصداقا لقول الله تعالى » وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم « فالعبرة إذن ببذل الجهد والإستطاعة ثم الإعتماد على الله بعد ذلك فما النصر إلا من عند الله » إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم« .
هذا وقد بذلت جهود لتوحيد هذه الجماعات من جانب شخصيات إسلامية كبيرة ولكن كل محاولة كان يعقبها مزيدا من التفتت والإنقسام .

جهاد في الجبل ... وجهاد في بيشاور 8

ذهب مولانا محمد يونس خالص في اليوم الثالث من استيلاء تراقي على السلطة إلى ولاية ننجرها

ر مسقط رأسه وجمع حوله العلماء والشباب ورجال القبائل وكافة فئات المسلمين وبدأ حربا لا موادة فيها في تلك المنطقة الجبلية .
وتوجه نائبه الأول مولانا جلال الدين حقاني إلى مسقط رأسه في ولاية باكتيا الشهيرة بمناطقها الجبلية الوعرة حيث بايعه رؤساء القبائل هناك أميرا للولاية من طرف محمد يونس خالص زعيم الحزب الإسلامي وحشد حقاني خلفه كل قادر على حمل السلاح في الولاية .
كما أرسل محمد يونس خالص بعض أتباعه إلى ولاية كونر لحشد المسلمين هناك وبدء الجهاد ضد قوات تراقي . وقد صادفت قوات المجاهدين بقيادة محمد يونس خالص نجاحا باهرا في السنة الأولى التي بدأ فيها الجهاد وتم تحرير معظم أراضي هذه الولايات الثلاث وصار الحكم فيها إسلاميا والقيادة فيها لمحمد يونس خالص رئيس الحزب الإسلامي .
كما انتشر الجهاد في كافة الولايات الأفغانية حتى الملاصق منها لحدود الإتحاد السوفييتي . وحتى كابول نفسها لم تخل من مصادمات مسلحة .
ولكن طبيعة القتال كانت تختلف فالمناطق الجبلية سيطرت عليها قوات محمد يونس خالص سيطرة تامة وذلك في ولايتي ننجرهار وباكتيا ولم يتبق للحكومة في تلك المناطق إلا المدن الرئيسية تحميها قوات كبيرة من الجيش وسلاح الطيران الذي ركز جهوده في قصف قوات المجاهدين الذي نجحوا في تكوين قوات فدائية في مراكز قوية منتشرة بين الجبال واستغلوا الأسلحة الثقيلة التي غنموها في إحكام الحصار 9 حول تلك الحاميات وقصفها بالمدافع والإشتباك مع سلاح الجو. وهكذا بدأ قتال مرير وغير متكافئ في ولايتي ننجرهار وباكتيا ولكن الإيمان كان هو المنتصر وما زال في هذا القتال الدائر . وتمكن محمد يونس خالص وجلال الدين حقاني من تحرير معظم أراضي هاتين الولايتين خلال العام الأول من الجهاد وامتد نشاطهما ليشمل دعم عمليات القتال في الولايات المجاورة وإمداد زعماء المجاهدين فيها بالسلاح والرجال وتزويدهم بالخبرات التنظيمية والعسكرية 10 وذلك بغض النظر عن أي انتماء حزبي أو قومي و باعتبار أخوة الإسلام التي تربط جميع المسلمين على هذه الأرض وهكذا تبلورت قيادة الحزب الإسلامي للقتال وكان لتواجد زعيمه في وسط المعركة أثر كبير في دفع المجاهدين وتنظيم صفوفهم ورفع روحهم المعنوية ووجد المسلمون في ننجرهار وباكتيا وكونر وغزني وغيرها وجدوا قيادات مخلصة متفانية تخوض القتال بنفسها فالتفوا حولها رافعين جميعا راية الإسلام فلا أحزاب ولا قوميات . وحتى ضباط الجيش المسلمين والمعارضين لحكم تراقي الشيوعي نسقوا مع قيادات محمد يونس خالص مجموعة من الإنتفاضات في كثير من المواقع أدت إلى
قتل كثير من المستشارين الروس وضباط حزب خلق الحاكم وأدت إلى إرباك قيادات الجيش وخسرت الحكومة كثيرا من المواقع والمعارك نتيجة لهذا التنسيق وانضم عشرات من الضباط مع جنودهم وكامل أسلحتهم إلى المجاهدين وما زالت تلك الإتصالات والتنسيق جار حتى الآن بين الضباط المسلمين والقيادة العسكرية لمحمد يونس خالص وما الإنتفاضات العسكرية الأخيرة في كابول إلا من نتائج هذا التنسيق . ولولا وجود تلك القيادات الإسلامية المخلصة داخل ميدان القتال لما أمكن إحراز هذه الإنتصارات الكبيرة في هذا الوقت القليل 11 .
وكنتيجة لهذه الإنتصارات الباهرة امتدت حركة المقاومة الإسلامية لتشكل معظم ولايات أفغانستان بما فيها تلك الولايات المجاورة لحدود الإتحاد السوفييتي وبدأت فيها عمليات الإغتيالات لأعضاء حزب خلق وإلقاء القنابل على معسكرات الجيش ومنازل الشيوعيين والمستشارين الروس . واستمر القتال على هذا المنوال في الولايات الغير الجبلية والتي لا تساعد طبيعتها على حرب عصابات كبيرة ومنظمة .
كما في ولايتي ننجرهار وباكتيا التي تطور القتال فيها ليصبح مجوما مركزا على محاور ثلاث مدفها كابول العاصمة وبالمقابل ركز الجيش معظم قواته لصد هذا الزحف وحماية العاصمة وتم الإتصال بين قادة المجاهدين في مختلف الولايات وبين مركز قيادة محمد يونس خالص وأعربوا له عن اتفاقهم معه في الهدف الأساسي من شن هذه الحرب وهو إقامة حكم إسلامي كامل يشمل أفغانستان كلها يكون دستوره هو القرآن الكريم والسنة النبوية وبايعوا محمد يونس زعيما لهم وأعربوا عن تخليهم عن كافة الزعامات التي ارتضت لنفسها الفرار من ميدان الجهاد والجلوس في بيشاور لإصدار البيانات وممارسة عمل إعلامي مكشوف لترسم لنفسها دور الزعامة المجاهدة 12 .
وكان هذا هو فعلا واقع الزعامات الإسلامية في بيشاور فقد جمع الزعماء من حولهم عددا كبيرا من الأنصار والمثقفين وباشروا في إصدار الكتيبات والبيانات العسكرية وأرسلوا الوفود لتطوف بالعالم الإسلامي وكل وفد يقدم نفسه بأنه القائد الفعلي للجهاد في أفغانستان وأنه الوحيد الذي يتحمل التبعات على كتفه . وقد كقق بعضهم نجاحات كبيرة في هذا المجال وأصبحت لهم قدما راسخة في مجال الدعاية والإعلان عن بضاعتهم الفاسدة 13 .
وهكذا بدأت جماعات بيشاور الجهاد المضاد أو الجهاد المعاكس وتكونت جماعات من نمط جديد من المجاهدين عبارة عن عصابات تخطف الغنائم ليس إلا وتنتسب لنفسها لهذا الحزب أو ذاك من أحزاب القاعدين في بيشاور وكانت هذه أقصى ضربة مؤلمة لحركة الجهاد والمجاهدين منذ بدء الحرب في أفغانستان إذ انشقت الصفوف التي وحدتها كلمة التوحيد وظهرت جماعات تخطف الغنائم تحوم حول مواقع القتال حيث ينهمك إخوانهم في حصار وضرب الحاميات الحكومية لأسابيع وشهور حتى إذا جاءت اللحظة الحاسمة واستسلمت الحامية انقضوا بسرعة البرق واختطفوا الغنائم ليصبح قانون الغنيمة لمن أخذها الأول تصدع يصيب صفوف المجاهدين ويهدد بحدوث الحرب فيما بينهم لولا

قدرة أمراء محمد يونس خالص على كبح زمام جنودهم وأصبح الهم الأساسي لقيادة محمد يونس خالص هي الخروج من هذا المأزق وإعادة الوحدة بين المجاهدين . ولكن زعماء بيشاور ما زالوا يسخرون مواردهم المالية الضخمة في تكريس هذا الإنفصام وتوسيع شقته إرضاء لنوازع شخصية و أهداف غير إسلامية 14 .

الوضع العسكري والوضع الإقتصادي

بالنسبة لمناطق القتال الرئيسية فإن الوضع العسكري للمجاهدين يعتبر جيدا والمبادرة العسكرية في يدهم رغم الفارق الهائل في المعدات بينهم وبين الجيش الحكومي حيث يلتزم الجيس الآن بموقف ادفاع نيركز قواته في مناطق استراتيجية حول المدن الرئيسية التي تعترض طرق زحف المجاهدين نحو العاصمة وكان دافع الإيمان المطلق بالله واعتقادهم بأن قتالهم إنما هو لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الإسلام ضد الكفر والإلحاد هو أخطر سلاح يعمل في جانب المجاهدين ويكسبهم هذا الهيار المعنويات لدى قوات الحكومة وتحينها الفرصة للفرار للإنضمام للمجاهدين وأحيانا إلى قتل المستشارين الروس وضباط حزب خلق والإنضمام إلى إخوانهم المسلمين .

ومن جانب آخر فإن الحرب الأفغانية دخلت مرحلة جديدة أطلق عليها بعض المحللين مرحلة الهجوم الإستراتيجي وهي مرحلة اجتياح المدن الحصينة . وهي مرحلة تستلزم كما وفيرا من الأسلحة الثقيلة وهي متوفرة إلى حد ما وكما وفيرا من الذخائر لتكل الأسلحة وهي غير متوفرة لأسباب معلومة .

كذلك فإن ذلك الهجوم يستلزم أسلحة فعالة للدفاع الجوي وهذا غير متوفر لدى المجاهدين بالقدر الكافي 15 .

ومن هنا فإن المجاهدين في حاجة ماسة إلى

تدعيم أسلحتهم المضادة للدبابات وأسلحتهم المضادة للطائرات وذلك كمطلب أساسي لتطوير هجومهم على القلاع الحكومية والتصدي لسلاح الجو النشيوعي الذي يدعمه الروس بشكل مكثف في الأشهر الأخيرة .

وتلك المرحلة من الحرب بدأت منذ أشهر قليلة وتقدم المجاهدين فيها يسير ببطء شديد لنقص المعدات اللازمة من ناحية ومن الآثار السلبية لعملية الجهاد المعاكس من ناحية أخرى وللصعوبات الإقتصادة من ناحية ثالثة . فمن المعلوم أن الفئة الإسلامية المحاربة في أكثر الفئات فقدا وأقلها شهرة في العالم الإسلامي وأكثرها تعرضا للتشهير والهجوم 16 من جماعات الجهاد المعاكس في بيشاور التي استفطبت معظم مصادر المساعدة والعون وتفننت في وسائل الدعاية وجلب الأموال . والأموال المتوفرة لدى جماعة محمد يونس خالص تكفي بالكاد لدفع الحرب في معدلها الحالي البطيء وليس لها قدرة على شراء ذخائر بالكثافة المطلوبة . كما أن الوضع الغذائي للمجاهدين سيء للغاية ويقتصر غذائهم على الشاي والخبز الأسود ونادرا ما يزيد الطعام عن ذلك 17 .

بالإضافة إلى أن النقص الجوي وانقطاع الطرق أدى إلى اختناق اقتصادي شبه كامل في الأراضي المحررة ويدفع الأهالي إلى النزوح إلى باكستان وهذا الوضع إذا استمر مع قدوم شهور الشتاء القاسية يهدد بأن تفرغ الولايات المحررة من السكان ويسهل على الحكومة أن تنشر قواتها وتستولي على أرض خالية من السكان 18 .

وكإجراء وقائي لذلك تسعى قيادة محمد يونس خالص إلى تخزين مؤن تكفي الأهالي وتكفي المجاهدين لفصل الشتاء وذخائر لتموين العمليات العسكرية في الشتاء، وإذا كانت الموارد المالية للجماعة لا تكفي مطالبها اليومية فكيف بالتخزين لفصل كامل ؟ 19 .

الموقف الروسي

لا يبدو أن الروس عازمون على

التنقيل من دعمهم لنظام تراقي ولن يتخلوا عن مكاسبهم التي حققوها في أفغانستان .

وقد أشار مراسل صحيفة اخباريان البريطانية في تقرير له من كابول بأن القدرات العسكرية السوفييتية واخبراد العسكريين السوفييت يدافعون عن العاصمة كابول وأن المقاتلات السوفييتية كانت تقوم بقصف القوات العسكرية التي تمردت أخيرا في العاصمة وأشار المراسل إلى أن جميع الدلائل تبين أن الروس ان يتخلوا أبدا عن أفغانستان على الرغم من عزلة حكومة تراقي وضعف الإجراءات الأمنية وتزايد النقمة الشعبية ضد السوفييت 20 .

وقد علل تمسك السوفييت بالسيطرة على أفغانستان بالأسباب التالية

1 ـ الأطماع التقليدية للسوفييت في أفغانستان .

2 ـ خطر حدوث ثورة إسلامية في جنوب الإتحاد السوفييتي إذا ظهر للمسلمين هناك أن تحرر إخوانهم في أفغانستان قد دحر القدرات العسكرية بالسوفييتية وذكر المراسل أن الإتحاد السوفييتي أرسل عددا من الجنرالات الكبار لتقييم الوضع العسكري في أفغانستان بقيادة القومسيار السياسي للجيش السوفييتي في شهر أبريل الماضي ومنذ ذلك الحين تدفقت كميات هائلة من الأسلحة الروسية وتحولت أفغانستان إلى ترسانة أسلحة ضخمة 21 .

ونحن نضيف إلى تلك المعلومات حقائقا أخرى خطيرة تكشف لقيادة المجاهدين في ولاية باكتيا وهي أن عناصر شيوعية وعلى صلة بحزب ذو الفقار على بوتو كانت تشتري الأسلحة الثقيلة التي تعرض للبيع في منطقة وزيرستان والتي غنمها الأهالي من قوات الجيش وكانوا يعرضون أثمانا خيالية مقابل تلك الأسلحة وكانت العادة أن تقوم جماعة محمد يونس بإعادة شراء هذه الأسلحة لاس

تخدامها في القتال 22. وقد تم اعتقال هؤلاء الأشخاص والتحقيق معهم وعلم أن لهم صلات بالشيعيين في باكستان وكذلك حزب بوتو وحزب خلق الحاكم في أفغانستان وهكذا تمتد خيوط المؤامرة الروسية الخطة القادمة وهي باكستان سعيا في وصول القوات الروسية إلى المحيط الهندي ثم ... الجزيرة العربية ، وقد أخطر المجاهدون حكومة باكستان بالمعلومات التي وصلتهم 23 .

موقف باكستان من الحرب

لا شك أن الحكومة الباكستانية تشعر بالقلق الشديد من امتداد النفوذ الروسي إلى أفغانستا ن ليقف إلى حدودها مباشرة بل ويهدد بشكل سافر بإشعال فتنة في باكستان تنتهي إلى استيلا ء الشيوعيين على البلاد أو على الأقل على

جزء منها يعبر منه الروس من بلادهم إلى المحيط الهندي عبر أفغانستان وباكستان لتبدأ مرحلة الغزو الأخيرة في جزيرة العرب حيث الصراع الدولي من أجل النفط ولكن الحكومة الباكستانية أصرت على إبراز أنها لا ترغب في التدخل في الصراع الدائر وهي بالفعل لا تقدم للمجاهدين م ساعدات من أي نوع وهذا يثير المرارة في نفوس المجاهدين 24 . حتى مساعدات باكستان للمهاج رين فإنها مقصورة على المهاجرين القدماء الذين فروا قبل الحرب وهي مساعدات لا تكاد تسد رمقهم والنبيوت والخيام تعطيها الحكومة الباكستانية لهم بالإيجار الشهري 25 . وقد منـ عت الحكومة الباكستانية الجنود الفارين من جيش العراقي أن يدخلوا البلاد كلاجئين ويحكي المجا هدون قصة حدثت منذ شهور عن طيار أفغاني يدعى عبد الرحمن فر بطائرته ولجأ إلى باكستان ف قامت الحكومة الباكستانية بإعادته وطائرته إلى سلطات كابول نيتم إعدامه هناك فور وصو له 26 .

ويشعر المجاهدون أن موقف الحكومة الباكستانية يتسم بالتقصير والسلبية .

موقف البلاد الإسلامية والعربية

لا شك أن جهاد الأفغانيين يحظى

بتعاطف إسلامي كبير . ولكنه تعاطف في أغلبه سلبي ما عدا إيران التي تقدم بعض المساعدات للا جئين على أرضها وتقدم دعما إعلاميا لقضية أفغانستان ويقال أنها تقدم بعض السلاح للمجاهد ين في ولاية هيرات المجاورة لها 27 . أما على ساحة القتال الفعلي فالدعم الوحيد الذي وص ل المجاهدين كان من دولة الإمارات عن طريق وفد أرسله محمد يونس خالص لجمع التبرعات من المس اجد وكان هذا المال هو الدعم الإسلامي الوحيد الذي وصل إلى المجاهدين الحقيقيين غير مبلغ المل يون روبية الذي وصل إليهم أخيرا من الإمارات . أما الأموال الطائلة التي جمعت في السعودية وباقي دول الخليج فقد ذهبت بالكامل إلى جماعات الجهاد المعاكس لتستخدم في شق صفوف المجاه دين وتحويل طائفة منهم إلى خاطفي غنائم . وقد قدمت الحكومات الإسلامية أوجه الدعم في الإتجا ه الخاطئ حتى الآن ويرجع ذلك إلى الإنشقاق القائم في صفوف الحركة الإسلامية وإلى عدم إعطاء الح كومات والهيئات الإسلامية قضية الجهاد ضد الشيوعية في أفغانستان قدرا كافيا من الإهتمام و التقصي واتخاذ الموقف القوي والحاسم تجاه هذه القضية الخطيرة التي تهدد أمن هذه الدول وعقيدتها جميعا 28 .

ما هو الحل

في الوقت الذي يركز الروس جهودهم لتعزيز قبضتهم على تلك البلاد المسلمة نجد أن المجاهدين في مواقع القتال يقفون بمفردهم وقد تخلى عنهم إخوانهم المسلمون وشغلتهم أمور دنياهم عن أم ور دينهم . وأخذت أحزاب القاعدين في بيشاور في عرقلة الجهاد وتضليل الرأي العام الإسلامي وانساق المسلمون في تأييد هذا أو مساعدة ذاك بلا تحقيق ولا تدقيق وهم يحسبون أنهم بهذا يحسنـ ون صنعا في الوقت الذي تستخدم فيه أموالهم لشق صفوف المسلمين وإفساد ذات البين بين المجاهدي ن وتدعم طائفة استمرأت القعود عن الجهاد وجمع الأموال بدون وجه حق 29 .

إذا ما هو الحل ؟ ... ما هو الحل حتى نتحرك الآن قبل أن يدهمنا الشيوعيون في بيوتنا ... و قبل أن نجد عراقي آخر فيما بيننا يمزق القرآن ويستبيح حرمات المسلمين ويطلق النار في صدر من يعترض ؟ . الحل فيما نرى سهل وميسور إذا خلصت النية لله تعالى . وفي مقدور دولة واحدة من دول الخليج أن تقدم دعما فعالا وقويا ولن يكون باهظ التكلف ة . والدعم الآن أفضل لأن المجاهدين ما زالوا رغم كل شيء في الوضع الأقوى والوضع المهاجم . هذا الدعم يكون فعالا إذا وضع في مكانه المناسب ووصل إلى الأيدي الطاهرة التي تقاتل وتستشهـ د وليس في بطونها إلا كسرات من الخبز الجاف ومن واقع ما طلبه قائد جيش المجاهدين في ولاية با كتيا نفسه

أولا دعم مالي لشراء أغذية للمجاهدين فكثيرا منهم يضطر إلى ترك الجهاد للسعي وراء لقمة عيشه وعيش أولاده وما يقس منهم للجهاد لا يجد طعاما إلا بشق الأنفس .

ثانيا أسلحة وذخائر مضادة للدبابات وأسلحة وذخائر مضادة للطائرات أو أموال كافية لشراء اللازم منها .

ثالثا محطة إرسال إذاعي لتحقيق الإتصال بين المجاهدين في كافة الولايات ولنشر أنباء الجها د على أبناء الشعب وشرح حقيقة ما يجري لأفراد الجيش للتأثير على معنوياته .

رابعا بذل رعاية كافية لأسر المجاهدين والشهداء الذين هاجروا إلى باكستان والذين يعيشـ ون على الكفاف ولا يجدون الملبس أو الطعام . ولا يستطيع رجالهم السعي وراء الرزق بسبب انـ شغالهم بالجهاد .

هذا ما يطلبه المجاهدون من إخوانهم المسلمين . وهذا هو نصيبنا نحن من حصة الجهاد وفرضيته ع لى دولنا التي لديها المال فرض عين كالصلاة والصوم . وعليها القيام به بقوة وعزم وإخلاص النية لله وخدمة دين الله .
وقد طلب بعض أنصار محمد يونس خالص أن يذهب الرجل بنفسه إلى دول الخليج لشرح القضية وأ تي بالأموال فرفض وقال لهم » إن اعتمادي إنما على الله وحده وهو الذي وعدنا بقوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب « .
هذا وقد أفادت آخر الأنباء التي وردت من طرف المجاهدين أن ثلاثة من الأحزاب الإسلامية قد ان ضمت تحت زعامة محمد يونس خالص وبقيت الآن جماعتان فقط تعمل بشكل منفرد وهما جماعة قلب الد ين الحزب الإسلامي وجماعة السيد أحمد الجيلاني ومعروف عن قلب الدين شدة طموحه الشخصي و التفاف عدد من المتعلمين حوله وله مكاتب سياسية فعالة في باكستان لذا فهو الأكثر شعبية لدى الرأي العام الإسلامي في الخارج وتمكن من جمع أموال هائلة من منطقة الخليج والسعودية يـ قوم باستخدامها عبى نفقات أعوانه حيث تمكن من تجنيد بعض جماعات البحث عن الغنائم .
وقد أفادت أنباء المجاهدين عن تقدم محسوس في القتال بعد اتحاد الجماعات الإسلامية ونرجو الله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين وأن ينصر المجاهدين ويرد عنا كيد الملحدين إنه على كل شيء قدير .
يونيو 1979 .
وندخل الآن إلى تعليقات على هوامش التقرير السابق
1 مولوي محمد يونس خالص
مولوي يونس خالص كان من الأعضاء اللامعة كقائد ميداني ورئيس تنظيم جهادي ـ الحزب الإسلامي ـ
وأسباب بريقه في ذلك الوقت كونه عالم وقائد ميداني ورئيس تنظيم جهادي إضافة إلى ماضيه الحركي في أوساط العلماء وشباب الجامعة والمدارس من خلال كتاباته الصحفية وتدريسه في مدرسة دينية شهيرة في جلال آباد وهي مدرسة نجم المدارس التي أنشأها الشيوعيون من الوجود عام 1978 وأعاد هو وضع حجر أساسها بعد الفتح عام 1992 .
إضافة إلى ذلك فقد كانت منطقة نشاطه ـ جلال آباد ـ
من أهم المقاطعات لكونها ولاية حدودية مع باكستان وتخترقها أهم طريق دولي يربط أفغانستان مع باكستان والمحيط الهندي . وقد صادف التوفيق عمليات خالص العسكرية ، وتحالفه مع جلال ا لدين حقاني في ولاية باكتيا الهامة ونجاحات حقاني هناك التي أضيفت إلى رصيد خالص وتنظيمه ،
وكون الرجلين من العلماء المجاهدين والناجحين فقد تهافت عليهما العلماء من شاكلتيهما طالـ بين منهما العون والمساعدة . ومن عام 1978 حتى عام 1980 كان ذلك التيار العلمائي ـ أو المونوية ـ كما أطلق عليهم قادة أحزاب بيشاور ـ
تصغيرا لشأنهم ـ كان ذلك التيار هو المرشح لتولي زمام قيادة الجهاد . باعتباره القيادة ا لدينية الطبيعية للشعب الأفغاني ـ خارج المدن ـ وكما سنرى لاحقا من تطورت الجهاد في السنـ وات التالية ـ
مرحلة تدويل القضية ـ وهي نفسها مرحلة تدمير الجهاد كفكرة ونشاط ديني قتالي ـ
وتحويله إلى عمل قتالي ذو أهداف سياسية لادينية .
في تلك المراحل تم إضعاف يونس خالص وحزبه وصار مثل باقي الأحزاب الأخرى . وخالص نفسه انك مش داخل الحزب ليتحول إلى مجرد رمز وأب روحي وأدار الحزب نيابة عنه الإخوة الثلاثة دين محمد ـ عبد الحق ـ
عبد القدير . وهم من أسرة غنية في جلال آباد مشهورة بمقاومة الشيوعيين وتتمتع بسمعة طيـ بة وروح إسلامية واضحة . ثلاثتهم من النشطين الأذكياء ، وكانت قيادة دين محمد للحزب هي ا لأوضح ، وعبد الحق تخصص في إدارة عمليات في كابل ، وعبد القدير كان له نشاطه الإقتصادي غير المشروع في غالبه وكان على صلة طيبة بالقبائل شيعة وسنة وبعصابات الإجرام والتهديـ ب . وساعده ذلك كثيرا في استخدام منطقة الحدود لصالح حركة المجاهدين ، ولصالحه الخاص في نفس الوقت وبد أصبح حاجي قدير كما يسمونه الآن . أصبح واليا لمحافظة جلال آباد ـ كما أنـ ه يعتبر حاليا الحليف الأول للسياسة الأمريكية ومشاريع الأمم المتحدة في المنطقة ـ وأول من اتخذ خطوات عملية معادية للمجاهدين العرب ـ حسب طلبات أمريكا ـ ولكنه لم يتمادى في ذلك كثيرا . لكن ما فعله كان كافيا لإفهام العرب أن لا مكان لهم بعد الآن في أفغانستان عامة وجلال آباد خاصة . ولذلك حديث آخر .
لقد ركزت أمريكا على استبعاد القيادات الدينية عن جهاد أفغانستان . لأنهم تيار عمق الجـ دور يستمد قوته العملية من احترام وخضوع الناس لهم .
وفضلت أمريكا كالعادة دائما استخدام تيارات سياسية وقيادات لا تتمتع بمصادر قوة داخل أراضيها بل تعتمد كليا على تلك المصادر الخارجية التي تأتيهم من الخارج . وعلى هذا تم اعـ تماد تيارات وأشخاص هامشيين وهم تيار الإخوان المسلمين ، وهو تيار هامشي جدا في المجتمع الأفـ غاني بل متهم ـ دينيا ـ ومكروه اجتماعيا ومحصور في شريحة رقيقة للغاية من مثقفي كابل خـ اصة أما الشخصيات التي حملت الدعوة الإخوانية ومثلتها في القيادات الأفغانية فكانوا برهـ ان الدين رباني ، قلب الدين حكمتيار ، ثم سياف بعد الإفراج عنه في مطلع عام 1980 على يد

القوات الروسية .
ولا يتمتع أي منهم بثقل قبائلي قوي ، فهم من أسر وقبائل ضعيفة وينتمون إلى تيار منبوذ ومتهم دينيا على المستوى الشعبي .
ومن المفارقات أن يكون التيار الإخواني في أفغانستان هو الأكثر طواعية وخدمة للسياسة ا لأمريكية في القضية . ولاقى تأييدا مطلقا من الإمتداد الدولي للإخوان المسلمين ونسختها البا كستانية الجماعة الإسلامية . وتم ذلك التعاون الأمريكي/الإخواني بحرص شديد وتحت ستار مئا مناورات التضليلية حتى
لا يظهر ذلك التعاون بل ظهرت صورة خالفة تماما عبارة عن اشتباكات لسانية بين أمريكا وا لتيار الأصولي الأفغاني يقصدون تيار الإخوان . ولكن الصورة ظهرت جلية مثل ضوء الشمس عندما تم الفتح وسيطرت الأصولية الإخوانية على الحكم في كابل وبدأت برنامج الحرب الأهلية غير المقدسة مع برنامج التضييق على العرب المجاهدين ودفعهم خارج أفغانستان ثم حصار أي عمل جهادي في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى وقد نجحوا ـ خاصة برهان الدين رباني ر ئيس الدولة وسياف ذراعه الأيمن ـ في تدجين حزب النهضة الطاجيكي ودفعه قصرا وغواية إلى ال تسليم لمخططات أمريكا والأمم المتحدة وترك السلاح ودخول دهاليز التآمر السياسي .
أما التيار الثاني في أحزاب المجاهدين الأفغان فكان ذلك التيار الغربي ـ أو المعتدل ـ وهو متحالف علنا بلا مواراة مع الغرب ويرى فيه الحليف الطبيعي في مواجهة السوفييت ، ولا غنى عن مساعدته العسكرية والسياسية والمالية لمواصلة الضغط على السوفييت ودفعهم إلى الإ نسحاب أو حل وسط مشترك يضمن مصالح الكتلتين في أفغانستان . وقد مثل ذلك التيار السيد أحم د جيلاني ـ وهو أقوى رموز التيار الغربي ـ وصبغة الله مجددي ثم محمد نبي محمدي .
وجيلاني كان مرشحا لدور أكثر نشاطا في أفغانستان لارتكازه على زعامة تاريخية لطريقة صوف ية شهيرة وقوية في عدة ولايات أفغانية . لكن الرجل غير مؤهل لأن دور ميداني ، ويصلح فقط للقيادة السياسية في المنفى لكونه غربي حتى النخاع في فكره وحياته الخاصة . للرجل مصدر ق وة داخلي متمثل في أتباع طريقته وله علاقات قوية مع بريطانيا حيث تعيش ابنته تحت الأضوا ء حياة الأميرات ولكلا السببين لم يكن يحظى بثقة أمريكية كبيرة .
أما مجددي الذي ينتمي لعائلة دينية شهيرة لكنها غير قوية وهو نفسه عصبي ومهتز الأعصاب لذ ا كان دوره هو الآخر محدود ميدانيا . وكذلك حزبه كان هامشيا في القتال .
أما محمد نبي محمدي وهو عالم ديني كان على صلة طيبة بالملك ظاهر شاه ، دخل معترك الأحزاب في محاولة توفيقية بين حكمتيار ورباني حيث كونا اتحادا جديدا برئاسة محمدي ـ الضعيف ـ ثم تمر دا عليه وتركاه ولكنه استمر في رئاسة الحل الوسط أن التنظيم الجديد المسمى حركة الإنقلاب الإسلامي . وكان الرجل رغم طيبته خاملا ضعيفا ترك إدارة حزبه لابنه الأكبر أحمد الذي كان ف اسدا ذو بطانة شيطانية من أصدقائه الشباب وتصرف أحمد في الحزب كأحد ممتلكات العائلة . ف أضعف الحزب كثيرا خاصة بعدما انفصل عن الحزب قوته المحركة مولوي نصر الله منصور وكون تنظيم ا منشقا تحت نفس الإسم . لكنه ضعف تماما عام 1986 بعد فترة بريق ونشاط عندما قررت أمريك ا تجميده إثر تصريحات غير ودية ألقاها في أمريكا أثناء رحلته إلى هناك .
هكذا كان خالص أملا حقيقيا في زعامة إسلامية صحيحة للجهاد في أفغانستان ولكنه أمل انتهى مبكرا ولم يكد يشعر به أحد خاصة من العرب الحركيين ، الذين حددت حركتهم ونظرتهم للوا قع السياسي الأفغاني الدعايات الصاخبة للإخوان الدوليين الذين حولوا التيار الإخواني في أفغانستان إلى
القيادة المنشودة والتي تنافس في صفاتها الإسلامية الصحابة رضوان الله عليهم هذا إذا لم تتف وق عليهم في صفات عديدة .
وقد ساعدت أمريكا وحلفاؤها العرب في ترويج ذلك التيار ـ
غير الهجوم عليه ـ وهو أسلوب غير مباشر في الترويج ولكنه أصبح شهيرا في المنطقة العربية والإ سلامية .
وهكذا فإن التيار الجهادي العربي المناصر للأفغان قد وقع بكامله تقريبا في حبائل إخوان أفغانستان وقياداتهم الفاسدة ـ إن لم نقل الخائنة وهو الوصف الأكثر دقة .
وكان التعصب لهؤلاء القادة على أشده بحيث كان مستحيلا الوقوف في وجه ذلك التيار أو انتق اده وقد زاد الطين بلة وقوف الشيخ عبد الله عزام رحمه الله إلى جانب هذا التيار القيادي الف اسد . ورغم أنه اكتشف حقيقتهم منذ عام 1986 على الأقل ، وكان قد وصله آراء معارضة لـ لقيادات الأفغانية الخائنة ـ وهو وصف يشمل الجميع الأصوليين والغربيين المعتدلين على السواء . وكان الإخواني العتيد أبو أسامة ـ
عبد العزيز علي ـ أول من نادى بذلك الرأي منذ عام 1979 بل وطالب بإعدامهم إذا لم يتو حدوا على
رأي قائد واحد وتعيين زعيم جديد للجهاد وكنت محسوبا مع التيار المعرض للقيادات الأفغانيـ ة الفاسدة ـ الخائنة ـ
منذ مقالات بدأت في نشرها في الإتحاد عام 1986 تكلمت فيها عن أخطاء فادحة داخل تلك المنظم ات .
الشيخ عبد الله كان هو الأثقل وزنا والرمز البارز والمؤثر للعمل العربي الجهادي ـ

حتى أنه كان مشروعا لقائد إسلامي عالمي يتخطى حدود النظرة والعمل الوطني الإسلامي ـ وذلك في ظني على الأقل .
موقف الشيخ عبد الله عزام حتى لحظاته الأخيرة في المساندة العلنية غير المحدودة للقادة الأفغان الأصوليين كان من أكبر أخطائه العملية على الساحة الأفغانية . فقد رمى بثقله في الإتجاه الخاطئ . وكان لذلك آثاره السلبية جدا على أفغانستان والمجاهدين العرب وظهر ذلك واضحا بعد وفاة الشيخ عبد الله ثم كان أكثر وضوحا من ضوء الشمس عندما جاء الفتح الذي تحول عـ لى أيدي الأصوليين الأفغان وإخوانهم المعتدلين إلى كارثة إسلامية ـ أفغانية وعالمية ـ وذلك بدون أن نجد الإيجابيات التي تحققت على الساحة الأفغانية والتي جاءت رغما عن الجميع سـ واء السوفييت أو الأمريكان أو عملائهما من عجم وعرب من أفراد وحكومات وتنظيمات إسلاميـ ة وجهادية .
نعود إلى الشيخ خالص ونكرر أنه كان مشروعا قياديا إسلاميا مجهضا على ساحة أفغانستان . ويلاحظ في تقريرنا الأول الوضوح إلى حد ما في المبالغات الحزبية ـ وهو نفس الخطأ الذي تكرر على امتداد الحقبة الأفغانية ـ فكل عربي كان يقع في حبال أحد التنظيمات ويقبل بلا مناقشة وجهات النظر السائرة داخل دوائر وقيادات ذلك الحزب ـ
وهي كما اتضح وجهات نظر بعيدة في مجملها عن الحقيقة غير منصفة للآخرين ، تبالغ كثيرا في أهميتها ، وتنسب إلى نفسها وإلى زعاماتها أمجادا ومآثرا زائفة في معظمها .
في تقريرنا الأول ـ عندما أقرأه الآن ـ
أشعر أن موووي خالص كان مسيطرا تقريبا على الموقف القتالي الجهادي داخل أفغانستان ، وأنه محل إجماع وموافقة الشعب كله بمختلف فئاته . وهذا غير صحيح وفيه الكثير من المبالغة . فأقصى
ما يمكن قوله عن وضع مولوي خالص في ذلك الوقت المبكر للجهاد أنه كان شيئا هاما ـ أو هاما جدا ـ ولكنه مع ذلك لم يكن أكثر من مشروع قيادة يقود مشروعا تنظيميا للجهاد في أفغانستان . وأن التحديات أمامه كانت خطيرة وجسيمة ليس فقط من الدولة التي يقاومها أو حلفائها السوفييت بل الأخطر كان المقاومة الإسلامية نفسها والقادمة من بيشاور من جانـ ب القادة الإسلاميين من إخوان معتدلين وباكستان التي كانت تحضنهم ـ في أحضان الموت ـ وتشرف على حركتهم وكانت كأي دولة تحتضن حركة معارضة لا ترغب إطلاقا في رؤية بيار مستقل عن إرادتها أو قيادة مستقلة في قرارها من بين هؤلاء الأفغان اللاجئين على أراضيها .
إن إجراءات التحجيم ضد غير المرغوب فيهم كانت مستمرة طوال حركة الجهاد وحتى آخر لحظاته وهي إجراءات عديدة تبدأ بالرشوة وتنتهي بالإغتيال وتمر بالحصار الإقتصادي وتلويث السمعة وإطلاق الإشاعات .
وقد مورست كل تلك المهارات ضد خالص وحقاني وميتات غيرهم . قلة نادرة هي التي تمكنت من الإفلات من ذلك العنكبوت الشيطاني . والجميع قد أصابتهم سهامه وأثرت فيهم بدرجة أو أخرى .

2 الصحافة الغربية وأجهزة المخابرات

ترتبط الصحافة في الغرب ارتباطا وثيقا مع أجهزة المخابرات سواء بالتوظيف المباشر أو بالتعاون المتفاهم . وفي كل الأحوال لا يمكن لتلك الصحف أن تخالف المصالح العليا لبلادها بدون اعتبار توافق أو تعارض تلك المصالح مع العدل والحق . وتعارض تلك الصحف أحيانا مع حكوماتها ينبع من صراع المصالح بين التكتلات الإقتصادية الكبرى داخل تلك المجتمعات وليس من أي دافع أخلاقي . ولكنها دوما تعطي نفسها بدعاوى أخلاقية ولا تظهر ذلك الجانب المادي الفظ الذي يشكل حقيقة مواقفها على الدوام . تماما كما يشكل حقيقة المواقف السياسية والعسكرية للغرب الصليبي .
لقد أظهر الغرب وصحافته التأييد للأفغان طبقا لمصالحه الخاصة ، وكان دوما معاديا للإسلام وقضايا المسلمين . صحف الغرب دأبت دوما على ترويج معلومات تسربها إليها أجهزة المخابرات وأيضا مواقف ووجهات نظر تخدم مصالح دول الغرب . في بداية الحرب الأفغانية كانت صحف الغرب تستقي أهم معلوماتها من أجهزة استخبارات بلادها . وكانت تشير أحيانا إلى المصدر الإستخباراتي . والملاحظ أنه في مرحلة تدويل القضية الأفغانية أنشأت الولايات المتحدة مراكزا إعلامية تابعة لسفارتها في العاصمة الباكستانية إسلام آباد أحدها في العاصمة والآخر في مدينة بيشاور الحدودية ، المركز الإداري والرئاسي للمجاهدين الأفغان . تلك المراكز خاصة مركز العاصمة كان محطة أساسية لجميع المراسلين الأجانب المقيمين في باكستان أو الوافدين إليها بغرض تغطية بعض الأحداث الأفغانية .
وكان اجتماع الثلاثاء الذي يعقده مركز إسلام آباد ثروة معلوماتية يدعي إليها الغربيون والصحفيون الأصدقاء من الغرب والشرق وكان اتفاقا بين المركز الإعلامي الأمريكي ومريديه أنه عند استخدام المعلومات التي يقدمها إليهم أن يشار إليها بعبارة صرح مصدر دبلوماسي غربي في إسلام آباد رغم أن المصدر هو استخباراتي غربي . ومراجعة تقارير صحافة الغرب ووكالات الأنباء لتلك الفترة توضح مدى الجهود الإعلامي الذي مارسته الإستخبارات الأمريكية ومدى تعاون صحافة الغرب معها في ذلك الجهود .
ومن المحزن هو ذلك التهافت من جانب الأفغاني على استجلاب واسترضاء الصحفيين الغربيين وكسف

كل ما لديهم أمام هؤلاء الصليبيين ، وبعد الفتح تحول الغرب خاصة الولايات المتحدة وأمها المتحدة إل
قبلة الأفغان ، وموضع رجاء الشعب بشكل عام . ولأسف أن الإساءة إلى المجاهدين العرب كان ه من الثمن المدفوع لقاء استرضاء هؤلاء الصليبيين .

3 اشتهر الشيوعيون في كل مكان باعتماد أسلوب التصفية الدموية لخصومهم ، بهدف الوصول إلى دولة إيديولوجية خالصة لا ينافس الماركسية فيها مذهب آخر . وقد عانى الأفغان من نفس الأسلوب الذي مورس ضدهم بطريقة منهجية وبأحدث الأساليب والأسلحة حتى أن تعداد القتلى و المشردين المهاجرين فاق ثلث مجموع السكان . هذا غير المعوقين والأيتام ناهيك عن القتلى ا لمتساقطين يوميا حتى الآن بسبب الألغام التي تقدر بأكثر من عشرة ملايين لغم على الأقل ، وقفز ت بعض التقديرات بهذا الرقم إلى مائة مليون لغم . وحسب تقارير الأمم المتحدة فإن ذلك سو ف يستمر لزمن قادم مقداره مائة وخمسون قرنا فقط . ومع كل ذلك الإجرام فإن القادة ا لجهاديين من الأصوليين ، قد تحالفوا في سبيل الحصول على حكم مدينة كابل فقط مع الشيوعيين الأ فغان في الجيش والإستخبارات . وتحالفوا معهم في شن حرب أهلية تدمر أفغانستان وأهلها وعقا ئدها .

وكانت فكرة المصالحة الإسلامية الشيوعية في أفغانستان هي محور المشروع الأمريكي الذي ساند ه السوفييت عند وصول جورباتشوف إل
الحكم . وبداية ما علمناه عن ذلك كان ذلك التفاهم بين أسد بانشير أحمد شاه مسعود وجيش الإحتلال السوفييتي في أعقاب حملات السوفييت على بانشير والتي على أساسها اشتهرت أسطورة مس عود التي نفخها الإعلام الغربي – والفرنسي بالذات –

لدرجة تصورنا أنها حقيقة ولم نفق على زيفها إلا في وقت متأخر جدا . وكانت هناك مقترحات ب تكوين حكومة إسلامية شيوعية مشتركة يشترك فيها الزعيم الشيوعي القوي بابرك كارمل رئيس جمهورية أفغانستان الإشتراكية آنذاك ، مع الزعيم الإسلامي الشاب الأصولي المتطرف قلب ا لدين حكمتيار . ثم حاول حكمتيار تنفيذ نفس الفكرة بمساعدة الإستخبارات الباكستانية عام 1990 عن طريق مسرحية فشلت لحسن الحظ وكانت تقتضي أن يقوم رئيس أركان الجيش الأفغاني – وهو ماركسي متعصب – اشتهر بمجازره الدامية ضد المدنيين الأفغان وهو الجنرال شاه نواز تنا ي الذي كان من المفترض أن يقوم بانقلاب ضد حكم نجيب الله رئيس الجمهورية ثم يعلن تشكيل مج لس ثوري إسلامي ليحكم البلاد مناصفة بالإشتراك مع حكمتيار . فالفكرة قديمة وعليها دارت ك ل مشاريع الأمم المتحدة لوقف القتال وتشكيل حكومة محايدة أو مشتركة تجمع رموز الإسلام والش يوعية معا . ومن الطريف أن الإخوان المسلمين الدوليين بذلوا مساعيهم في هذا السبيل ونوال ت وفودهم لإقناع قادة المجاهدين الأصوليين بقبول مبدإ المشاركة وعدم الإصرار على الإنفراد بـ الحكم أو إبراز الشعارات الإسلامية التي تخيف الغرب وتغضبه . لقد كان من أبرز الوجود الإخ وانية في هذا المضمار هو عدنان سعد الدين ، الذي ساهم بجهوده القيادية في تدمير الحركة الج هادية في سوريا ، وبيعها لنماذج النظام العراقي . ولم يكن عدنان هو الوجه الوحيد فقد تع ددت الوجوه والإنتماءات القطرية وكان الهدف واحدا وهو الإنصياع للغرب وتقاسم السلطة مع الشيوعيين .

الآن ونحن في خريف 1994 . تتكرر نفس المهزلة في طاجيكستان ، ونفس الوجوه الكالحة تدفع بقيـ ادة حركة النهضة الطاجيكية نحو ترك السلاح ومقاسمة السلطة مع الشيوعيين تحت إشراف الأمم المتحدة وأمريكا والسوفييت . ونسجل هنا أن مجاهدي أفغانستان خاصة قياداتهم الأصولية بـ رهان الدين رباني رئيس الدولة حاليا ومسعود قائد جيشه وسياف رئيس الوزراء الفعلي وا لمخطط الحقيقي للمهازل السياسية الأفغانية ، هم القوى الدافعة الرئيسية لإحباط الجهاد في طاجيكستان وتدجين المنطقة وحراستها ضد التطرف والأصولية حسب المصطلحات الأمريكية أي وق ف حركة الجهاد وتكبيل المسلمين وفتح بلادهم أمام تيارات الكفر والإلحاد والزحف اليهودي إل يها .

3 الدين والعرض والمال والقبيلة ثوابت لا يقبل الأفغاني المساس بها ودون ذلك الموت . وك ما ذكرنا فإن محمد نور طراقي المنظر الشيوعي ورئيس أول نظام شيوعي في البلاد لم يكن سوى شخص أحمق ولا يتمتع بمزايا رجل الدولة . فقد أصيب بغرور القوة والثقة المطلقة فيها كوسيـ لة لتطبيق الإيديولوجية على أرض الواقع مهما كانت العقبات . فأفرط طراقي في استخدام القوة وأصابه العمى فوطأت قدماه كل المحرمات الأفغانية الدين والعرض والمال والقبيلـ ة . فتحدى الدين بفظاظة وأعلن إلغاءه – هكذا بقرار – وقتل العلماء وطلاب العلم في مجازر هوجاء رهيبة ، ودخل ساحة الأعراض بغباء فأعلن تحرير المرأة وضمان حقوقها بالقانون وقوة الدبابة . فأصبح من حق المرأة أن تخـ تار شريك حياتها وتذهب به إلى أقرب قسم شرطة كي يحرر لهم محضر زواج مثل أي محضر كارثة س ير وينتهي الأمر . وأي اعتراض من الأهل فإنه يحل فورا بقوة الرشاش .ويمكن تصور مدى الجرح الذي أصاب كرامة الأفغان بمثل ذلك القانون . ولقد أدركت عمق ذلك الألم من حادث عاصرته في شهر رمضان عام 1406هـ 1986م وكان بطله شاب أفغاني اسمه درويش . وكان من الشجعان المعدودين . ولكنه كان دائم الصمت نادر الإبتسام لا يجد ذاته إلا في المعارك الحامية فيتحول إلى شعلة من نار وعاصفة قتالية . وما سوى ذلك فهو هادئ وحزين .

في مدينة ميرانشاه الحدودية وفي أحد أيام رمضان . إذ المدينة الصغيرة تتحول إلى ساحة قتال وتنتشر الطلقات في كل مكان وتغلق الدكاكين ، ويهرع كل إنسان إلى داخل بيته . وكان ذلك حدثا عاديا جدا ، ولكن ليس في شهر رمضان . وفي الليل علمنا أن درويش قد قتل شخصا في السوق . راعنا الخبر لما نعرفه من دماثة طبعه وهدوئه . لقد فر درويش إلى الحدود الأفغانية وألقت سلطات المدينة القبض على أخيه كرهينة حتى يسلم درويش نفسه للعدالة . لكن الحادث أقنع الجميع بأن العدالة كانت فيما فعله درويش . وتدخلت القبائل لدى الحكومة فألغت القضية وأفرج عن أخ درويش . والسبب أن درويش قد قتل زوج زوجته . فقبل الإنقلاب الشيوعي كان درويش قد عقد قرانه على فتاة من قريته ، ونظرا لضيق اليد فقد تأخر في أخذها إلى عش الزوجية فقد كان منهمكا في العمل لتجميع بعض المال . ولكن أم زوجته لم تكن راضية عن درويش . وحدث الإنقلاب الشيوعي وصدرت قوانين تحرير المرأة ولم تتأخر حماة درويش عن اصطحاب ابنتها إلى قسم الشرطة وعقد قرانها على موظف شيوعي محترم يعمل في المدينة ، وأصبح درويش نفسه مطاردا بتهمة معاداة النظام الثوري . انقضى على ذلك الحادث ثمان سنوات وأنجبت زوجة درويش ثلاث أبناء من زوجها الشيوعي . ولكن الزوج وجد نفسه واقعا في دوامة من الصراع السياسي حيث كان ينتمي إلى حزب خلق الذي قام الثورة . ولكن التدخل السوفييتي نقل السلطة إلى الجناح الشويعي الآخر بارشام . ودار صراع حاد ودام أحيانا بين الفريقين الشيوعيين . اضطر الزوج مؤخرا إلى الفرار نحو الحدود الباكستانية مع زوجته وأبنائه الثلاثة حيث وجد رشاش درويش في انتظاره كي يثأر لكرامته التي أصيبت بجرح بالغ أضج مضاجع درويش ثمان سنوات طوال .

المال أحد المحرمات الرئيسية لدى الأفغان ... فمن أجله يفعل أي شيء . وللمحافظة عليه يفعل أشياء أكثر . لم ندرك خطورة عنصر المال لدى الأفغان إلا بعد مرور سنوات طويلة من التعامل . وظهر كم هو جوهري ذلك العنصر الخطير بحيث يمكن من خلاله ـ وبشيء من حسن السياسة ـ انتهاك باقي المحرمات .

فمثلا إذا تم إعطاء الدين والعلماء احتراما شكليا ، وترك العادات الإجتماعية فيما يتعلق بالنساء والأعراف القبلية على حالها تسنن التطور التدريجي ، فإنه بالمال يمكن تسخير الأفغان أنفسهم ـ إلا قلة صغيرة ـ في سلب المعاني الحقيقية للدين والأعراض وحتى القبيلة ، خاصة إذا كانت قبيلة أخرى غير قبيلة الشخص نفسه . وبالمال يمكن تحريك البعض نحو الإستيلاء عصبا على مال الآخرين ـ وهذا نشاط عادي في المجتمع الأفغاني ـ فقطع الطريق والقتل وسائل شائعة للحصول على المال ، سواء مال الضحية نفسها أو مال مدفوع من محرض خارجي . وعندما عدل الشيوعيون سياستهم وتنبهوا إلى أخطاء البداية البالغة لنظامهم ، بدأت شلالات الأموال تنهمر لشراء الأفراد والقبائل . وكانت النتائج مدهشة ، ولو أن تلك السياسة بدأت مبكرا منذ بداية النظام ، لكانت النقود أشد فعالية وتأثيرا من الطلقات والقنابل . ولكن الوقت كان قد فات على تدارك التصدعات التي انتهت بانهيار النظام . ولكن المال والبراعة السياسية التي أبداها الشيوعيون الأفغان على المستوى الداخلي والخرجي على السواء ـ وذلك بالطبع بمساندة السوفييت ثم الأمريكان فيما بعد ـ فادت تلك البراعة السياسية الممزوجة بالعنف العسكري المتصاعد أدت إلى إطالة عمر النظام أربعة عشر عاما كاملة .

وسوف نتكلم لاحقا عن نظام الإستخبارات الأفغاني خاد وفعاليته ودوره الكبير في تلك الحرب . وكيف اخترق ليس جميع الأحزاب الجهادية بل أن كل بيت في أفغانستان كاد ألا يخلو من جاسوس للدولة ـ حسب ما صرح لي بعض قادة المجاهدين الميدانيين وأبدت ذلك شواهد لا تحصى .

لهذا ضمن الخطر أن نعتمد في حساباتنا على أن لدينا بعض الشعوب أو المجتمعات الصلبة المحافظة . فهذه صفات نسبية يسهل تغييرها حتى ولو أقتضى ذلك سنوات طويلة . فقد كان لنا مثل تلك المجتمعات في مصر والشام والعراق فأين هي الآن ؟ . فالدول الصليبية لديها الآن الخبرة الكافية والسياسات الملائمة لإحداث تغييرات عميقة في أمثال تلك المجتمعات ولديها ما يكفي من الأموال لتنفيذها وهي أموالها في نهاية المطاف ولكننا نشتق بها .

وكم أدهشني أن ألاحظ أن الشيوعيين قد نجحوا في إحداث اختراق لأخطر المحرمات الأفغانية وهي مجال العرض وذلك في واحد من أشد فئات المجتمع بأسا وغيرة وهم قبائل جبال باكتيا . فبعد فتح مدينة خوست 15 / 3 / 1991 استولى المجاهدون على أطنان من الأوراق الحكومية ، كمية ضخمة منها لجهاز المخابرات الخاد . في بعض هذه الأوراق كانت المفاجأة التي أدهشت مولوي جلال الدين حقاني ـ فقد احتوت أحد ملفات الخاد على أسماء بنات المدرسة الثانوية في المدينة والتي تطوعن لقضاء عدة أيام في الخطوط الدفاعية الأولى للمدينة بهدف الترفيه عن الضباط والجنود . ومن بنات لرجال قبائل أذاقوا المجاهدين الأمرين وعرفنوا أعمالهم في كل مجال وكان بعضهم واضح الإرتباط بالحكومة الشيوعية ويعمل ضمن قوة الميليشيات ، والآخرون كانوا غير واضحي الإرتباط ويظهر التعاطف مع المجاهدين ، ثم يعرقل ـ من الداخل ـ كل المشاريع الهادفة لتقوية الجهاد .

وبعد فتح خوست توجه حقاني وآخرون لاستكمال عملهم بالضغط على مدينة جارديز بهدف فتحها قبل شتاء نفس العام لكن هؤلاء المنافقين اختلقوا مشاكلا كثيرة خاصة بالغنائم والسيطرة

على الأراضي المفتوحة وغيرها وقطعوا الطريق على المجاهدين بسبب تلك الخلافات المصطنعة . وأخ برني حقاني وقتها أنه سوف يهددهم بنشر وثائق الخاد التي تظهر تورط قياداتهم المتعلمات في ذلك النشاط الترفيهي لضباط الدولة .
لا أدري ماذا حدث من تطورات في ذلك الموضوع لكن الذي شاهدته أن تلك المشكلات انتهت فجأة بدون سبب ظاهر . ولكنني خمنت وقتها أن ذلك كان ببركة ملفات الخاد . إن كان فيها شيء من البركة .
4 الخلاف والشقاق سمات ثابتة في القادة الأفغان . ومن الملفت للنظر ذلك التشابه الكبير إلى حد التطابق بين هؤلاء القادة الأفغان المجاهدين وقادة الأنظمة العربية من نواحي جوهرية منها
أ ـ كثرة الخلافات الشخصية وعمقها ، وتغطيتها دائما بدعاوى عقائدية أو أخلاقية لا أساس لها في الواقع .
ب ـ
التحول من الخلاف الشديد الذي يصل إلى حد الإقتتال المسلح بين الأعوان في الداخل إلى التحالف الكامل المفاجئ . ثم الإنتقال بعد فترة غير طويلة إلى الخلاف والإقتتال مرة أخرى .
جـ ـ نفس التقسيمات المتناقضة بين معتدلين وثوريين في العالم العربي . أو مسلمين معتدلين ومسلمين أصوليين في أفغانستان . وكلا المعسكرين لا يفترق عن الآخر إلا من حيث لون اللافتة التي يرفعها .
د ـ بعد اكتمال التجربة وأداء الدور المطلوب يتضح أن كلا المعسكرين المعتدل والثوري أو المعتدل والأصولي كلاهما مكمل للآخر في أداء البرنامج التصليبي في المنطقة والمفاجأة الأكثر مدعاة للدهشة هي أن الثوري أو الأصولي كان الأكثر ضلوعا في الصليبية ، على عكس ما كان يتوقع العوام أو المغفلون الذين هم الجمهور المسلم بكل أسف .
والنتيجة التي يمكن استخراجها أنه لم يكن هناك أصلا لا معتدلين ولا ثوريين أصوليين بل كان هناك عملاء يؤدون أدوارا مرسومة ويلبسون الأقنعة المناسبة لتضليل الجمهور المسلم حسب مزاجية ذلك الجمهور وثقافته . فهو إن كان جمهورا متغربا مودرن فالثورية تناسبه أكثر ، أما إذا كان جمهورا محافظا متعزلا نسبيا عن مؤثرات الحضارة فالأصولية والعنتريات ذات الصبغة الإسلامية تكون أكثر مناسبة له .
و ـ صفة عدم الحياء والإعتماد أكثر من اللازم على سذاجة الجمهور الإسلامي وضعف ذاكرته صفة تجمع قادة الأنظمة العربية مع قادة المنظمات الأفغانية ، فالذي كان ثوريا اشتراكيا تحول فجأة إلى معسكر الإمبريالية وربيبتها إسرائيل حسب مصطلحات ذلك المعسكر . والذي كان معتدلا صار أكثر اعتدالا وغربيا أكثر من الغرب وإسرائيليا أكثر من اليهود .
وفي أفغانستان مثلا ، ما أن انسحب السوفييت في 15 فبراير 1989 ، حتى تبدلت كثير من المواقف حتى أن سياف كبير الأصولية الذي شبهته صحافة الإخوان ـ الإسلامية ـ بأنه عمر ابن الخطاب الحديث كبيرهم ذاك كان يضغط على الدكتور عبد الله عزام حتى لا يتطرق في خطبه في بيشاور إلى موضوع الجهاد باعتبار أن القضية الآن تحولت إلى مشاكل داخل الأسرة الأفغانية وظل في العلن ينادي بضرورة الحسم العسكري . ولكنه عندما وصل إلى كرسي السلطة في كابل مع إخوانه من الأصوليين تحت زعامة المعتدلين الذين مثلهم مجددي رئيس الدولة حينئذ ، حتى دفع سياف بذراعه الأيمن محمد ياسر معبود الجماهير الإسلامية في بلاد العرب ، أن يطلب من ممثلي هيئات الإغاثة العرب والمجاهدين العرب احترام قوانين الدولة واستخدام أوراق رسمية وتأشيرات في أثناء حركتهم داخل أفغانستان . وأشار بتواضع جم أنه قد تنازل بالإجماع معهم والتبسط في الحديث في حين أنهم في بلادهم لا يستطيعون مجرد رؤية وزير مثله .
هـ ـ السياسة في الخالق لا صلة لها بأي مبدإ أو شرع ولكن المصلحة هي التي تحدد التوجه السياسي . فلا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة بل مصالح دائمة ، هكذا قرر سيدهم ميكيافيلي . فلا الثورية ولا الإشتراكية ولا الإسلام مبادئ أزلية لدى هؤلاء
ولكنها المصلحة هي التي تحدد نوع المبدإ الملائم في كل فترة زمنية على حدة .
فالرشتراكي قد يتحول إلى مسلم إذا استدعت الضرورة ـ وهكذا رأينا صدام حسين يعلن الجهاد عندما افترسه الغرب في حرب تحرير الكويت عام 1991 ـ والمسلم متحول إلى حليف قوي للماركسيدة والمرتدين إذا استدعت الضرورات ذلك ـ أو صدت إليه الأوامر من الجهات العليا التي تسيطر عليه ـ وهكذا رأينا أصوليين مثل حكمتيار وسياف وبرهان الدين رباني يتحالفون مع قادة الشيوعية الماركسيين والعسكريين من أجل التمسك بالسلطة أو محاولة الوصول إليها .
ذلك النوع من المشاكل داخل الحركة الجهادية الأفغانية في منشئها ليس خاصة ذاتية لتلك الحركة . بل أن نفس تلك المشاكل قد اعترضت مسيرة الحركات ـ
أو المحاولات الجهادية في المنطقة العربية بعد ذلك بعدة سنوات . وهذه المشاكل ذات صبغة عملية أو إجرائية وليست نظرية أو عقائدية . والمشاكل العملية للجهاد على خطورتها إلا أنها أقل خطورة من المشاكل العقائدية .
فالقضايا العملية تتعلق بمسائل مثل القيادة ، وتنظيم العمل الجهادي وقواته العاملة ، ومشاكل التمويل هذا كله مدخل ضروري لدخول العملية العسكرية نفسها . وبداية تناولها يـ

كون برسم سياسة العمليات أو الإستراتيجية العسكرية التي يرمعون تطبيقها على
اتساعد رقعة البلاد طوال فترة القتال . ويرافقها في نفس الوقت وضع استراتيجية العمل الس
ياسي ومراحله المتزامنة مع مراحل الإستراتيجية العسكرية . هذه السياسات الإستراتيجية من
مسئولية القيادة العليا .
ومن مسئوليات تلك القيادة أيضا مهام أخرى
لا تقل خطورة مثل مراقبة الإلتزام بالخط العقائدي الإيديولوجي من جانب الحركة ككل ومن
جانب جميع القيادات .
وأيضا مراقبة البناء التنظيمي ورعايته وتجديده وتطويره والمحافظة على
فعاليته . والسياسة المالية للحركة هي من مسئوليات القيادة وهي عمل لا يقل خطورة عن غ
يره من أعمال القيادة ويرتبط بعمق بكل ما سواه من سياسات عملية وعقائدية . فهو يرتب
ط بالخط العسكري ، والتوجهات السياسية ، والخط الإعتقادي للحركة الجهادية .
وغني عن الذكر أن قيادة الجهاد في أفغنستان كانت مقسمة إلى قيادات متناحرة . وكل منها ك
انت صنفا متدنيا للقيادة . فقد مارست فقط صلاحية الوكيل عن القوى الصليبية التي لا تـ
ستطيع أن تتحرك مباشرة فوق الأرض الأفغانية أو أن تتعامل مباشرة مع الشعب الأفغاني لذا
فقد كانت في حاجة ماسة إلى وسيط أو وكيل أو عميل مهما شئت ، حتى ينوب عنها في
الإتصال والحركة في المحيط الأفغاني وبالتالي فإن كل مهام القيادة العليا والتي تحدثنا عنها
قد أنيطت بالكامل للقوى الصليبية أمريكا وأعوانها باكستان ـ السعودية أولا ثم
أضيف إليهما فيما بعد مصر وإسرائيل .
تلك القضايا العملية مازالت بلا إجابات شافية على النطاق الإسلامي كله ـ حتى الآن ـ والحر
كات الإسلامية عامة والجهادية خاصة تعيش أزمة فكر وأزمة قيادة . وبالتالي فإن كل القضا
يا الهامة ـ العملية خاصة ـ مازالت معلقة . وبعض تجاربنا الجهادية العربية بدأت وهي لا
تدري بأنها مطالبة بالإجابة لمثل تلك المشاكل . بل أن تلك الإجابات من المفترض حلها قبل ا
لشروع في العمل الجهادي .
فالحركات العربية الإسلامية تعاني ما لم تعان منه الحركة الأفغانية من خلاف مظري حول الجهاد
ذاته وحول مشروعية بدئه لمقاومة حكومة مرتدة . فتلك الحكومات مازالت تمثل أولياء الأمر
والشرعية لدي معظم الحركة الإسلامية العربية ـ خاصة الإخوان المسلمين ـ باعتبارها الجسم ا
لرئيسي للحركة الإسلامية هناك . أما عند الإتفاق على شرعية البدء بالجهاد فتبدأ عندها ا
لمشاكل العملية والإختلافات حول طرق حلها .
وفي ظني أن حركة الجهاد في أفغانستان لم تعترضها مشكلة شرعية البدء بالجهاد في مواجهة حكوم
ة مرتدة . وذلك نتيجة لأخطاء حكومة نور محمد طرقي وعملها المباشر الفة لاستئصال الإسلام بـ
دلا من الإلتفاف حوله وتفريغه من محتواه والإحتفاظ بهيكله فارغا محنطا كما هو حادث في ال
بلاد العربية والبلاد الواقعة بشكل عام تحت هيمنة الغرب الصليبي ، وهو الأكثر ذكاء وخبرة
في مقاومة الإسلام .
الإعداد للجهاد يتحول غالبا إلى طريقة غير مباشرة لإلغائه عمليا مع الإعتراف به شكليا . ف
ما هو الإعداد ؟ وما هي درجته ؟ . هذه مسائل خلافية قد تؤدي كما قلنا إلى إلغاء الجهاد
عمليا . واختلال الموازين المادية بين المسلمين وأعدائهم يشجع على تقوية التيار المنادي بـ
تأجيل الجهاد حتى يتم الإعداد . وعمليا فإن التأجيل سوف يستمر إلى الأبد . هناك في المقابل
دعوة البدء بما هو متاح ماديا في مصلحة المسلمين ، والتأجيل الأزلي للجهاد سوف يعطي ال
فرصة للقوى المضادة للرسلام كي تقيم أمرا واقعا متينا وتضرب حتى الإمكانات القليلة المتو
فرة في أيدي المسلمين كي يبدأوا بها الجهاد .
والبدء الفوري للجهاد يحمل في طياته مخاطرا تجاهل المشاكل العملية ـ وهذا ما حدث في جهاد
أفغانستان ـ ورغم النجاحات العسكرية التي يصادفها المجاهدون إلا أنه مع الوقت وتدريجيا يـ
فتقدون السيطرة على زمام الأمور وتزداد صعوبة إمكانية علاة المشاكل العملية . وهكذا يص
اب العمل العسكري بنكسة وتكون الهزيمة أو أن تجري قوى أخرى باستثمار نجاحاته والإستحواذ
على نتائج تضحيات المسلمين ودمائهم . وهذا ما حدث أيضا في أفغانستان .
وفي واقع الحال فإن قرار الجهاد ينبغي أن يسبق الشروع الفعلي في الجهاد بوقت كاف حتى توضع
أساسيات النشاط العملي وقواعد وتصورات العمل المقبل واستعداداته .
والذي يحدث للمسلمين سابقا وحاليا ـ خلال تجارب هذا القرن على الأقل ـ أنهم يقررون الجهاد
فقط عندما يبدأ السكين الكافر في قطع الرقاب المسلمة . عندها فقط يقرر البعض أن يجاهد
وا ـ وتقرر الأكثرية قرارات أخرى تتراوح بين الفرار أو الإستسلام أو ـ وهذه مهنة جديدة ـ
استثمار الوضع برمته لمصلحتها الخاصة فتركب موجة الجهاد وتتاجد بها في بازار السياسة الد
ولية وفي بازار العمل الإسلامي الملتزم . حدث ذلك أمام أعيننا وتحت أنوفنا مرتين على
الأقل ، مرة في سوريا وتجربتها الجهادية المأساوية . ومرة ثانية خلال نفس العقد في الثمانيـ
نات في أفغانستان صاحبة أكبر التجارب الجهادية في القرن العشرين . وقد نضيف حتى لا تختلط ا
لأمور بأن الإخوان المسلمين هم أصحاب الفضل التجاري في الحالتين المأساويتين .
لقد اعترض الإخوان على مبدإ شروع الجهاد في سوريا ولكنه بدأ رغما عنهم . وبرشاقة بارعة
قفزوا فوق ظهره وباعوه لأنظمة المنطقة وقبضوا الثمن وتم تدمير الجهاد . انظر كتاب التج

ربة السورية .
وفي أفغانستان اعترضوا على بدء الجهاد قبل إعداد طويل المدى يركز على جمع الأموال والإتصالا
ت السياسية الخارجية في حين أن لتلك القضايا أهمية هامشية بالنسبة لقضايا الإعداد الأخرى
وعلى رأسها المسائل التنظيمية والعسكرية وتحديد الخطط الإستراتيجية الخاصة بأفرع العمل الأ
ساسية خاصة الفرعين السياسي والعسكري ثم النشاط التعويلي للحركة .
ومرة أخرى فشلوا في السيطرة على زمام الأمور وبدأ الجهاد على يد العلماء وأفراد الشعب
الغيورين . فقرر الإخوان استثمار الحركة والقفز فوق ظهرها والنزول إلى ساحة المزاد الدو
لي وقبض الثمن . وتم بيع الجهاد للأيدي الإقليمية الملوثة في باكستان والسعودية ومنها إلى ا
ليد الأمريكية التي تولت بنفسها تسيير الدفة وقيادة المعركة واستثمار نتائج الجهاد الإسلا
مي في أفغانستان فكانت أكبر خدعة مأساوية سقط فيها المسلمون خلال هذا القرن .
الشروط الثلاثة التي وضعها المعتدلون لبدء الجهاد كان محورها هو استجلاب رضى الغرب والحصول
على معونته – ولم يكن الغرب وقتها قد قرر استثمار الوضع الأفغاني في خارج نطاق الحرب ا
لإعلامية بين الكتلتين . وقد رحب الغرب بالمعتدلين كأدوات متواضعة في ذلك المجال الإعلامي . ور
حبت بهم بالتالي الأنظمة الموالية لأمريكا في العالم العربي وفازوا منها ببعض الدعم المالي و
الإعلامي .
ولحسن الحظ أن هذا التوجه المعتدل لم يرق لحاكم باكستان الجنرال ضياء الحق . فقد رأى
فيه تجاهلا لمصالح باكستان وأمنها المهدد . واعتبر أن المعتدلين قد تجاوزوه وتعاملوا مباشرة
مع الغرب والدول العربية النفطية ، وفي ذلك تهميش لدوره في منطقة سيادته – باكستان
– وفي خلفيته المقلقة – أفغانستان – . لذلك سادت علاقات الجفاء والريبة بين ضياء الحق وا
لمعتدلين ، وازداد قربا من المتشددين خاصة حكمتيار في الدرجة الأولى ثم برهان الدين في الدرج
ة الثانية أما سياف – وهو محسوب على المتطرفين –
فظل ضياء الحق يعتبره ورقة سعودية لذلك لم يعره انتباها كبيرا .
وما زالت السياسة الإسلامية لجماعات العمل الإسلامي والجهادي ما زالت غير مستقرة إزاء الغر
ب بقيادة أمريكا متأرجحة بين عاملي المصلحة –
التي تستدعي التصالح والتفاهم السلمي جماعة الإخوان وبين التجاهل التام وقرار التصاد
م – الذي لا يدعمه برنامج تصادمي مناسب جماعات الجهاد .
لم تكن الجماعات المعتدلة على استعداد للتنازل عن أساسيات عملها الثلاثة ، واستمرت كذلك
حتى آخر لحظة من الحرب . وشعرت شخصيا تجاههم بشيء من التقدير لهذا الثبات وتلك الإستقامة
وإن كانت على باطل . وكذلك لهول الإنحراف والمراوغة التي أظهرها المتشددون الذي رفعو
ا شعارات إسلامية قوية للغاية ، وفي اللحظة المناسبة أظهروا حقيقتهم المخالفة تماما لشعا
راتهم المعلنة منذ سنوات طوال .
"جهاد في الجبال ... وجهاد في بيشاور . وبدلا عن بيشاور يمكن وضع اسم أي مدينة أخرى ،
أما الجبال فيمكن تركها هكذا بلا تعريف . وهكذا تحصل على عنوان دائم لحالة الإنقسام الق
اتل بين القيادات الميدانية في الجبال والقيادات الإنتهازية غالبا والمقيمين في المدن .
وعانى المسلمون وغيرهم من تلك الظاهرة . في الجزائر كان هناك مجاهدون في الأوراس وقيادات اق
ازية تجوب العواصم من القاهرة إلى تونس إلى باريس . وفاز الإنتهازيون على أشلاء ودماء شعـ
بهم وتولوا السلطة وأعادوا البلاد إلى سلطان الصليبية مرة أخرى . كما كان هناك مجاهدون
في حماة ودمشق وحلب وقادة انتهازيون في عمان وبغداد والرياض . وانتهى الجهاد في سوريا بخ
روج الإسلامي من البلاد إلى أجل غير مسمى . وبقاء النصيرية وإسلام آخر لا نعرفه تم تفصيله ع
لى المقاس النصيري .
ودارت الحلقة حتى وصلت أفغانستان فكان المجاهدون في جبال الهندوكوش والخونة والإنتهازيون في
بيشاور يبيعون ويشترون لكي تكون نتيجة أربعة عشر عاما من القتال خروج السوفييت من أف
غانستان ودخول الولايات المتحدة وأمها المتحدة كقوة سيادة لا تنازع داخل أفغانستان المم
زقة والحروقة بالحرب الأهلية .
وكما ذكرنا ورغم روعة القدوة وإنكار الذات والشجاعة الإيمانية لدى قيادات الجبال – في ا
لأغلب – فإن القيادات المحنية مهما كانت رائعة لا يمكن أن تحل محل القيادة العليا التي تقود
العمل الجهادي بأجمعه . فلكل قيادة دورها . أما القيادة الميدانية فهي غالبا قيادة تك
تيكية خاصة بالتعامل مع الأحداث اليومية المتلاحقة ، والقيادة العامة – العليا – تختص أ
كثر بنواحي التخطيط والعمل الإستراتيجي مع اهتمام أقل بالنواحي التكتيكية إلا فيما يتع
لق فقط بربط العمل التكتيكي الميداني مع الخطة العامة وتصورها الإستراتيجي . وليس هناك
ما يمنع –
بل أن ذلك ضروري – من أن تكون القيادة العليا هي قيادة ميدانية مقيمة في نفس ميدان ا
لمعركة . وإذا لم يحدث ذلك لسبب أو لآخر فإننا سنواجه تكرارا لنفس القاعدة ونواجه الإنفص
ام المشئوم بين قيادات الجبل الميدانية وقيادة المدينة الإنتهازية أو على أحسن الأحوال التي
سوف تصبح كذلك بعد وقت قصير .
ونرى أنه في حال إرغام القيادة العامة على النزوح والهجرة خارج مناطق الجهاد لسبب أو آ
خر مثل الإصابة أو المطاردة البوليسية ، فلا بد أن تخلي محلها لقيادة أخرى ميدانية وتتحو

ل هي مباشرة إلى العمل خلف الحدود في مهام معاونة تحددها لهم القيادة الجديدة للجهاد .وفي حالات نادرة تكون قيادات الخارج مجرد رمز تجتمع حوله حركة المقاومة ، ويكون مرجعها الديني أو مخططها الإستراتيجي وموجهها الفكري . ويظل الجانب الميداني وصلاحياته الواسعة باقيا بـ الكامل في أيدي قيادة ميدانية بديلة .

9 ـ لم يكن الحصار محكما في ذلك الوقت حول أي مدينة أفغانية . ويجب ملاحظة تركيب قوات ا لمجاهدين وقدرتها على شن عمليات عصابات محدودة ، وعدم قدرتها على خوض عمليات واسعة أقرب لعمليات الحرب التقليدية . وقد ظل حالها كذلك لسنوات طويلة ـ مع استثناءات محدودة ـ و لكن الذي حدث منذ أواسط عام 1979 هو اتساع نطاق الفرار من الجيش والتحاق وحدات كبيرة منه بالمجاهدين في الجبال ، تلك الوحدات العسكرية أضافت كثيرا إلى الميزان العسكري للمجاهد دين وأحرجت موقف الحكومة الشيوعية ودفاعاتها حول عدة مدن منها العاصمة .ولو كان المجاهد ون في حالة تنظيمية أفضل لاستطاعوا إنهاء النظام قبل تدخل السوفييت في ديسمبر 1979 . ولكـ نه لم يستطيعوا استيعاب القوات المنضمة إليهم . وكما ذكرنا فرن معظم الضباط غادروا أف غانستان نهائيا ، بينما بقي المجنود فترات أطول قليلا في خدمة المجاهدين ، وهي خدمة بالمعنى ا لحرفي ـ مثل الطبخ والغسيل وحفر المغارات والخنادق ـ وتوجهت أنظار المجاهدين ـ في الغالب ـ نحو الإستيلاء على الأسلحة والذخائر التي تحملها القوات المنضمة إليهم وتوزيعها كغنائم ، سواء تم ذلك بحق أو بغير وجه حق . والنتيجة أن تلك القوات العسكرية فقدت تأثيرها نتيجة تلك السياسة ولم تستخدم ـ

إلا بدرجة بسيطة ـ في الضغط عسكريا على النظام . ونضيف أنها عنصر الثقة والكرامة فقد كان رجال الجبال يكرهون الضباط العسكريين بشكل خاص ويشكون في انتماءاتهم العقائدية وأنهـ م شيوعيون . أما الجنود العسكر فقد كانوا غرباء عن المناطق التي يقاتلون فيها . فكانـ وا محتقرين وينظر إليهم نظرة دونية . ولتلك الحالات استثناءات عديدة مثل ضباط تحولوا إ لى قيادات ميدانية ممتازة أو عسكر تحولوا إلى مجاهدين من الطراز الأول ، سواء في مناطقهم ا لأصلية أو في المناطق التي انضموا فيها إلى المجاهدي ، وبقي بعضهم هناك لسنوات وبعضهم استشهـ د بعيدا عن موطنه بعد تاريخ جهادي حافل .

10 في ذلك الوقت كان التعاون بين المجاهدين في أعلى درجاته ـ مع وجود استثناءات أو أخطـ اء وهذا شيء طبيعي ـ وإن كان ذلك التعاون في حجم متواضع بسبب محدودية الإمكانات المادية أو الخبرات المتوفرة . ولكن في حدود الإمكانات المتاحة فقد كانت المعنويات عالية والتعاون رائعا .

11 التواجد الميداني للقيادة له تأثير معنوي ضخم ، يؤثر إيجابيا في نتائج المعارك . وأ صعب الفترات بالنسبة للحركة الجهادية هو فترتها الأولى ، التي تعتمد أساسا على معنويات المجا هدين وتماسك القيادة والمثل الذي تضربه بنفسها على أرض المعركة . لقد ثبتت الحركة الجهاد ية في أفغانستان لقضل قيادات كبيرة بارزة ضربت المثال في الشجاعة والتضحية والثبات ، ود فعت الثمن غاليا من دمائها . وهذه قاعدة لا تتبدل في جميع معارك الحق والباطل . وهي معا رك لا يصلح لقياداتها رجال الفنادق والرحلات السياحية ونجوم الصحافة والإعلام .

12 13 القيادات الأفغانية الكبيرة فرت من ميدان المعركة إلى بيشاور وبدأت تاريخها الجـ هادي بالتسول الدولي والوقوف على أبواب المسئولين هنا وهناك ، والبحث في الدهاليز عن صفـ قة يقومون فيها بدور الوكيل المعتمد في أحد حلقات الحرب الباردة أو الحروب بالنيابة ذلك النوع من الحروب الذي كان شائعا في مرحلة صراع الكتلتين أو مرحلة ما بعد السلاح ا لنووي .

لقد رحبت بهم باكستان لاستخدامهم ضد جارتها اللدود أفغانستان ولكن في نطاق الضغوط السيا سية ليس إلا . ومن الطبيعي أن تنسج الإستخبارات الباكستانية خيوطها حول تلك التجمعات النازحة إلى أراضيها ـ

وخاصة التجمعات السياسية النشطة ـ . ومنذ عام 1973 وعملية اللجوء السياسي الواسعة مـ ن الأفغان النشطين إسلاميا إلى أراضي باكستان ـ في عهد ذو الفقار علي بوتو عدو الله والإسلام ـ فقد احتضنتهم احتضان الموت ومن يومها والحركة الإسلامية الأفغانية النشطة وهي مخترقة لد رجة خطيرة بالإستخبارات الباكستانية . وأكثر رموزها الشهيرة والناشطة هم من رواد تلك ا لأجهزة الشيطانية ، منذ عهد داوود وحتى الآن عهد الدولة الإسلامية في أفغانستان .

ولا يحتاج المسلم إلى ذكاء كبير حتى

يضع افتراضا ـ ولو مجرد افتراض ـ بأن النشطاء الإسلاميين في حال لجوئهم سياسيا إلى دول خارجيـ ة سوف يتم تجنيدهم أو السيطرة عليهم أو توجيههم من قبل أجهزة استخبارات تلك الدولة . والمخلصون الذي سيرفضون ذلك المصير فإنهم إما أن يتم تجميد حركتهم وزجهم في زوايا النسيان وربما تلفق لهم القضايا ويزجون في أعماق السجون أو يتم طردهم ... وأخيرا قد يتم قتلهم في حوادث لا يعلم أبدا فاعلها .

في البداية ساعدت الحكومة الباكستانية معارضي حكم عراقي وأعطتهم مساعدات مالية وافتـ تحت له مكاتبا متواضعة في بيشاور وإسلام آباد العاصمة . وساعدتهم في إصدار نشرات وكتيبـ ات دعائية ضد النظام الأفغاني ، ووجهت مسار رحلاتهم الخارجية إلى الغرب والدول العربية لج لب المساعدات المالية والسياسية ، وإحراج نظام كابول عالميا . كانت تلك هي الأهداف البا

كستانية ولم يكن من مصلحة باكستان ـ ضياء الحق ـ القيام بأي تصعيد عسكري داخل الأرض الأ فغانية نتيجة لعوامل كثيرة داخليا وخارجيا . فتصعيد المواجهة مع نظام كابل العدواني الم دعوم مباشرة من السوفييت ، سوف يضع باكستان بين فكي كماشة رهيبة بين الهند والسوفييت . لهذا كانت باكستان معرضة تماما لأي عمل عسكري جهادي داخل أفغانستان . وبذلت وسعها لح ظر حركة الأسلحة عبر الحدود أو أي مظهر يمكن أن تشم منه كابل ـ والسوفييت ـ رائحة مساعد ة باكستانية للمجاهدين . وكان المجاهدون يعانون كثيرا في تهريب طلقات قليلة أو كميات تاف هة من المتفجرات عبر الحدود من باكستان إلى أفغانستان . وشكلوا من أجل ذلك لجماعات خاصة بـ التهريب .
ولم تغير باكستان موقفها إلا بأوامر أمريكية عندما غيرت أمريكا موقفها من الحرب الأفغانية وقررت استثمارها . ولا بد أن نشير إلى أن علاقة أمريكا مع ضياء الحق كانت غير مريحة طوال الأزمة الأفغانية ـ حتى قتله في النهاية كما سيأتي ذكره لاحقا .
14 ... ولكن زعماء بيشاور ما زالوا يسخرون مواردهم المالية الضخمة في تكريس هذا الإنقسام إرضاء لنوازع شخصية وأهداف غير إسلامية .
الموارد المالية المشار إليها كانت ضخمة بمعايير عام 1979م وظروفه ولكنها لم تكن كذلك في م رحلة تدوين الأزمة وزحف المليارات إلى خزائن قادة المنظمات .
أما الأهداف غير الإسلامية الواردة ، فكانت تعني الأطماع الشخصية التي لا تبالي بمصالح المسلمين . ولم يكن في ذهني إطلاقا ـ في ذلك الوقت ـ تلك الصورة المرعبة التي وصفتها سابقا لضلوع تل ك القيادات الأفغانية في مخططات الصليبية الدولية . وأنهم خدعة كبيرة تورط فيها المسلمون . ويرجع ذلك لقلة خبرتنا في ذلك الوقت بأمثال تلك القضايا وأمثال هؤلاء الزعماء الذي لم نتصور وجودهم أصلا في الوسط الإسلامي الجهادي .
وقد ظهر لنا أثناء وبعد احرب الأفغانية أن الوسط الإسلامي الملتزم و الجهادي هم أكثر الأوساط عرضة واستهدافا لاختراقات القوى الكافرة وأجهزة تجسسها . ويزيد الطين بلة السذا جة السياسية المفرطة لجمهور تلك الحركات الإسلامية والعاطفية الشديدة التي تغمر أجواءه بح يث يسهل على أي نصاب مبتدئ أن يهيج المشاعر ويسحب خلفه الألوف من الشباب إلى حيث الهاوي ة المجهزة بعناية بالإتفاق بينه وبين قوى التجسس الكافرة .
ليس ذلك عدوة لرفع الثقة وانتشار التوجس والشكوك بين الإخوة ، ولكنه دعوة لزيادة الوع ي وإلى مزيد من الوضوح وروح محاسبة المسؤولين ومناقشتهم ـ وليس الإنسياق الأعمى خلف كل نا عق ـ ودعوة إلى الإهتمام بالموضوع السياسي والتفقه فيه لأنه ملاك الحركة ـ أي حركة ـ والمسيطر عليها .
وخوض السياسة بلا علم بأصولها هو كمن يلقي بنفسه إلى البحر الهائج بغية أن يتعلم السباح ة . أيضا ترك السياسة للقيادة ـ تقرر فيها ما تشاء بدعوى أنها تعلم كل شيء ـ وأن ما لديها من علم لا يتوفر لدى الآخرين ، وأن خبرتها بالأمور لا يرقى إليها خبرة الأتباع من الش باب حديثي السن عديمي الخبرة ، كل ذلك يؤدي إلى الهاوية وقد ثبت ذلك مرارا من تجارب المسلم ين القريبة والبعيدة .
لا بد أن يشارك الجميع في الموضوع السياسي للحركة الإسلامية ـ والجهادية ـ ولا يترك ذلك لنصف وة كي تحتكره كما احتكر السحرة في القديم علوم الشعوذة حتى يسيطروا بها على جمهور الشعب ثم يقودوه كقطيع من الخراف لخدمة الفرعون .
إن السياسة هي علم فقه الواقع ، وهو جزء مكمل وحيوي لفقه شرائع الدين . وبدونهما معا لا تكتمل الذهنية الإسلامية بل تظل عرجاء حاجزة مضللة يسهل خداعها وتسخيرها حتى لخدمة الـ كفار ـ كما حدث معنا في أفغانستان والبوسنة وغيرها .
والذي حدث في أفغانستان كان مأساة ، فقد شاهدنا عددا من الأفاقين عملاء الإستخبارات وقد تم تعيينهم من قبل تلك الأجهزة زعماء لأكبر حركة جهاد إسلامي في هذا القرن ـ
هذه أحد جوانب الم
عانا لأن القافلة هي جماعة منظمة للغاية إداريا ودفاعيا بعكس جالنا وحال الشباب العرب ي في أفغانستان ـ .
هؤلاء الآلاف المؤلفة من الشباب الذين وفدوا وشاركوا في الجهاد آنذاك كانوا يضمون خيرة شبا ب الأمة وأكثرهم إخلاصا ـ هذا ما أظنه وأحكم به ـ ومع هذا كيف خدع هؤلاء جميعا بواسطة استخبارات الكفر الدولية والردة الإقليمية ؟ . ومن المسؤول عن كل ذلك ؟ . وما هو الضمان ألا يتكرر ذلك في مكان آخر وزمان آخر ؟ . مرة أخرى لا نغفل أو ننكر الفتنة الع امة للإسلام وحكته في عصرنا على
أيدي هؤلاء الشباب وما قدموه من تضحيات وأكتسبوه من خبرات أثرت بلا شك على المسيرة الإسلام ية في عصرنا الحالي .
15 مرحلة اجتياح المدن الحصينة هي المرحلة الثالثة والأخيرة من حروب العصابات الطويلة حسب التقسيم الكلاسيكي لمراحل الحروب غير التقليدية . ومن المفروض أن يتضمن هذا الكت اب استعراضا لتلك المراحل وبعض تطبيقاتها في التجربة الأفغانية . ونعلق هنا على
أن ما ورد في التقرير عن موضع المناقشة لم يكن دقيقا تماما في تلك النقطة لأن المجاهدين الأفغا ن وحتى نهاية الحرب ، لم يدخلوا المرحلة الثالثة بشكل مناسب من حيث المواصفات الفنية الـ

تي ينبغي أن تكون عليها قوات المجاهدين في تلك المرحلة . أما في عام 1979م فكانت الطفرة الحادثة عسكريا ناتجة عن انضمام قوات كبيرة من الجيش إلى صفوف المجاهدين وكاد ذلك أن يؤدي بالنظام لولا التقصيرات التنظيمية التي تحدثنا عنها سابقا ولولا التدخل السوفييتي الذي أمسك بدعائم النظام المنهار ومنعه من السقوط وأطال في بقائه عدة سنوات أخرى . أما العقبات الفنية الخاصة بضعف الدفاعات الجوية للمجاهدين فقد تم التغلب عليها بواسطة تكتيكات قتالية وإجراءات وقائية خاصة . وهو ما سوف نذكره بالتفصيل أثناء استعراضنا لعملية فتح مدينة خوست . وهو ما يوضح بأن تأثير سلاح الجو والدفاع الجوي والصاروخي هي عوامل محدودة ويمكن مواجهتها ، وتلك دروس هامة للغاية بالنسبة للمجاهدين ينبغي دراستها والإستفادة منها في تجاربهم الجهادية القادمة . ومن المفروض أن نستعرض ذلك ضمن فقرات هذا الكتاب .

16 المجاهدون هم أكثر الفئات فقرا وأقلها شهرة في العالم الإسلامي وأكثرها تعرضا للتشهير والهجوم .

هذه الظاهرة التي تكررت في تجربة سوريا الجهادية وتجربة أفغانستان وهي دليل على ضعف أخلاقي داخل الصف الإسلامي وضعف عام في صفوف الأمة .

فالظاهرة الإنتهازية التي تمتطي الموجة الجهادية تتزعمها عنوة وتتاجر بها هي علامة ضعف أخلاقي في داخل الصف الإسلامي . والأمة التي تقعد عن تفقد أحوال المجاهدين كي تمدهم العون هي أمة عاملة بقدرة الخواص ، ودفع الأموال كزكاة أو صدقة بدون تحري موضعها لا أظنه يعفي من المسئولية . والإعلام الإسلامي الذي يخدم أشخاصا أو هيئات وأحزاب أكثر مما يخدم الإسلام ومصالح المسلمين هو إعلام يدفعنا إلى نفس المهالك التي يدفعها إليها الإعلام الدولي اليهودي والصليبي . ولا نتكلم هنا عن ظاهرة إدانة الجهاد نفسه وإطلاق لفظ العنف المسلح عليه ، وتسمية المجاهدين بالمتطرفين أو جماعات العنف المسلح . ولا نتكلم أيضا عن ذكاء من يعترفون نظريا بالجهاد كفريضة إسلامية ثم من جانب آخر يدينون كل من مارس الجهاد – بدون تصريح رسمي منهم ومن الدولة – بأنه منهور طائش بل متآمر على الحركة الإسلامية وإنجازاتها السلمية ضمن القنوات الرسمية للنظام القائم . ثم يعرضون خدمات أمنية على النظام كي يعطيهم مزيدا من حرية الحركة كي يقمعوا – بصفتهم التيار الإسلامي المعتدل – تيار العنف المسلح أي تيار الجهاد .

كل تلك الظواهر التي تقترب من درجة الخيانة أو تتجاوزها ليست محور حديثنا الآن ، بل نتكلم فقط عن تيار مخلص ولكنه يعاني من أمراض أو انحرافات أو نواحي قصور يمكن معالجتها مع الزمن . أما الخيانات فهي من الجنايات العظمى في جميع الشرائع السماوية والأرضية ، وهي تحتاج أما إلى توبة نصوح أو إلى تنفيذ حكم رادع يحمي الأمة من تأثيراتها القاتلة .

17 – 18 – 19 من المعلوم أن توفير الذخائر والأموال الضرورية هي من ضمن المطالب الحيوية والمشاكل الهامة التي تعترض الحركة الجهادية ورجال حرب العصابات ، خاصة في بداية الحركة وعندما لا تمتلك الحركة عمقا صديقا يمدها باحتياجاتها أو بجزء منها .

ومع ذلك تستطيع الحركة الجهادية الإستقلال عن الخارج إلى درجة كبيرة – أو استغناء كاملا – إذا توفر الإرتباط القوي بينها وبين شعبها ، في تلك الحالة يمكنها الإعتماد على مصادر التمويل المحلية وكذلك الأغذية والذخائر والمعلومات .

وغالبا فإن صيغة العمل المستقبلي مع عدم وجود عمق متعاطف سوف تكون صيغة عمل معظم الحركات الجهادية الإسلامية في وسط حالة العداء الدولي الحالية وتسلط الأنظمة المرتدة على بلاد المسلمين وتكاتفها مع الصليبية في القضاء على الإسلام و الحركة الجهادية أولا .

إن عمل حركة العصابات بدون ركيزة صديقة مجاورة هو احتمال ممكن عمليا بل إن النجاح ممكن في تلك الحالة أيضا مع اعتبار أن عمليات التهريب ولو على نطاق ضيق تكون دوما مستمرة في ظل حالات الحصار . ويلاحظ أن وجود قواعد للعصابات إلى جوار السواحل البحرية هو ضمانة لعدم وقوعها في حصار كامل . فالبحار من أفضل وسائل التهريب .

ولما كان الوسط الداخلي – السكان – وتعاطفهم مع المجاهدين أهم من الأرض الصديقة المجاورة فإن القوى المعادية تلجأ إلى سياسة الأرض المحروقة بهدف إرهاب السكان وتدمير مصادر أرزاقهم ودفعهم إلى مغادرة مناطقهم فيبقى المجاهدون في الأرض المحروقة التي لا سكان فيها أو موارد رزق . وتلك من الطرق الناجحة في مقاومة حروب العصابات ويسمونها أحيانا بسياسة التجفيف طبقا للإصطلاح الشهير بأن مقاتلي العصابات هم مثل الأسماك التي تعيش في بحار من الناس .

من أجل ذلك فإن المجاهدين ورجال العصابات ينبغي عليهم السعي في اتجاه معاكس لتلك السياسة أي تثبيت الناس في أراضيهم ومساعدتهم على تعميرها والإستقرار فيها بأقل قدر من المعاناة أو بدون تعريضهم لمشاكل لا ضرورة لها .

في زيارتيا الأولى لأفغانستان شاهدنا بعض الإجراءات الجيدة سواء من جانب المجاهدين أو الأهالي تهدف إلى التمسك بالأرض والبقاء فيها وممارسة النشاط الإقتصادي المعتاد من زراعة ورعي . وللوقاية من الغارات الجوية حفر العديد من الأهالي مغارات وخنادق داخل البيوت وقريبا منها . وكانت الحياة في وتيرتها العادية تقريبا بعد أن تعود السكان على نمط حياتهم الجديد ، حتى أن الأطفال لم يعودوا بحاجة إلى من يرشدهم متى يتوجهون إلى الخنادق والحفر .

أما سلوكيات المجاهدين فقد كانت منضبطة للغاية فلم تتفش الجرائم والإستخدامات الخاطئة للسلاح ضد الأهالي ـ وهم مسلحون أيضا خاصة في مناطق الجبال ـ
وأذكر أنني شاهدت فتاة في سن الشباب تحمل بعض الحطب وتتحرك وسط الجبال الموحشة خلف عنمات لها . وكان معي عصبة من المجاهدين الذي أشاحوا بوجوههم بعيدا عنها ، وكتبت لأصحابي في أبو ظبي خطابا به تعليق عن تلك الحادثة البسيطة ـ كان ذلك عام 1981م ـ وقلت لهم أن المناطق التي يسيطر عليها المجاهدون هي أكثر أمنا من أبو ظبي التي لا يأمن أحدنا أن يترك ابنه أو ابنته أمام باب منزله عدة دقائق خوفا من الخطف والإغتصاب ـ وقتها كانت عدة حوادث من ذلك النوع قد وقعت في الإمارات ـ وللأسف الشديد فإن الحال لم يظل كذلك لفترة طويلة خاصة في مرحلة التدويل والاستثراء
الفساد في الحركة الجهادية ، انطلاقا من بيشاور وزحفا حتى خطوط التماس .
ذلك الفساد الذي ساعد العدو على النجاح في تطبيق سياسة الأرض المحروقة التي فشل في تنفيذها في ستوات الجهاد الأولى . ومثل كل الكوارث التي حلت بالجهاد كانت البداية من بيشاور . ففي الأحزاب هناك ساهمت بأكبر نصيب في تفتيت الجهاد وتمزيق صفوف المجاهدين تحت رايات حزبية متناحرة بغير شرف أو شريعة . وقد نال الأهالي لهيب ذلك الخلاف الفوضوي حينما شرعت تلك الجماعات في بسط سلطاتها على الأرض المحررة وسكانها لا من أجل تثبيت السكان وتسهيل حياتهم والدفاع عنهم ولكن من أجل جباية الخراج وتحصيل العشر واتبعوا في سبيل ذلك وسائلا عنيفة من ضرب واغتصاب ومصادرة . فوقع الناس بين نارين لا يملك لهما دفعا ! نار الحكومة الشيوعية ونار المجاهدين المتصارعين الظالمين . فلجأ الناس إلى الهجرة ، وذهب أكثرهم إلى باكستان وبعضهم إلى المدن التي تسيطر عليها الحكومة بشكل كامل . وكانت باكستان أكثر جاذبية حيث تدفقت المعونات على المهاجرين سواء من الهيئات الصليبية أو العربية أو المحسنين العرب . وكانت النتيجة أن المهاجر يمكنه بقليل من الحيلة أن يحصل على عوائد اقتصادية من هجرته تفوق كثيرا ما كان يحصل عليه من نشاطه الإقتصادي العادي داخل البلدة . فكثيرون سجلوا أنفسهم في أكثر من معسكر للمهاجرين للحصول على معونات مضاعفة ـ مع دفع شيء من الرشاوي للموظفين الفاسدين من حكومة باكستان ـ . وكثيرون سجلوا أطفالهم على أنهم أيتام ـ وهم ليسوا كذلك ـ بل سجلوهم في أكثر من مركز وحصلوا على معونات متعددة . لقد زادت رقعة الفساد واتسعت حتى غطت كل ـ أو معظم ـ الساحة البشرية الأفغانية في المهجر والداخل .
أما من هاجروا داخليا إلى المدن الأفغانية الكبرى فقد تحولوا في أغلبهم إلى جواسيس للنظام الحاكم وتحت إدارة الجهاز الأمني الرهيب خاد .
وهكذا فقد صبت فوضى المجاهدين في نفس مصب سياسة الأرض المحروقة التي نشط فيها السوفييت وعملائهم الأفغان وكانت النهاية المحزنة هي هجرة ثلث الشعب الأفغاني خارج أراضيه . وكانت أعلى نسبة هجرة في العالم إلى وقتها 6 ملايين مهاجر .
20 تقرير مراسل الجارديان عظيم الدلالة حاليا ـ كما كان عظيم الأهمية وقت الأحداث المأساوية المذكورة على أرض أفغانستان . وكثيرة هي أوجه التشابه مع ما يحدث حاليا في طاجيكستان .
فالقوات الروسية حاليا تدافع عن النظام الشيوعي في دوشنبيه وتقوم مقاتلاتها وقواتها المسلحة بضرب مراكز المجاهدين وتعلنن المرة تلو الأخرى أنها لن تتخلى
عن طاجيكستان ، وتدعي أن الدفاع عن حدود طاجيكستان هو دفاع عن حدود روسيا رغم أن المسافة بين الحدودين هي 2000 كم .. ويدعي الروس أن الإسلام هو الخطر الزاحف من طاجيكستان صوب موسكو .
الظرف الدولي والإقليمي حاليا ساعد موسكو في احتواء حركة الجهاد أو إضعافها بشدة بسبب التحالف الدولي والإقليمي ضد هذه الحركة وبسبب مشاركة تكوينها وتهافت قياداتها إن لم نقل خيانتها . وموسكو تجد هذه المرة في طاجيكستان تأييدا أمريكيا وغربيا وعكس ما وجدته من مقاومة في الحالة الأفغانية . بل أنها وجدت مساعدة كبيرة من النظام الإسلامي في أفغانستان نقصد به نظام الرئيس برهان الدين رباني وقائده مسعود . وساهم كلاهما بدور بارز في تركيع المسلمين الطاجيك تحت القدم الفولاذية الروسية وإرغامهم على
احترام الشرعية الدولية لأمريكا وأممها المتحدة . ووجد الروس أيضا مساعدة إيرانية قيمة في نفس الإتجاه . وهي نفس المساعدة التي بذلتها إيران إلى جانب روسيا وأمريكا لإجهاض نتائج الجهاد الإسلامي في أفغانستان وذلك منذ عام 1989م على وجه الخصوص .
أما ملاحظة الأطماع التقليدية للسوفييت في أفغانستان فهي اتهام يمكن تبريره بادعاءات جيواستراتيجية معقولة فالجوار الجغرافي والنهم الروسي للمياه الدافئة هي دوافع يسهل فهمها . ولكننا الآن نفهم بصعوبة ـ على الأقل أكثرنا ـ دوافع أمريكا للسيطرة على أفغانستان وهو ما تحقق لها بدرجة كبيرة حاليا . لقد أزيحت الدبابات السوفييتية من فوق صدور الأفغان ، وحل بدلا منها الدولار الأمريكي المعطر بالدماء . وبقدر ما أثارت الدبابات الدفاع عن الأرض والدين والأعراض ، بقدر ما خدر الدولار تلك الإحساسات النبيلة واستبدلها بوحشية التكالب على الدولار والسلطة السياسية على حساب نفس المقدسات أي الأرض والدين والأعراض .
وكم تتفطر قلوب هؤلاء الذين عاصروا نفس الحالتين وهم يحلمون بدولة الخلافة التي وعدوا بها

وضحوا من أجلها بكل ما يمتلكون من مال ودماء .

21 تحولت أفغانستان إلى ترسانة عسكرية ... كان من السهل ردراك ذلك في وقت المعارك و ذلك بمشاهدة ضخامة الآلة العسكرية الشيوعية وبعد الإنسحاب السوفييتي وحتى انهيار النظام ا لشيوعي بعد ذلك بحوالي ثلاث سنوات قفزت أسلحة الشيوعيين الأفغان نوعيا وكميا .

ولكن إدراك مدى ضخامة تلك الترسانة العسكرية لم يتضح جلاء إلا بعد سقوط النظام واستسلام الحاميات العسكرية في المدن . وقد شاهدت ضخامة الآلة العسكرية لحامية جرديز عند استسلامها وشاهد آخرون حامية جلال آباد ـ ويقال أنها كانت أضخم من مثيلتها في جرديز بما يتناسب م ع تفاوت الأهمية العسكرية للمدينتين ـ . وسمعت من بعض العرب مواصفات الترسانة العسكرية ا لرهيبة في كابل . بعض التقديرات ذهبت إلى أن مخزون الأسلحة والذخائر في أفغانستان كان يو ازي أو يفوق مثيله في الهند . على كل حال فإن هذا المخزون الذي تركه السوفييت لم يخرج عن الهدف الأصلي الذي من أجله نقل إلى أفغانستان ، ألا وهو قتل الأفغان ومحاربة الإسلام في المنطقة . لقد تولت الأحزاب الجهادية متابعة المهمة السوفييتية ولكن تحت إشراف أمريكي هذه المرة .

22 شراء الأسلحة الثقيلة وذخائرها من أيدي المجاهدين وسحبها من أيدي المجاهدين . واحدة من المظاهر الخطيرة التي رافقت الجهاد في أفغانستان منذ بدايته وحتى لحظاته الأخيرة . واتخذت تلك الظاهرة أشكالا عديدة . ولكن لها هدف أساسي إلى جانب تفرعات ثانوية لتلك الظاهرة . والجانب الأساسي في تلك الظاهرة يأتي من حقيقة أن حرب العصابات في مرحلتها الأولى تعتمد أ ساسا على التسليح الخفيف وفلسفة الحركة السريعة وتفادي المواجهات الحاسمة . والإنتقال إلى المرحلة الثانية لحرب العصابات يرتبط إلى حد كبير باستخدام الأسلحة الثقيلة لخوض المعارك ا لأوسع بهدف توسيع مناطق النفوذ والإحتفاظ بالأراضي الأكثر حيوية ، وذلك مستحيل بدون قوة السلاح الثقيل . أما المرحلة الثالثة ـ مرحلة الهجوم الإستراتيجي ـ وتحرير المدن فإن الأسلحة الثقيلة هي العماد الأساسي للعمل العسكري في تلك المرحلة .

من هنا نستنتج أن السلاح الثقيل هو معيار التطور العسكري لحربا لعصابات ، وبالتالي فإن سحب ذلك السلاح ومنع المجاهدين ـ بأي طريقة ـ من الحصول عليه بالشكل الكافي أن حجب التد ريب المناسب على استخدام تلك الأسلحة والتكتيكات الملائمة لها . كل ذلك يؤدي إلى عرقلة عم ل المجاهدين عسكريا ، أي جعلهم في حالة تخلف عسكري ودوران في حلقة مفرغة لا نهاية لها من العمليات الصغيرة المجدبة . التي تنتهي بحالة إحباط معنوي لدى المجاهدين مع إمكانية تدميرهم عسكريا بواسطة حملات متوالية ومدروسة جيدا من جانب قوات جيش العدو .

والبداية المبركة جدا ـ والتي أشار إليها التقرير ـ عن سياسة سحب الأسلحة الثقيلة من أيدي المجاهدين يقف وراءها بلا شك جهاز الإستخبارات السوفييتي كي جي بي مع منظومة حلفائه ومنهم حزب الشعب الباكستاني الذي تحول بعد إعدام ذو الفقار علي بوتو رئيس باكستان ا لذي أعدمه رئيس أركان جيشه ضياء الحق واستولى على حكم البلاد فوق جثة رئيسه ، ذلك الحزب تحول إلى منظمة إرهابية تدرب أفرادها في الكتلة الشيوعية وتعمل تحت إشراف موسكو ضمن مع دات الحرب الباردة لزعزعة استقرار نظام ضياء الحق الموالي لأمريكا .

لقد تحول ولاء حزب الشعب من موسكو إلى واشنطن التي أوصلت زعيمة الحزب بينظير ابنة بوتو إلى حكم باكستان فوق جثة ضياء الحق . وتقوم أمريكا بتوظيف إمكانات ذلك الحزب في الإرهاب وم دانه المستحكم للإسلام في ضرب الإسلام في منطقة جنوب آسيا وغيرها من المناطق . وقد بدأت في ولا يتها الأولى في تفريغ مكاسب الجهاد في أفغانستان من محتواها ، وتحويل كل مكاسبه وما تبقى م نها إلى الأيدي الأمريكية ، وفي عهد وزارتها الثانية تولت تصفية التواجد العربي في بيشاور والذي رافق الجهاد الأفغاني .

حزب الشعب قام بتكليف من الإستخبارات السوفييتية بمهمة شراء الأسلحة الثقيلة وذخائرها من أيدي المجاهدين وسحبها إلى أسواق السلاح في مناطق القبائل الحدودية ذات الحكم الذاتي .

أما في عهد ضياء الحق ـ وهو العهد الذهبي لتدويل القضية وتدفق الإمدادات الخارجية ـ فقد مارس ضياء الحق رقابة صارمة على نوعية وكمية الأسلحة الثقيلة ضمن استراتيجيته الأفغانية التي لخصها في جملة معبرة لرئيس استخباراته اللـ آي إيس آي أختر عبد الرحمن حين قال له »دع الطبخة الأفغانية تنضج على نا ر هادئة« أي أن وتيرة الحرب ومعدل تصاعدها وتطورها يجب أن يكون بطيئا وهادئا ـ ربما حتى يسهل التحكم فيه أو إطفائه عند الضرورة ـ وطبقا للمصالح الوطنية لباكستان أولا ومصا لح حلفائها الأمريكان ثانيا .

في تلك الفترة كان ضياء الحق ـ باعتراف ضباط مخابراته الذين تكلموا عن تلك المرحلة ـ كانو ا يحتجزون كميات معتبرة من الأسلحة الثقيلة القادمة للمجاهدين ، وكانوا يمنعون وصول بعض ها ، كل ذلك حتى لا يفلت المعيار ـ وتشيط الطبخة ـ من يد الطباخ الماهر ضياء الحق . وسيلة أخرى اتبعتها أجهزة استخبارات الجنرال ضياء الحق وهي وسيلة التدريب فيما يتعلق بالأسلحة الثقيلة ، و قد ذكرنا كيف كانوا يدربون المجاهدين الأفغان على استخدام المدفعية بدون أجهزة تصويب

وفي المرحلة الأخيرة من الحرب ـ حينما شعرت أمريكا أن نظام كابل في طريقه إلى السقوط خاصة

بعد انسحاب السوفييت ومصرع ضياء الحق – دفعت الإستخبارات الباكستانية إلى سحب ذخائر الأ
سلحة الثقيلة من الأسواق الحرة للقبائل ومن داخل أفغانستان . وبالفعل تحرك عشرات من تجا
ر القبائل يجمعون تلك الذخائر من داخل أفغانستان وبيعها مرة أخرى للرستخبارات الباكس
تانية بأسعار مجزية تدفعها السعودية في النهاية .
وحتى بعد سقوط النظام حركت أمريكا حملة دعائية محمومة حول صواريخ ستنجر الأمريكية ، و
طالبت الإستخبارات الباكستانية بتجميعها . وتحرك تجار السلاح القبائليون وجمعوا ما استطا
عوا تجميعه من تلك الصواريخ وباعوها للإستخبارات الباكستانية التي أعادت بيعها للإستخبا
رات الأمريكية مع تحصيل عمولات مجزية .
تلك السياسة كانت ضمن عوامل إطالة مدى الحرب الأفغانية وبالتالي زيادة تكاليفها من الـ
دماء والأموال . كما أدت إلى خراب اقتصادي مدمر للمجموعات القليلة المخلصة التي كانت م
ضطرة لشراء تلك الذخائر لاستخدامها في معارك تحرير المدن . وقد عانت المجموعات العربية الـ
عاملة عسكريا في تلك الفترة من جراء تلك السياسة . واتنزفت معظم مواردهم المالية في شرا
ء ذخائر ثقيلة لعملياتهم العسكرية وكذلك خلفائهم الأفغان الذين اعتمدوا كليا على
العرب في شراء
تلك الذخائر . حتى أن معظم الأفغان العاملين مع العرب تحول إلى احتراف عمليات نصب واحتيال
للحصول على الذخائر من العرب ، ثم تسريبها مرة أخرى إلى التجار وبيعها لهم . فيضطر الـ
عرب لشرائها مرة أخرى وهكذا . وقد شاركت إخواننا العرب في معاناة بعض تلك المهازل المر
يرة التي شكلت أحد الضغوط النفسية والمعنوية على المجاهدين العرب .
23 – 24 – 25 – 26 لم تتحرك باكستان لمساندة الشعب الأفغاني فيمحنته إلا بناء على أ
وامر أمريكية . وقد أصر ضياء
الحق على ابتزاز أمريكا إلى أقصى مدى مستطاع للحصول منها على كل ما يقوي مركزه في حكم
باكستان ويزيد من قبضته في المنطقة والعالم ، وقد نجح في ذلك كما لم ينجح أي حاكم في العالم
الثالث . وقد كافئته أمريكا في نهاية الأمر بتفجيره في الجو مع كبار جنرالات الجيش والإستخب
ارات .
الموقف غير الأخلاقي لباكستان الحكومة على الأقل هو في الأعراف السياسية موقف طبيعي حيث أ
ن المعيار هو المصلحة وليس المبدأ . ففي بداية الأزمة لم يجد المهاجرون خياما أو معونات إن
سانية في انتظارهم – فيما عدا القليل من التبرعات الشعبية التي نشطت فيها هيئات خيرية و
إسلامية – بل وجد المهاجرون بيوتا بالإيجار وأكثرهم موظفون في الدولة . أما المجاهدون فقد ك
انوا يعتمدون على نظام التهريب عبر الحدود الجبلية من أجل الحصول على كميات ضئيلة من الـ
عتاد .
لقد كانت تلك المواقف غير الأخلاقية مثار نقمة الشعب الأفغاني والمتعاطفين معه إسلاميا . ولـ
كن ماذا عن موقف الحكومة الأفغانية الإسلامية بعد تحرير أفغانستان من إخوانهم الطاجيك الذ
ين واجهوا نفس المحنة من الشيوعيين في خريف عام 1992م ؟ . ما هي المساعدات الإنسانية أو ا
لعسكرية التي تلقوها من أفغانستان الإسلامية المجاهدة ؟ لا داعي لأن نسأل عن عدد النساء الـ
لاتي انتهكت أعراضهن والرجال الذين قتلوا من أجل سلب أموالهم ، ومصادرات أموال المهاجر
ين الطاجيك تحت تهديد سلاح المجاهدين الأفغان على الشاطئ الآخر من نهر جيحون .
كم من المعايير الإسلامية احترمها الأفغان عند تعاملهم مع مسلمي طاجيكستان من مهاجرين ومجا
هدين ؟ . إن المقارنة بين ما فعلوه مع الطاجيك وما فعله الباكستانيون معهم هي مقارنة
في صالح باكستان رغم كل النذالة والوضاعة التي ميزت مواقفهم الرسمية . واللامبالاة والسلب
ية التي غطت مواقفهم الشعبية . هذا مع استثناءات في الأوساط القبلية التي كانت أشرف موق
فا من باقي الفئات . ولا يمكن أن ننسى مواقف رائعة من مسلمي باكستان في مناصرة الأفغان
بالمال والدم . وكذلك مواقف رائعة من أفغان قاتلوا ببطولة وفدائية عن إخوانهم الطاجيك
.
إن هذه الصور المشرقة هي ما يبعث الأمل في أن الخير في أمة الإسلام موجود إلى يوم القيامة .
ولكن للأسف فإن المساحات المظلمة من الصورة هي أكبر بكثير من المساحات المضيئة .
أما حادثة الطيار الأفغاني الذي فر إلى باكستان بطائرته ثم أعادته الحكومة مع طائرته كي
يقتل في كابل . فلم أعلم مزيدا من التفاصيل التي تؤكدها ، وإن كانت غير مستبعدة في عالم
السياسة ، فحكومة باكستان – في عهد بينظير – هي التي شاركت في اغتيال الشيخ عبد الله عزا
م عام 1989م وهي طاردت العرب وشردتهم وسجنت عشرات منهم وقتلت عددا من القضايا المزورة
ضد عدد منهم في أعوام 1993م – 1994م .
27 زبت إيران في بدايات ثورتها تعاطفا ممنوحا مع الأفغان من مهاجرين ومجاهدين . وعلم
ت أثناء زيارتي فأفغانستان عام 1981 أن حزب إسلامي حكمتيار قد تلقى معونات مالية و
أسلحة من إيران وليبيا . ولم يتأكد ذلك النبأ إلا من مصدر وحيد وإن كان ه شواهد تؤيده
سواء
في تلك الأيام المنكرة أو فيما بعد جلاء السوفييت وبداية ظهور الوجه الحقيقي للقيادات الج
هادية الأفغانية .
وبعد انتهاء حربها مع العراق ووفاة الخميني تبدلت السياسة الإيرانية تماما لتأخذ توجها

مزدوجا يقوم على التأييد الإعلامي مع التوجه العملي لأجهاض أي نتائج إيجابية للجهاد في أ
فغانستان . وكان واضحا من السياسة الإيرانية حينذاك أن هناك تفاهما بينها وبين السياسة
الأمريكية في أفغانستان – ثم تكرر نفس الموقف مع المأساة البوسنية حيث ركزت إيران على
إجهاض التحرك الجهادي لهذا الشعب – . وهذا يتوافق تماما مع المطالب الأمريكية ، ومع هذا
فلا يمكن حاليا أن ندعي بأن إيران هي بالكامل أداة أمريكية كما هو الحال مع السعودية و
باكستان مثلا .
28 مسميات مثل دول إسلامية – حكومات إسلامية – صحافة إسلامية – صحوة إسلامية – مينا
ت إسلامية – ... الخ تحتاج إلى كثير من التمحيص بل إلى التبديل لأن أكثرها يحمل من الخداع
والتضليل أكثر مما يحمل من الحقيقة .
وقد أوضحت أحداث أفغانستان وما بعدها أن الدول الإسلامية ليست لها سياسة أمنية أو تو
جهات عقائدية . وأنها ليست إلا دمى
في مسرح العرائس الدولي . وكذلك ميناؤنا الإسلامية – خاصة الإغاثية – ولذلك حديث آخر .
29 أموال فاعلي الخير هو موضوع يستحق وقفة منفصلة ، ونقول الآن بأن ذلك المصدر كان ها
ما ومؤثرا في الحرب الأفغانية . ولكن قليل منه تم توظيفه في الأوجه الشرعية الصحيحة . وعل
ى هامش تلك الأموال نبتت كثير من الطفيليات السامة والأعشاب الضارة التي انتفخت بأموال
المسلمين ودماء المجاهدين .لقد ترعرعت فئة جامعي التبرعات التي كانت في أغلبها فئة من الأ
فاقين والمحتالين ، باستثناء
ضئيل للغاية لقلة بذلت المستحيل للوقوف في وجه شلالات الإنحراف والإفتراء . هذه الظاهرة الخ
طيرة ظهرت قبلا في التجربة الجهادية في سوريا ، وذهبت أموال المسلمين إلى الخونة الذين باعوا
الجهاد وتحالفوا مع الشيطان في بغداد وعمان . وتضخمت تلك الظاهرة مرات عديدة في التجر
بة الأفغانية وكانت نتائجه أشد ضررا . ومع هذا فإن القليل الذي نجا من أموال فاعلي ا
لخير كان له نتائج باهرة ، ونستطيع القول أن ذلك النذر اليسير كان له دور كبير جدا في م
ساعدة القلة المجاهدة – النادرة – على
إسقاط النظام الشيوعي في كابل والمدعوم أمريكيا وروسيا وخليجيا ودوليا .
30 رعاية أسر المجاهدين والشهداء موضوع إنساني إلى جانب كونه موضوعا معنويا يتعلق با
لإستقرار النفسي للمجاهدين واطمئنانهم على استقرار أسرهم . فمن مسؤوليات قيادة الجهاد
العناية بذلك الأمر . وأوضحت التجربة الأفغانية أن العمل الإغاثي الذي يدار بواسطة قوى
معادية للجهاد أو غير مبالية به – كما حدث في أفغانستان – فإن نتائجه تكون ضارة بالجها
د ونشاطه القتالي .فكما رأينا أن الفوضى الإغاثية التي مارستها مؤسسات الإغاثة الصليبية
والعربية كانت بيئة لتنامي الفساد وخراب الذمم . كما كانت عاملا جذب للشعب الأفغاني
وتفريغ الأراضي المحررة من سكانها .
وأوضحت أفغانستان أن تسمية منظمات إغاثة إسلامية هي من ضمن المسميات المكذوبة . فالإغ
اثات الإسلامية كانت حكومية حتى النخاع وخاضعة لمطالب حكوماتها . وبعضها مارس أعمالا تجس
سية ضد المجاهدين وبطلب من حكومات بلاده . وقد تولى كثير من عناصر الإستخبارات العربية هذ
اصبا بارزة في تلك الهيئات الإسلامية . ونستثني من ذلك منظمة واحدة هي إسرا ، ال
تي حملت طابعا إسلاميا حركيا متعلقا بالتحرك الإسلامي في السودان . لذلك عانت من العزلة
وتحتلف الضغوطات ، ومع ذلك قدمت الكثير من الإسهامات البارزة .
والوضع الأمثل أن توضع الإعتبارات الجهادية في مقدمة أولويات العمل الإغاثي بحيث يتكامل ا
لعملان . وعلى سبيل المثال فإن الخدمات الإغاثية لا بد أن تعطي أولوية مطلقة لعائلات المجاه
دين وأسر الشهداء وبعد ذلك احتياجات باقي الفئات . وللوصول إلى
ذلك الهدف لا بد أن تكون عمليات الإغاثة في أيد إسلامية مخلصة تابعة لقيادة الجهاد أو تعمل
بتنسيق وثيق معها . ولكن الذي ظهر في أفغانستان هو سيطرة الصليبية الدولية على
جوهر العمل الإغاثي وتوجيهه بالشكل الذي يتفق مع مصالحها ويوقع أكبر الضرر بالمسلمين .
وآثار الصليبية ومآسيها التي أوقعتها في الشعب الأفغاني بواسطة نشاطاتها الإنسانية و
الإغاثية في أفغانستان تحتاج إلى مجلدات لشرحها . وقد نجد فرصة بعض ذلك في ثنايا هذا الكت
اب .

****

****

كانت الولايات المتحدة على علم مسبق بنوايا السوفييت تجاه أفغانستان ، والحشود العسكرية
السوفييتية كانت مكشوفة للأقمار الصناعية الأمريكية ، هذا إلى جانب تحذيرات الدبلوماسيي
ن الأمريكيين بشأن غزو سوفييتي وشيك لأفغانستان كما أوضحت ذلك وثائق السفارة الأمريكية
في طهران والتي نشرت فيما بعد في الصحف الأمريكية نفسها .
إذن فالسياسة الأمريكية كانت مع ترك الغزو السوفييتي لأفغانستان يتم على أرض الواقع ثم
استغلال نتائجه للإضرار بالسوفييت سياسيا ودعائيا على مستوى
العالم وبين دول العالم الثالث – التي كانت معظم شعوبها ترى في السوفييت نصيرا لها –
وعلى مستوى العالم الإسلامي والعربي بشكل خاص .

والثورة الإيرانية – في ذلك الوقت – كانت عنصرا حيويا في التفكير الأمريكي نتيجة الزلزا
ل السياسي الذي أحدثته تلك الثورة ، خاصة أنها طرحت –
كأحد شعاراتها الرئيسية – موضوع مقاومة النفوذ الأمريكي في بلاد المسلمين – وأطلق الخميني و
قتها على أمريكا لقب الشيطان الأكبر .. لم يتوقف الخطر الإيراني على
مجرد الشعارات بل تخطاها بكثير حين أطاحت الحركة الإسلامية الإيرانية بالنظام الشاهنشاهي
الذي كان يمثل ركيزة رئيسية للسياسة الأمريكية في منطقة الخليج بشكل خاص وفي المنطقة العر
بية بشكل عام .
كان المن المنطقي أن تسعى
أمريكا – على إثر ذلك الغزو – إلى إعادة تشكيل علاقاتها مع شعوب العالم الإسلامي – باعتبا
رها حليفا وليس عدوا – في مقابلة العدوان السوفييتي – الملحد – هذا على
الجانب النفسي . أما على
الجانب السياسي فلم يكم من العسير الدفاع عن امتيازات أمريكية في الدول الإسلامية المحيطة
بأفغانستان ، وفي الدول العربية أيضا لحماية تلك الدول من الخطر الداهم والحقيقي الذي م
ثله الإجتياح السوفييتي لدولة إسلامية مسالمة هي أفغانستان .
إن إثارة حملة إعلامية على المستوى
الدولي كفيلة بتحقيق أهداف كثيرة وخطيرة في وقت واحد منها تشويه صورة السوفييت دوليا
، كسب صداقة الشعوب الإسلامية خاصة ، التغطية على
عملية تمثل كبرى نحو مراكز سيطرة أقوى في الدول العربية بشكل خاص . المضي قدما بالمشروع ا
ليهودي في فلسطين نحو خطوات متقدمة والذي حدث أنه في فترة الثمانينات عندما كانت أفغانستا
ن هي الخبز اليومي للشعوب العربية والإسلامية تقدم المشروع اليهودي في إسرائيل خطوات لم
يكن يحلم بها بدون أن يلفت أنظار شعوب المنطقة المتعلقة بأفغانستان ، وفي خلال تلك الحقبة
صدرت قوانين أمريكية جعلت الترابط بين أمريكا وإسرائيل ترابطا عضويا بحكم القوانين الأمر
يكية نفسها ، ويمكن القول أنه خلال تلك الفترة أصبحت إسرائيل – فعليا – ولاية أمريكية ذ
ات وضع ممتاز .
على المستوى
العربي الرسمي ، ليس بمستغرب حالة التبعية التامة للسياسة الإمريكية . فعدو أمريكا هو
عدو هذه الأنظمة . والخطأ هو ما تراه الولايات المتحدة خطأ ، والصواب كذلك . والعمل الش
رعي هو ما تجيزه أمريكا ، والعمل الغير شرعي هو ما لا ترضاه أمريكا . وبالإختصار فإن أ
مريكا بالنسبة لتلك الأنظمة هي الإله والرب المعبود .
لهذا فمن المستحيل تماما أن يكون هناك أن التقاء بين الإسلام – كما أراده الله سبحانه وتعالى
– وبين تلك الأنظمة . ومن باب أولى
بين الإسلام وبين أمريكا وما تمثله أمريكا من قيم تغتصب حق الألوهية وتستعبد البشر من دون
الله .
ومن المدهش أن الجسم الرئيسي للحركة الإسلامية في العالم العربي مازال مستميتا من أجل ا
لسماح له بالعمل من خلال القنوات الرسمية الشرعية ، وتطمح في دور خلال المهزلة الدي
وقراطية .
والأدهى من ذلك أن الحركة الإسلامية التي ساهمت في التجربة الأفغانية لم تخرج – إلا نادرا –
عن مواصفات العمل الموافقة للمصالح الأمريكية والتي حددتها أمريكا قبل وصول العرب . واست
مر الحال كذلك حتى نهاية الحرب . لقد وصل العرب إلى الساحة الأفغانية عندما قررت أمريكا ا
ستقبالهم –
أو استغلالهم – على الأرض الأفغانية . وغادر العرب ساحة أفغانستان عندما قررت أمريكا الإ
ستغناء عن خدماتهم . وفيما بين الإستقبال والطرد لم يحاول العرب المتطوعون أن تكون لهم سيا
ستهم المستقلة .
من أخطر الدروس المستفادة من أفغانستان أنها تجربة أوضحت مدى السيطرة الأمريكية على
الحركة الإسلامية أو الصحوة الإسلامية بل والتحرك الجهادي الحديث ، والذي كان من المفروض أ
ن يكون الشريحة الأكثر تطورا ونضجا في التحرك الإسلامي الحالي .
هذه السيطرة الأمريكية إما مباشرة – كما كانت مع قطاع الزعماء الأفغان المعتدلين في أحز
اب بيشاور الجهادية – أو غير مباشرة عبر باكستان والسعودية كما كانت مع الزعماء المتشد
دين الأصوليين من القادة الأفغان الجهاديين أو غير مباشرة عبر قنوات رسمية – كالحكومة ا
لسعودية – وقنوات شعبية مثل حزة الإخوان المسلمين وهي قنوات تمد بها السيطرة أو التأثير ا
لعميق على التحرك الجهادي الشعبي سواء
المتبلور منه في تنظيمات – مثل تنظيمي الجهاد والجماعة الإسلامية في مصر – أو غير المتبلور
في تنظيمات وهو القطاع الأكبر عددا والأكثر تأثيرا على ساحة أفغانستان .
ومصدر الخطر هو أن يظل العمل الجهادي الإسلامي تحت سيطرة القوى المعادية ، وأن يصبح سلاحا
في أيدي أعداء الإسلام يسخرونه لخدمة مصالحهم الدولية . والخطوة التي ظهرت في أفغانستان تتج
لى
في كون الجهاد نشاط غير منضبط نظرا لفقدانه القيادة الواضحة أو المرجعية الموثوقة . تكف

ي عدة خطابات نارية مع بعض فتاوى
من علماء هم في العادة موظفون حكوميون ، حتى يتحرك مئات أو آلاف الشباب نحو ساحات الم
وت بحثا عن الشهادة والدرجات العلى في الجنة .
إن الساحات التي يتحرك إليها هؤلاء الشباب هي ساحات إسلامية تحتاج إلى
الجهاد والقتال في سبيل الله ، إما لدفع عدو صائل أو لإزاحة طاغوت كتجبر يمنع الناس من إقا
مة شرع الله . وكلا الهدفين لا يتم إلا تحت قيادة إسلامية صحيحة . أما أن يكون الجهاد تحت قياد
ات عميلة للطاغوت الدولي تعمل بتوجيه وإشراف وتمويل وتخطيط ذلك الطاغوت ، فلا يمكن في الن
هاية أن يحقق أهدافنا الإسلامية التي تحركنا من أجلها . وهذا ما حدث في أفغانستان حيث لم نح
صد سوى الشوك . واستولى الطاغوت الدولي على
كل الثمار الشهية . وحتى بعض الثمار القليلة التي جانت وسط الأشواك في أيدي المسلمين ، يقـ
اتلنا عليها ذلك الطاغوت الدولي لاغتصابها ، بل ويسعى إلى حرق المجاهدين وسط أكوام الشوك
التي حصدوها في أفغانستان .
إن الحركة الإسلامية عامة ـ والجهادية خاصة ـ مازالت حتى هذه اللحظة تفتقر إلى القيادة وا
لمرجعية الدينية والعمل المنظم . وهذا النقص يجعلها غير مؤهلة لإنجاز الأهداف المنوطة بها بل
قد يحرفها عن المسار الصحيح لتصبح هي نفسها ألعوبة في أيدي أعدائها .
****

توقيت الغزو السوفييتي لأفغانستان كان لا يخلو من المهارة . فإلى جانب أنه تم في الشتاء ـ ح
لفهم التقليدي في الحروب سواء في أفغانستان أو غيرها ـ
فإنه تم في توقيت سياسي ملائم للغاية ، فقد كان غريمهم الأمريكي في نقطة ميتة سياسيا فائر
ليس الأمريكي كارتر كان في لحظاته الأخيرة في البيت الأبيض . والرئيس الجديد ريجان الذي تسلم
منه الحكم بعد أيام وجد أمامه أمرا واقعا في أفغانستان . لهذا لم يوجه أحد إليه السؤال
»لماذا تركتم ذلك يحدث ... وماذا فعلتم والسوفييت يحتشدون لعبور حدود قانونية لدولة
ضعيفة ؟ « . ولكن بدأت الأحاديث حول إجراءات عقابية ضد السوفييت وإجراءات لتطويق آثا
ره على المصالح الأمريكية في جنوب وغرب آسيا وخاصة مناطق نفط الخليج .
لم تتحرك الدول الإسلامية إلا بعد أن مارست الإدارة الأمريكية الجديدة مهام عملها . وأصدرت
أوامرها وحددت السياسة العامة الإسلامية لمواجهة خطر الغزو السوفييتي على العالم الإس
لامي والخطوات اللازمة في إطار المنظور الأمريكي .
وبناء عليه عقد مؤتمر طارئ لوزراء خارجية الدول الإسلامية في إسلام آباد لبحث الموضوع ، و
تم إصدار البيانات المعهودة التي لا معنى لها واتخاذ خطوات أشد تفاهة ، كان أعظمها خطرا هو
إرسال طائرتين معونات إنسانية من خيام وأطعمة للمجاهدين الأفغاني كدعم عاجل من المملك
ة العربية السعودية . وعلى صعيد المقاومة الأفغانية فإن تأثيرات ذلك المؤتمر عليها هو
إصرار القائمين على المؤتمر على تشكيل كيان متحد للمقاومة تستطيع الدول الخارجية التعا
مل معه فيما يختص بالقضية الأفغانية . وكان عدد الأحزاب الأفغانية للمقاومة ستة أحزاب .
وبشكل عاجل تشكيل الإتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان برئاسة عبد الرسول سياف ، الذي خ
رج لتوه من سجون النظام في كابل ، وفي أقل من شهرين تحول من سجين سياسي سابق إلى رئاسة
الإتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان ويكون أول أعماله هو الإجتماع بوزراء خارجية الدول ا
لإسلامية لمناقشة موقف تلك الدول من قضية بلاده .
ورغم أن زعامة سياف وظهورها على
سطح الحياة السياسية للمقاومة الأفغانية كان يبدو وقتها كأثر ثانوي لذلك المؤتمر ، إلا
أنه بمرور الوقت ظهر أنه كان واحدا من أخطر الأحداث في المسار السياسي للقضية خاصة في ع
لاقتها بالتيارات الإسلامية العربية التي تعاطفت عن بعد أو قدمت للمشاركة ميدانيا في الجها
د . وأيضا من حيث تفاقم الصراعات الداخلية في حركة المقاومة الأفغانية .
وقبل أن نترك الموقف الأساسي ـ وهو الموقف الأمريكي ـ
نعود إلى الحديث الصحفي الأول والذي أدلى به ريجان عقب توليه الرئاسة في شهر يناير 1980م
بعد أيام من الغزو السوفييتي . لقد احتوى البيان على هجوم عنيف على الإتحاد السوفييتي و
عدوانيته ضد الشعوب . والذي لم يلاحظه كثيرون أو لاحظوه ولم يعيروه اهتماما كبيرا هو ذلك
الهجوم على الإسلام وإشارته إلى مخاطر تهدد المصالح الغربية في الشرق الأوسط من جراء دعاوى
دينية بدأت تظهر هناك تقول بأن أقصر الطرق لدخول الجنة هو قتل اليهود والنصارى . تلك
الفقرة كان المقصود بها الإسلام كدين في إشارة واضحة إلى ضرورة مقاومة هذا الدين في الشرق
الأوسط ـ وهو التعبير الملتوي المعبر عن بلاد العرب ـ وتصورنا وتصور معظم المسلمين وقتها
أن المقصود هو إيران الشيعية وتبسم كثيرون اغتباطا لهذا الهجوم الأمريكي ضد الشيعة . و
اكتشفنا منذ عام 1989م أننا ـ كأهل السنة والجماعة ـ كنا الهدف الرئيسي وجاء دورنا بعـ
د حرب تحرير الكويت حيث أعلنت أمريكا الحرب صراحة على الإسلام في المنطقة العربي والعالم

لقد اعتبر معظم الإسلاميين من أهل السنة بأن حرب أمريكا ضد إيران بواسطة العراق ودول الخ
ليج هو عمل يخدم الإسلام لأنه ضربة للشيعة الذين هم »أخطر من اليهود والنصارى« على حسب

الإعلام الديني الشائع في ذلك الوقت . وإذا أضفنا إلى
ذلك الموقف الأمريكي – الذي اعتبرناه ضمنيا موقفا مباركا – ذلك الموقف الأمريكي المساند لـ
قوى الإسلامية في أفغانستان ومساندة المسلمين هناك و المجاهدين للقيام بواجبهم المقدس في قـ
تال الشيوعية ، نعلمنا أننا فعلا وقفنا – ضمنيا –
في موقف التحالف مع أمريكا حتى وإن كنا نصرح دائما ونفتي بكفرها وطاغوتيتها .
اختصارا فإن ريجان في بيانه الصحفي الأول أعلن الحرب صراحة ضد الشيوعية والإسلام معا ، ولـ
كننا تعامينا وقتها عن تلك الحقيقة . وظننا قد أعلن الحرب على
الشيوعية والشيعة حتى أن عددا كبيرا منا ربط بين الإثنين بأنهما شيء واحد واختلق لذلك شتى
الجيل وصبغ ذلك كله بطلاء
شرعي . ولكن أمريكا نفسها صفعتنا بالحقيقة بعد أن انسحب الجيش الأحمر من أفغانستان . فقد
د صرح كبار مسؤوليها بأن الولايات المتحدة قد واجهت هذا القرن ثلاثة أعداء هم النازية
والشيوعية والإسلام وقد تمكنت من هزيمة اثنين منهم وبقي أمامها العدو الأخير وهو الإسلام . لـ
يس هناك بالطبع أكثر صراحة من ذلك الكلام . وظهرت العداوة الصليبية أسطع من الشمس في
كبد السماء ، واكتشفنا متأخرين جدا أن أمريكا تعادي الإسلام كدين ولا تعادي مذهبا أو طائ
فة أو حزبا إسلاميا ، بل الإسلام كله بأوسع معنيه وأشمل مظاهره وحربا عقائدية وليست حرب
ا على مصالح اقتصادية ومناطق نفوذ .
بعد حرب أفغانستان انهار الإتحاد السوفييتي وارتمى شيوعيوا روسيا والعالم تحد أقدام أمريكا
يقاتلون الإسلام تحت رايتها لأن الشيوعية نفسها هي إفراز طبيعي للصليبية التوراتية التي
يعتنقها الغرب . وقد عادت الشيوعية إلى وكرها الأصلي ومنبتها الأول عادت من حيث أتت .
عادت كي تواجه من ضمنها الأصلي عدوها الأساسي الإسلام .
أقول أنه في ظني أننا دخلنا التجربة الأفغانية كتيار إسلامي حركي ، يتوهم تحالفا ضمنيا مـ
ع الولايات المتحدة وبتعامي
أو يتعمى عن الواقع الذي كان يكذب تلك الأمنيات ويفضح ذلك التعامي .ولكن القادة الأفغا
ن ، وقادة العمل الإسلامي العظام في باكستان وبلاد العرب – من تيار الإخوان – قد دخلوا ا
لساحة مبصرين وعلموا حدودهم ودورهم والتزموا به – والتزموا الصمت إزاء جمهور المسلمين
فلم يفضحوا ذلك الإتفاق – لأن ذلك بالطبع يحرق دورهم بل يلغي وجودهم على الساحة الإسلامي
ة .
أما التيار الحركي الذي توافد وشارك فقد كان موقفه يتفاوت بين التعمي والتعامي – فيما
عدى قلة نادرة أهيل عليها تراب النسيان أو لطخت سمعتها بطين الإتهامات والإشاعات التي أطل
قتها عليهم أجهزة التآمر العاملة فوق الساحة الأفغانية .
وهكذا أطبق الصمت المتآمر على القضية الأفغانية ، مصحوبا بأعلى
ضوضاء شهدها العمل الإسلامي في عصره الزاهر . وكانت ضوضاء تضليلية لخداع المسلمين ، واستخ
دمتهم لمصالح أمريكا والغرب . ولكن تحت راية إسلامية جهادية هذه المرة وكنا قد عهدنا في ا
لعقود القريبة من حياتنا أن ذلك الدور – خداع الشعوب المسلمة وتسخيرها لخدمة الغرب – ع
ادنا ذلك من التيارات العلمانية بشتى اتجاهاتها قومية كانت أم اشتراكية أو وطنية .
نعود مرة أخرى إلى السؤال الحرج والمخيف هل تتحول الحركة الجهادية إلى أنعوبة في أيدي الـ
طاغوت الدولي كي يحقق بها أهدافه ؟ ... هل يحرم المسلمون من سلاحهم الوحيد للدفاع عن أنفـ
سهم وعن دينهم ومن وسيلتهم الوحيدة لإقامة شرع دينهم ألا وهو الجهاد ؟ .
لقد كانت أفغانستان تحذيرا خطيرا للمسلمين حتى لا يسرق منهم دينهم . ويرتد سلاحهم إلى صدور
هم .
لقد سرقت حركات إسلامية وأحزاب وجماعات ، ضلت وسقطت تحت سيطرة الصليبية ، وحتى أن بعض
هذه الجماعات قد أنشأتها الصليبية نفسها لمحاربة الإسلام من داخل صفوفه . ويجب أن نسعى جميع
ا حتى لا يلاقي الجهاد نفس المصير .

****

أوشك المؤتمر انطارئ لوزراء خارجية الدول الإسلامية على الإنعقاد ولم تكن المنظمات الجهادية
في حالة مشرفة تسمح لها بحضور المؤتمر . فالخلافات مستعرة والإنقسامات وصلت بعدد الأحزاب إلى
سبعة أحزاب كاملة . فطلبت باكستان منهم – عندما وجدت أن الزعماء الستة يريدون حضور
المؤتمر كل زعيم يمثل حزبه – طلبت اختيار شخص واحد يمثل الأحزاب جميعا أمام المؤتمر . كانت
المشكلة التي يخشاها الزعماء أنه في حال اختيار ممثل واحد عن الأحزاب يخاطب المؤتمر فإنه سو
ف يكون الشخص المعتمد لدى العالم الخارجي . وبالتالي فإن أي معونات خارجية سوف يتسلمها
نيابة عن الآخرين . والإحتمال الأغلب أنه سوف يستأثر بها لنفسه وقد يتحول إلى صاحب حزب فـ
من السهل أن يشتري من يريد وما يريد بواسطة المال . كان ذلك قانونهم – وأهل مكة أدرى
بشعابها كما كان يحلو لبعضهم أن يقول – بدون أن يفصح عن هذه الشعاب المجهولة .
لقد شهدت الأحزاب الأفغانية الجهادية عدة مهازل اتحادية . وكل محاولة كانت تؤدي إلى عكس ا
لمفروض منها . كانت تزيد الخلافات ويزيد عدد الأحزاب حزبا جديدا . وكان الحل التقليدي عند
ما يرغب حزبان في الإتحاد هو اختيار شخصية ضعيفة كي ترأس الإتحاد المزعوم . وما أن تبدأ
تلك الشخصية في ممارسة شيء من صلاحياتها القيادية حتى تنشق عنها الأحزاب المكونة للإتحاد وتبـ

في
تلك الشخصية وبعض الأصدقاء والمحبين في تشكيلهم الإتحادي متهمين الآخرين بالمروق والخروج عن ال
شرعية .
وبنفس الأسلوب وصل عبد الرسول سياف إلى
سدة الزعامة فقد كان ضعيفا خارجا لتوه من سجون كابل . ويسكن في غرفة متواضعة ، ويتلق
ى
مساعدات مالية من أصدقائه داخل المنظمات . كان أشد المعترضين على ترشيح سياف من حكمتيار
الذي واجهه بحملة عنيفة من التشكيك والإتهامات . فقد كان يرى
سياف قد خرج سعاف من سجون الشيوعية في كابل – في قصة غير مقنعة – حيث كان الشيوعيون يف
تنون لمجرد الإشتباه فما بالهم بشخص مثل سياف كان في صفوف متقدمة من زعامات العمل الإسلامي
في كابل لماذا لم يقتلوه وهو تحت أيديهم في السجون ؟ . وأضافت مصادر حزب حكمتيار بأن
سياف قد استفاد من حماية الزعيم الشيوعي حفيظ الله أمين المهندس الحقيقي للإنقلاب الشيوعي
والذي تولى رئاسة الدولة بعد أن تخلص من سلفه نور محمد طراقي . فقد كان سياف وأمين أبن
ا، خالة . لذلك فإن سياف لم يسجن في السجن الرهيب بولي شرخي بل أنه نقل سريعا إلى نوع
من الإحتجاز المرفه تحت حماية ابن خالته . ولمزت مصادر الحزب في الظروف التي اعتقل فيها سي
اف في عهد محمد داوود . فقد اعتقل وهو في مطار كابل وكان في طريقه إلى الولايات المتحدة الأ
مريكية في بعثة تعليمية موضوعها التأهيل القانوني . بالنسبة لهم فإن الإفراج عن سياف
في أعقاب الإحتلال الروسي ، واغتيال ابن خالته أمين ما كان ليتم خطأ كما يدعي سياف ، و
لا بد من وراءه تدبير معين بين سياف والشيوعيين والروس .
كانت الإتهامات خطيرة ، ولكنها كانت شائعة في وسط الأفغان سواء بالحق أو بالباطل . لذا فق
د فقدت تلك الإتهامات أهميتها .
لقد تبنى يونس خالص وجلال الدين حقاني قضية سياف ومارسا ضغوطا على باقي الأطراف لقبول
ه حتى نجحا في مسعاهم . وقد ندما على ذلك في المستقبل القريب .
وظهر إلى الوجود اتحاد جديد هو الإتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستا ن ولم يكن بالطبع هو الإتحا
د الأخير .
كان انزعيل سير عبد المطلب يغطي وقائع المؤتمر مندوبا عن صحيفة الإتحاد . وكان متحمسا للق
ضية الأفغانية . وتغطيته الميدانية لزيارته لولاية باكتيا أكسبته شهرة وأكسبت الصحيفة
شعبية كبيرة . وقد شارك سير عبد المطلب في مجهودات الوحدة بين المنظمات . وكان يرى خطورة ا
لخلافات الشخصية بين القادة وكان يتشكك في قادة المكاتب في بيشاور . ويكن احتراما كبيرا لبو
نس خالص

****

هامش
يمكن مراجعة تفاصيل ذلك الموضوع في كتاب ملحمة الأنصار العرب في أفغانستان تلأخ باسل محم
د . والكتاب من مطبوعات لجنة البر – أحد الهيئات الإغاثية التي عملت في أفغانستان .

****

كقائد حزب وقائد حرب ميداني . صديقنا أحمد المنياوي عضر أيضا تلك المشاورات وكان قد عا
د لتوه من جلال آباد حيث شارك في عملية على
أطراف المدينة برفقة جماعة تابعة لمونوي خالص .
لم يكن متوقعا أن يكون لصديقنا المنياوي دورا سياسيا بهذه الخطورة . فقد انتهى مؤتمر وزر
اء الخارجية بدون أي التزامات واضحة أو مساعدات للشعب الأفغاني . كان فقط مناسبة لتسج
يل موقف لا يترتب عليه أي نتائج . كانت صدمة للقادة الأفغان وصدمة لأنصار الجهاد والقضية
الأفغانية من أمثال صديقنا المنياوي والصحفي سير عبد المطلب . فطالب الأثنان من سياف أ
ن يترأس وفدا أفغانيا كي يزور دول الخليج تطلب المساعدة من الناس مباشرة . وكانت المشكل
ة أن سياف لم يتلق دعوة رسمية بزيارة أي من دول الخليج . فكيف له أن يصل إلى هناك . والم
شكلة الأخرى أن زيارته بصفته الرسمية الحالية كرئيس لإتحاد المجاهدين الأفغان أصبح لها اعتبا
رات سياسية تتعلق بالروابط بين الدولة الداعية وبين الإتحاد السوفييتي .
ولما كانت العقلية الصعيدية
لا ترتبط كثيرا بالمنطق ، وذلك من أوجه الشبه بين الصعايدة والأفغان ، حتى أن أحد أصدقائنا
ا الصعايدة المجاهدين كان يقدم نفسه على أنه فلان الفلاني من صعيدستان . لذلك فإن صديق
نا المنياوي اقترح بأنه سوف يسعى إلى
الحصول على تأشيرة لوفد المجاهدين برئاسة سياف على اعتبار أنه وفد باكستاني جاء للحصول
على تبرعات لمدرسة دينية . وعلى الفور وافق الصعايدة الأفغان على اقتراح المنياوي –
أو كبير الصعايدة كما كنت أطلق عليه أحيانا –
وقام سياف بتحديد شخصيات الوفد وكانوا كالتالي عبد الرسول سياف –
صبغة الله مجددي – محمد نبي – جلال الدين حقاني .
كان صديقنا الصعيدي يعمل وقتها سكرتيرا للدكتور عز الدين إبراهيم المستشار الثقافي لرئ
يس الدولة آنذاك وحتى تاريخه . وكان الدكتور في شبابه من صقور الإخوان ، وأبدى تعاطفا م

ع مشروع رحلتنا الأولى إلى أفغانستان ، وتكلم معنا قبل رحيلنا عن قرضية الجهاد ولكنه تش
كك في الوضع الأفغاني وقال أنه ليس المكان المناسب . بالطبع لم يعجبنا رأيه رغم أنه قال
بأنه لا يأمرنا ولا ينهانا . تذكرت وقتها ما قاله لي شيوخ الأوقاف قبل ذلك بعام قبل سفر
ي إلى لبنان .
كان من صلاحيات مكتب الدكتور عز الدين ، التقدم إلى مكتب الجوازات بطلب تأشيرات زيارة ل
لوفود الإسلامية القادمة إلى الإمارات . تكفل أحمد بتحريري أوراق الوفد عبد القنوات الرسم
ية كواحد من الوفود التقليدية التي تأتي لجمع التبرعات من مساجد الدولة وتطلب العون من
هيئاتها الإسلامية . ولم ينتبه أحد إلى أسماء الوفد التي لا يدري عنهم موظفوا الدولة أي شي
ء .
وصل وفد المجاهدين إلى مطار أبو ظبي وكنا في استقبالهم مع المنياوي . وحدث ارتباك قليل في ا
لمطار حيث لم يحضر مندوب رسمي من موظفي الدولة لاستقبال الوفد كما يقتضي بذلك البروتوكول
. حتى أن أحد موظفي المطار تشكك في صحة التأشيرة . ولكن تدخلات المنياوي ومعرفته العميق
ة بالإجراءات أنقذت الموقف .
وخرج الوفد إلى ساحة الخليج الواسعة مبهورا بأضواء الحضارة وبهانج الحياة الخليجية . واصط
حبناهم إلى فندق فخم في العاصمة حيث حجزت لهم عدة غرف كضيوف على الدولة .
وسارعنا بإبلاغ الخبر إلى صديقنا سمير عبد المطلب كي تفاجأ دوائر الدولة وعلى رأسها وزارة
الخارجية بأن وفدا عال
المستوى للمجاهدين الأفغان برئاسة البروفوسور عبد الرسول سياف يقوم بزيارة للدولة بد
ا، على دعوة رسمية وجهت إليهم . وكانت الطامة الكبرى . وبدأت التحريات حول كيفية
منح التأشيرة للوفد الأفغاني ، وتعالت الصيحات بى الخارجية والأوقاف ومكتب المستشار الثق
افي .
الإحتياطات التي اتخذها المنياوي أوقفت الكارثة . فقد كان من ضمن التوقيعات على طلب التـ
أشيرة توقيعا من مكتب الشيخ سرور أقوى رجل في الحكومة والذي يترأس أكثر من نصف دوائرها
ا الرسمية . وعند صخرة سرور توقفت العاصفة . وانتعت الخاربة المسمار الصدئ واضطرت إلى
التعامل مع الأمر الواقع . أما سرور نفسه فلم يكن في الدولة وقتها . ولم يجرؤ أحد على
توجيه السؤال إليه بعد عودته . وأظنه لا يعلم ما حدث إلى الآن .
كانت تلك الزيارة ـ المعجزة ـ الخطوة الأولى لسياف كي يرسي دعائم قوية لعلاقاته العربية
بشقيها الرسمي والشعبي . بل كانت فرصة لأول لقاء مباشر بين جهاد أفغانستان والشعوب الإسلا
مية ـ خاصة شعوب الخليج التي لعبت الدور الأهم في جانب التمويل الشعبي للعمل الجهادي .
أجرى سياف خاصة ـ والوفد المرافق عامة ـ لقاءات واسعة جدا داخل مدن الإمارات . وقابلو
ا ما لا يحصى من الأفراد العاديين والمتحمسين والمسلمين المتدينين . وعقدت لقاءات كثيرة في المس
اجد ، وحتى داخل تجمعات الأفغان خاصة المنطقة الصناعية في مدينة العين التي تعتبر معقلا للبا
تات من أفغانستان وباكستان .
كنت أتناوب مع الصديقان أحمد وإسمعيل على مهام خدمة الوفد من قيادة السيارات إلى الإتصا
لات والمكاتبات إلى الإستشارات المختلفة وتحديد جداول المواعيد والزيارات إلى ترتيب المقابلات
الصحفية . كانت الزيارة ناجحة للغاية وتركت تأثيرا عميقا وإيجابيا لصالح القضية الأفغا
نية ، وانهالت التبرعات على الوفد ولم ندرك وقتها أنها بداي النهاية بالنسبة للإتحاد الجد
يد . وكان الهدف الأكبر وقتها هو ترتيب لقاء للوفد مع رئيس الدولة .
لم يكن الموضوع سهلا فالخارجية مستاءة من تلك الورطة . ومكتب الرئيس لا يفهم كيف حضر هؤ
لاء ومن أحضرهم ولماذا . وظل كبار المسؤولين الرسميين متوجسين خوفا من أن يكون رد فعل رئيس
الدولة تجاه الزيارة غير ودي ، وقتها لم يكن بد من أن تتطاير رؤوس كثيرة .
كان للإخوان المسلمين شيء واضح من النفوذ في بيروقراطية الدولة آنذاك ، خاصة في وزارة التر
بية والتعليم حيث كان وزيرها سعيد سلمان محسوبا على تيار الإخوان ، وبالتالي كانت الـ
وزارة أحد معاقلهم الرئيسية . كذلك وزارة الأوقاف حيث وكيلها سيف المرسي من نشطاء ا
لإخوان ، وكانت وزارته بالتالي تعج بعناصر الإخوان من مختلف الجنسيات . وأذكر مدير مكتبه
في دبي الأخ مسعود وهو مصري الجنسية ، وكان محركا نشطا لتسريع الصدام بين مجموعتنا الص
غيرة وقيادة سياف ، حتى نجح بعد حوالي خمس سنوات من تاريخ زيارة سياف في استصدار فرمان با
هدار دمي من سياف أثناء زيارته له إلى دبي .
تولى مسعود الإشراف على
برنامج سياف المتعلق باجتماعاته مع قيادات وعناصر الإخوان في الإمارات . ودفع مجموعتنا ا
لصغيرة إلى الخلف فيما يختص بتلك الفترة ، ولكن بديبلوماسية ناعمة ، ولم نعترض على ذلك .
واعتبرناه حقا مشروعا لهم .
لقد لاحظنا محاولات الإخوان ركوب الموجة والظهور الجماهيري في قضية شهيرة . لم يدر في خلدنا منذ
افسة الإخوان في ذلك المجال ، ولم يكن ذلك ممكنا على أية حال . وما كان يشغلنا وقتها وظل
كذلك لعدة سنوات وبالتحديد حتى عام 1983م حيث فقدنا الأمل ، كان هاجسنا هو تحويل أفغانـ
ستان إلى قبلة لطوابير المجاهدين العرب ، وأن يتولى الإخوان المسلمون بحكم خبرتهم التاريخية وو
فرة كوادرهم فيما نتصور ، أن يتولوا تنظيم هذا العمل والإشراف عليه . وهذه النقطة با

لتحديد هي التي دمرت علاقاتنا معهم وحولتها إلى حالة من العداء وحرب شنوها علينا بدون أن ينذرونا لذلك .

أطلقت دوائر الإخوان خبرا مفاده أن الأفغان لا يحتاجون إلى متطوعين وأن لديهم ما يكفي من ا لرجال ، وأنهم فقط في حاجة إلى الأموال لشراء الأسلحة وفي حاجة لمعونات عينية للمهاجرين مثل الملابس والأدوية . وأرفقوا ذلك بفتوى مجهولة المصدر تقول بأن الجهاد في أفغانستان إنما هو فرض كفاية وليس بفرض عين .

كان الخبر والفتوى المرافقة له لطمة قاضية لمشروعنا الطموح وكانت خيبة أملنا مأساوية عند ما علمنا أن ذلك هو الرأي الرسمي للإخوان . فقد كان في تقديرنا أن مشروعنا الجهادي لا يستطيع تنفيذه سوى الإخوان أصحاب الخبرات والتنظيم الدولي الضخم .

فاجأنا بعض كبار الإخوان في الإمارات أن ما يقولونه حول احتياجات المجاهدين وفرضية الجهاد إنما مصدره أمير الجهاد ورئيس الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان البروفوسور سياف .

ولكن سياف الذي يعرف طموحاتنا الجهادية في أفغانستان من خلال أحاديثنا معه نفى ذلك ن فيا قاطعا . فاتفقنا معه لإزالة اللبس حول هذه النقطة الحيوية —

هو أن يصرح في مؤتمر صحفي بحاجة الشعب الأفغاني إلى متطوعين من البلاد الإسلامية حيث لم يكن من المعقول — بالنسبة لنا على

الأقل — أن يواجه شعب صغير العدد مثل الشعب الأفغاني جيشا ضخما تكتلة دولية يقترب تعداد ها من نصف المليار وهو بشهادة العالم يعتبر أضخم جيش بري على سطح الأرض .فلا مجال — فيما نرى — للحديث عن عدم الحاجة إلى متطوعين أو القول بفرض الكفاية لأنه حتى لو تدخلت الجيوش العربية كلها في أفغانستان فلن يكون ذلك كافيا وتكفي خبرة الحروب مع إسرائيل فكيف يكون عدة مئات أو آلاف من المتطوعين المدنيين غير ضروري ؟ . وكيف يمكن تدريب وتنظيم هؤلاء المتطوعين بدون جهاز منظم ذو خبرة مثل الإخوان ؟ .

رتبنا مؤتمرا صحفيا لسياف والوفد المرافق له عقد في الفندق الذي يقيم به الوفد هو ليدا ي إن في أبو ظبي .

اتصلنا بالصحف المحلية ، وقبل بداية المؤتمر اتفقنا مع مندوب جريدة الإتحاد على توجيه الس ؤال التالي هل أنتم في حاجة إلى متطوعين مسلمين لمساندتكم في الجهاد؟ . عقد المؤتمر وانهالت الأسئلة وتأخر سؤالنا المنشود حتى قرب نهاية الجلسة . وما أن ألقى مندوب جريدة الإتحاد الس ؤال حتى تكهربت أعصابنا وتعلقت أنظارنا بالأستاذ سياف الذي تلقى السؤال وتهيأ للأجابة .

ولكن صيغة الله مجددي اندفع كالقنبلة وتولى الأجابة بعصبية واضحة قائلا »نحن لسنا في حاج ة إلى رجال ولكننا في حاجة إلى

أموال وأسلحة للقتال ، وأن على الدول العربية ودول الغرب أن تمد الشعب الأفغاني بمختلف نواحي الدعم السياسي والمادي كي يواجه الغزو السوفييتي « .

اعتبر الصحفيون إجابة مجددي هي الإجابة الرئيسة رغم أن سياف عقب عليها برد دبلوماسي لا يفيد شيئا حيث قال »إن الشعب الأفغاني يتصدى ببطولة للغزو السوفييتي ولكن إذا كنا نح ن لسنا في حاجة للمتطوعين المسلمين ، أليس المسلمون في حاجة إلى الجهاد؟ « .

امة . كان تخلصا دبلوماسيا لبقا من أمير الجهاد فلا هو طلب متطوعين ولا هو رفض . وعلى ك ل طرف أن يفهم الجملة حسب هواه .

اكتشفنا في وقت متأخر نسبيا أنه من المحظور على قادة الجهاد من زعماء المنظمات في بيشاو ر توجيه دعوة عامة للتطوع في صفوف المجاهدين الأفغان — أي إعلان جهاد إسلامي عام — والإقتص ار على

جهاد أفغاني وهو لفظ لا أظنه خرج إلا من خزانة المصطلحات الصليبية اليهودية لأنه شعار يدمر مفهوم الجهاد ويحوله إلى عمل وطني بالمفهوم الغربي وليس فريضة وتكليفا على أمة الإس لام التي لا تعترف أصلا بالحدود السياسية التي فرضتها الحضارة الصليبية على بلاد المسلمين .

لقد ساد مصطلح الجهاد الأفغاني طوال مدة الحرب الأفغانية في كل صفوف المسلمين ، ولم ينتب ه إلا القليلون إلى المصيبة التي يحملها في ثناياه ذلك الإصطلاح المشئوم والذي لم يسبق استخد امه في أي عملية جهادية في تاريخ المسلمين أنه جهاد مرتبط بحدود سياسية فرضها الصليبيون على بلاد المسلمين ولم يرتبط الجهاد قبلا بحدود سياسية أو بأقوام بعينها .

نفس التحذير من الدعوة إلى جهاد عام وصل إلى الأحزاب الإسلامية الكبرى والمرشحة للقيام بدو ر في هذه القضية التي بدأت بوادر التدويل تغشاها . وأثناء إقامتي في باكستان منذ مارس 1985 علمت أن الرئيس الباكستاني ضياء الحق كان قد طلب من الجماعة الإسلامية التي كانت في تحالف وثيق مع نظام الجنرال ، طلب منها ألا تحول قضية أفغانستان إلى قضية شعبية باكستان ية وأن تكتفي بالمعاونة الإنسانية والدعائية في حدود المعقول .

لم يلبث الإخوان في مصر أن اتبعوا نفس المنهج ، وذبلت سريعا محاولاتهم تسجيل أسماء الشباب ا لراغب في التطوع للجهاد في أفغانستان واكتفوا بنفس الحدود التي التزمت بها الجماعة الإسلامي ة الباكستانية مع الجنرال ضياء الحق . وقد صرح الأستاذ حامد أبو النصر المرشد العام لجما عة الإخوان المسلمين في مصر أثناء زيارته إلى بيشاور في بداية التسعينات ، صرح بأنه لم يرس ل شباب الإخوان للجهاد في أفغانستان لأن الحكومة المصرية لم تسمح بذلك . وأن من شروط الجها

د موافقة ولي الأمر . أحدثت تصريحات المرشد العام ضجة في أوساط الشباب العرب في أفغانستان ، وتلاشى عندهم ما تبقى من شبهات المصداقية لدى الإخوان . وكانت تصريحات محرجة جدا للتنظ مع الإخواني العامل على هوامش القضية الأفغانية في باكستان .
فهمنا متأخرا كالعادة تلك الحدود الشيطانية المضروبة حول قضية أفغانستان ، وأنها إسلا صية في الحدود التي تخدم مصالح الغرب ، وأنه من المخطور تحريك الأمة إلى فريضة الجهاد . وأن الجهاد يجب أن يظل أفغانيا . وهكذا اخترع الصليبيون لنا مصطلح الجهاد الأفغاني وتداولنا ه نحن بكل غباء طوال ثلاثة عشر عاما من عمر القضية .
كان لمجموعتنا الصغيرة جلسات مطولة مع سياف ، خاصة بعد هذا الإنجاز غير المتوقع ، واختراق ا لحصار والعزلة ، وخروج سياف مقابلة جمهور المسلمين مباشرة ، والظرف الدولي والعبي المناسب لحركته ودعوته . والنجاح الكبير الذي صادفه في الإمارات بعد مغامرة الدخول التي رتبها بـ نجاح صديقنا المنياوي كبير الصعايدة .
ومن النقاط الرئيسية التي ركزنا عليها في جلساتنا الخاصة معه
1 ـ إن الظروف المواتية والتي أحاطت بقضية أفغانستان قد تحولها إلى أهم قضية إسلامية ـ خاصة في ظل ما يحيط بالقضية الفلسطينية من تآمر عربي ودولي ـ وبالتالي فإن حركة الجهاد في أفغانستان سوف تتحول إلى أهم حركة إسلامية ، متخطية بذلك الحركات والجماعات التاريخية و التقليدية في العالم الإسلامي ، ويترتب على
ذلك أن القيادات الأفغانية ـ خاصة سياف رئيس تلك الحركة ـ الذي قد يتحول إلى أهم شخصية في قيادات العمل الإسلامي الشعبي .
2 ـ بناء على ما سبق ، فإنه ـ أي سياف ـ سوف يتعرض لعمليات احتواء من جانب الحكومات العربية ومن جانب المنظمات الإسلامية الكبرى التي ستجد نفسها إلى
جانبه مجرد أقزام ، فسوف يحاولون الوقوف على أكتافه والمتاجرة بقضيته .
3 ـ أن أموال الخليج والسعودية هي مثل العمل المسموم ها دخلت إلى قضية إلا ودمرتها . وهو ما حدث مع المنظمات الفلسطينية . فالأموال الخليجية تصطحب معها الإنقسامات والهيمنة السـ ياسية الخارجية ، ليس لصالح حكومات الخليج بقدر ما هي هيمنة صليبية .
وطالبنا سياف الإحتراز من تلك الأموال والأنظمة القائمة فأكد لنا انتباهه وفهمه لتلك الخ طورة .
4 ـ إن زياراته للدول الإسلامية ينبغي أن يكون هدفها توطيد اتصال مباشر وعميق بين حركة الجهاد في أفغانستان والشعوب الإسلامية والإعتماد على ما تبذله تلك الشعوب من مال ودماء . وحذرناه من تكرار خطأ منظمة التحرير التي ركزت على تقوية صلاتها بالحكومات وأهملت الشـ عوب العربية وما يمكن أن تقدمه .
5 ـ أن الراية الإسلامية وشعار الجهاد هو أكبر ما يميز قضية أفغانستان . وينبغي عدم التف ريط بالتوجه الإسلامي للقضية أو الإلتفاف حوله أو تفريغه من محتواه . وبالتالي فإن التيا ر المعتدل المتواجد في القضية هو تيار ضار وخطر على القيمة الإسلامية للقضية ، وربما اس تطاع هذا التيار تحويل القضية الأفغانية من المسار الإسلامي إلى المسار الوطني كما فعلت منظ مة التحرير بالتعاون مع الحكومات العربية في قضية فلسطين .
6 ـ أن الشعوب الإسلامية والعربية قد سحبت ثقتها من الزعامات المصطنعة التي تبنى بطولات ز ائفة من خلف ميكروفونات الإذاعات وأوراق الصحف والتي لا تشاهد إلا في فنادق الدرجة الأولى في هذه العاصمة أو تلك . تتنقل من مؤتمر إلى مؤتمر ومن احتفال إلى آخر .
وأنه إذا أراد أن ينهض بقضية الإسلام في العالم ـ وليس فقط في أفغانستان ـ فعليه أن يمارس قيادة ميدانية مركزة على أرض الجهاد في أفغانستان وليس من وراء الحدود . وأن القيادة الإسلامية ـ
المنتظرة ـ هي تلك القيادة التي تتقدم صفوف القتال ، وليس تلك التي تطفو على السطح كما يطفو الزبد على سطح السيل .
7ـ ليس هناك عاصمة أو مدينة أو دولة في عالم المسلمين قادرة على احتمال حركة إسلامية حاد ة ، تأميل عن حركة جهادية تصادم قوة عظمى . بل أن العالم الإسلامي يعجز عن مساندة حتى مجرد حركة وطنية تخلصة لوطنها .
وفي الماضي القريب شاهدنا ما حدث في عمان ـ بحاز أيلول الأسود ـ وبيروت . وكيف أنهما تحولت ا إلى مصائد لشباب المقاومة الفلسطينية رغم كل الإنحراف والشوائب في تلك المقاومة .
لهذا فمن المحتمل جدا أن تتحول بيشاور إلى نفس المصير بل أن بيشاور لا بد أن تتحول إلى مركز تجسس على المقاومة واختراق صفوفها واغتيال قياداتها وكلها دروس مستفادة مما حدث في بيروت وعمان .
8 ـ أن إسرائيل لم تسكت وهي ترى حركة جهادية ضخمة ومتقدمة ، تستقطب اهتمام المسلمين ، ويتوافد عليها الشباب المسلم المجاهد . فهذا هو عين ما تخشاه إسرائيل وتعلم يقينا أنها مص رعها الحتمي .
لذا فإن إسرائيل سوف تتواجد بسرعة على الساحة البيشاورية ـ كما فعلت في بيروت وعمان وغ يرهما من أماكن تمركز المقاومة الفلسطينية ـ بل أن دوافع إسرائيل أقوى وأخطر حيث ترى ا لإسلام المجاهد ينبعث مرة أخرى وعلى نطاق واسع .

وإن الحل هو انتقال الثقل القيادي والإداري لحركة الجهاد في أفغانستان إلى داخل الأرض الأفغانية المحررة . والإحتفاظ في بيشاور وغيرها بمجرد مكاتب إدارية فرعية لأداء الوظائف المطلوبة خلف الحدود .

لم يلبث رئيس الدولة أن أعطى الضوء الأخضر وحدد وعدا لمقابلة سياف . كان اللقاء وديا للغاية وكان زايد غرقا في الدهشة والذهول ولا يكاد يصدق بأن الأفغان يقاتلون الروس فعلا . وعلى هذا المحور ظل يتسائل طويلا في لقائه مع سياف .

وكما لمسنا لاحقا فإن معظم كبار المسؤولين في الخليج كانوا يشكون في وجود خدعة ما ، ولم يسمح لهم ذكاءهم أن يعتقدوا للثانية واحدة بأن الأفغاني مكن أن يقاوموا السوفييت . وكما أخبرنا سيف بعد انتهاء اللقاء فإن زايد طلب منه أن يتوجه لزيارة السعودية ثم يعود إليه كي يخبره عن موقفهم هناك إزاء مسألة مساعدة الأفغان ، ثم وعده خيرا . وكان من المفهوم ضمنا أن زايد كان يرغب في ضبط خطواته مع الخطى السعودية تجاه الأفغان . وحتى لا يتورط أكثر من اللازم أو أو يظهر بمظهر المقصر إزاء قضية تهم المملكة ـ قلعة أمريكا في الجزيرة ـ .

تمكن المنياوي عبر اتصالاته الرسمية من مكتب المستشار الثقافي لرئيس الدولة ـ تلك اللافتة الرسمية ـ تمكن من الإتصال بالهيئات الموازية في قطر وحصل على موافقتهم على استضافة الوفد الأفغاني ، مركزين بالطبع على سابقة استضافة دولة خليجية شقيقة للوفد الأفغاني . كلا لأصدقاء والمتحمسين أجروا اتصالاتهم بالمعارف والأصدقاء

لعمل اللازم لإنجاح مهمة وفد المجاهدين الأفغان . ويمكن أن نتصور أن الإخوان كانوا الأكثر أهمية في ذلك المجال نظرا لثقل التجمع الإخواني في قطر على المستويات الشعبية والرسمية . كانت جولة قطر ناجحة . ونظرا لصغر حجمها فإن جولة الوفد الأفغاني كانت أكثر أهمية إعلاميا وماليا . وخلال تواجد سياف في قطر استطاع المتحمسون هناك من الحصول على تأشيرة زيارة له وللوفد المرافق لزيارة المملكة العربية السعودية ، وهي الورقة الرئيسية والحركة الأكثر أهمية في الرحلة كلها .

وقد كانت تلك الزيارة أخطر انعطاف في تاريخ القضية الأفغانية عامة ومستقبل الجهاد في أفغانستان بشكل خاص .

عندما عاد سياف من المملكة السعودية ، لم يكن هو نفس الشخص الذي ذهب . شعرنا عندما عاد بشيء من التغير ولكن كذبنا أنفسنا ، وأعطيناه ـ من عندنا ـ مبررات كافية .

كانت المفاجأة الأولى أن سياف عاد بجواز سفر سعودي . كنا نعلم مدى صعوبة الحصول على مثل هذه الوثيقة ، بل أن مجرد الحصول على تأشيرة زيارة للمملكة تعتبر عملا شاقا ، وحتى طلب العمرة أو الحج قد يكون معرضا للرفض بدون إبداء الأسباب وهو ما شاهدنا عدة حالات منه . ولم نكن نرى أي تاريخ سابق يبرر هذا الرضى الغامر من المملكة لسياف .. المهم ابتلعها المفاجأة بشيء من الصعوبة وساق لنا سياف أسماء كثيرة من العائلة المالكة كانت في غاية الحماس والروح الإسلامية الفياضة ، ومنهم نواب الملك كل هؤلاء ساعدوا في حدوث المعجزة .

كان هناك تغير لفظي قد حدث ، وهو أن الرجل قد غادرنا وهو يحمل اسم عبد الرسول سياف ، وعاد وهو يحمل أسما جديدا هو عبد رب الرسول سياف . وكما أخبرنا هو فإن علماء المملكة الحريصون على العقيدة الصحيحة اقترحوا ونفذوا هذا التعديل العقائدي في الإسم .

ومن يومها لم يعد سياف يقدم نفسه للعرب بغير هذا الإسم حتى أنه ادعى أنه اسمه الأصلي الذي سماه به أبوه . وكان ذلك مصدر مشاحنة صغيرة بيني وبين الشيخ عبد الله عزام الذي جاء يوما يعاتبني في عام 1986م عندما ذكرت في إحدى المقالات سياف باسمه الأصلي عبد الرسول . فذكرت له أن هذا هو اسمه الأصلي ، ولكنه أنكر بشدة قائلا أن عبد رب الرسول هو اسم الرجل منذ ولدته أمه . فذكرت له أني أعرف سياف منذ عام 1980م ورأيت الورقة التي جاء بها كوثيقة سفر صادرة من باكستان ـ ولم تكن باكستان قد صرفت له بعد جوازا باكستانيا ليكون مثل باقي زملائه من قادة الأحزاب الذين يحملون جميعا جوازات باكستانية وبعضهم يحمل عدة جوازات صادرة من عدة دول ـ . سكت الشيخ عبد الله على مضض وقد احمر وجهه من الإنفعال الذي كتوم . فقد كان يرحمه الله يثق تماما ـ وقتها ـ في سياف كما لا يثق في شيء آخر والمعلومة التي يجادلني فيها قد استقاها من سياف شخصيا . أدركت يومها أن سلسلة أكاذيب سياف تبدأ من اسمه .

ومن يومها إلى الآن وأنا أعجب من السرعة التي اكتشفت بها السلطات السعودية تلك الطبيعة المنحرفة لذلك الزعيم الإسلامي الأصولي لدرجة أنهم منحوه من الزيارة الأولى جوازسفر سعودي ، بل تبنوه تماما على مستوى العمل الرسمي .. وحتى وقت كتابة هذه السطور ما زال سياف معتبرا لدى خبراء السياسة الأفغانية بأنه ورقة سعودية .

وفي تخميني أن الفترة التي قضاها سياف في دراسته الأزهرية ـ في عهد السادات ـ ثم حصوله على منحة دراسية في الولايات المتحدة ، قد وفرا له أرضية قوية مع أمريكا . وبهذا أصبح طريقه إلى السعودية ممهدا . وبالتأكيد هناك أسباب أخرى لا أعلمها إلى الآن . هذا وقد حصل سياف على رتبتين متتاليتين على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام . ومن المعلوم نوع الخدمات التي ترضى فيصل في مجال العمل الإسلامي .

تقابلنا مع سياف بعد جولته في قطر والسعودية ، وجدناه أكثر تحفظا من ذي قبل ، ولم يعط

تفاصيل فيما يختص بالحفاوة الشعبية التي قوبل بها ، وبالنسبة للأموال التزم الصمت التام . ولم نسمح لأنفسنا بأن نسأله مثل هذا السؤال . وإن كنا نتوقع أن يخبرنا بشيء من التفصيل عما حدث معه على المستوى الرسمي ، حيث كان ذلك الموضوع مثار بحث مستفيض في جلساتنا الخاصة التي تميزت بالعفوية والإستفاضة .

تحدد موعد آخر للقاء زايد مع سياف . وعاد سياف كي يخبرنا بأن اللقاء كان طيبا وأن زايد قد سره رد فعل السعودية ، وأنه قرر المساندة المالية للأفغان .

لم يخبرنا سياف عن حجم هذه المساعدات ولكنه استلمها وغادر بسرعة إلى بيشاور ، طالبا منا – ومن كل من يعرفهم – الدعاء لأن مسؤوليات جسام تنتظره هناك .

كان صاحبنا الصعيدي أكثر خبرة في الطباع البشرية . وكان يرى أن الفلوس قد عملت عملها في نفس الرجل . وإسماعيل الأكثر واقعية سياسة توقع أنها بداية طريق الإنحراف ، وأن الرجل ليس في المستوى الذي نحلم به . ورغم كوني أكبرهم سنا فقد انعرضت على روحهم المتشائمة وطالبت إعطاء الرجل الفرصة كاملة حتى يظهر قدراته . وأن من حقه أن يقرر مستويات التعامل مع الأفراد والجهات المختلفة ، وأن علينا أن نقف عند الحدود التي يرسمها لنا في علاقاتنا معه بصفته قائد العمل الجهادي في أفغانستان . وأن الوقت مازال مبكرا جدا حتى نصدر حكما نهائيا على

كفاءة الرجل كقائد أو على حركته الجهادية ودورها الإسلامي . وعلينا إلا نتراخى في الإستفادة من الفرصة المتاحة في أفغانستان كي تحقق أهدافا إسلامية أوسع من النطاق الجغرافي المحدود في أفغانستان نفسها . إنها فرصة لانبعاث روحي للأمة ، وتكوين قوة جهادية للدفاع عن مقدساتها وحقوقها .

بعد سنوات طويلة اكتشفت – متأخرا كالعادة – بأن تلك الأفكار لم تكن فقط أكبر من إمكاناتنا على التنفيذ ، بل أكبر من أن يحتملها الوضع الإسلامي كله . وفي النهاية تحقق ما هو كن في ظل الظروف العامة الأفغانية والإسلامية والدولية . وإن كنت حتى هذه اللحظة أظن أننا كمسلمين كان أمامنا فرصة في أفغانستان لتحقيق إنجازات أضخم وأخطر مما حققناه فعلا . هذا لو كنا تعاملنا مع الحدث بشيء من الوعي والعمل الموحد والمنظم .

غادر الوفد الأفغاني أبو ظبي وهو – على ما ظهر لنا – لبس على درجة كاملة من الوفاق . فرئيس الوفد – سياف – استحوذ على كل الإهتمام والأضواء . ساعدته لغته العربية – وإن كانت صبغة الله مجددي أمتن منه من حيث اللغة لكونه نشأ في مصر في صدر شبابه – ولكن سياف الذي عثر على النغمة المناسبة لمخاطبة الجمهور الإسلامي العربي ، جعل الباقين على هامش الأحداث . نقد تكلم مع العرب المسلمين بكل ما يرغبون الإستماع إليه – وفي جلساته مع كل مجموعة على حدة – فكل جماعة كانت تفضل أن يكون لها جلسات خاصة مع زعم الجهاد الأفغاني ، وفي كل جلسة يخرج المجتمعون بانطباع قوي بأن سياف واحد من جماعتهم .

ولم أر مثل سياف في ذكائه وسرعة بديهته وخبرته بالنفس العربية وقدرته على الغرف على أوتارها الحساسة . ولم تقاربه أي زعامة أفغانية أخرى في هذا المضمار ، لذا فقد ساعده ذلك في اكتساب العرب وتأييدهم المالي وشعبيته في أوساطهم في اكتساب قيمة إسلامية عامة – وليس أفغانية – لأن المعايير الحقيقية على الساحات الأفغانية تختلف كثيرا عنها في مخيلة العرب الإسلاميين وتصوراتهم غير الواقعية عن جغرافية العمل السياسي أو العسكري في أفغانستان . وفي الواقع فإن طول فترة الجهاد لم يكن لسياف وزن يعتد به على

ساحات القتال ، كما أنه لم يكن يحظى بقبول سياس وسط الأفغان الشعبيين أو الأفغان الحزبيين .

كان مجددي مشهورا في الأوساط العربية – بأنه رجل سياسي – بمعنى أنه ليس مجاهدا بل مجرد لاعب على ساحة العمل السياسي . ونفس المفهوم شاع عن زميله في نفس المحور ، السيد أحمد جيلاني . وفي الواقع أن سياف خاصة – وزميله في المحور الإخواني حكمتيار وربانى – كانوا أكثر دهاء في المجال السياسي ، ويكفي أنه تمكنوا من خداع العمل الإسلامي في العالم . والرأي العام في بلاد المسلمين طوال مدة الحرب ، وأوهموهم أنهم يسيرون في اتجاه إسلامي صلب ، بينما كانوا في واقع الأمر أشد تواطئا مع القوى

غير الإسلامية – والتي ساندتهم بقوة ضد السوفييت – حتى أنني أرى الآن أن مجددي وجيلاني لم يكونوا سوى حمقى إذا قسناهم إلى هؤلاء الأصوليين الثلاثة .

مجددي – وكذلك زميله جيلاني – كانا منذ اللحظة الأولى وحتى آخر لحظات الجهاد الأفغاني يعبرون عن حقيقة موقفهم السياسي . وهذا خطأ لأن كل سياسي حاذق – بالمفهوم الميكيافلي – لا يعبر مطلقا عن حقيقة نواياه أو حقيقة مواقفه . بل يعطي باستمرار إشارات مضللة عن تلك النوايا والتوجهات وهذا بالضبط ما فعله إخواننا الأصوليون الأفغان .

كان مجددي غاضبا وقد مر بحالة الثورة العصبية عدة مرات عند مناقشاته مع بعض التجمعات الإسلامية العربية ، حتى أنه اتهمهم أحيانا بعدم إدراك الحقائق الأفغانية أو الدولية – وأن ظنه كان مصيبا إلى حد ما – ولكنه دافع بصراحة وعوة عن ضرورة المساندة الغربية عسكريا وسياسيا حتى

يستطيع الأفغان مقاومة السوفييت . وقد أكسبته تلك الآراء شكوك وعداوات التيارات الشعبية الإسلامية وإن كان قد اكتسب تعاطفا رسميا في الدوائر العليا . ولكنه لم يترجم إلى مساندة

قوية له ولما يمثله من أفكار حيث كانت باكستان رقما صعبا أمام التدخلات الخارجية في الش
أن الباكستاني ، ورغم خضوع السياسة الباكستانية ـ دائما ـ للمطالب الأمريكية إلا أن ف
ترة ضياء الحق شهدت نوعا من الشخصية الباكستانية شبه المستقلة . ووقفت المصالح الوطنية
الباكستانية إلى جانب المصالح الدولية الأمريكية جنبا إلى جنب فوق ساحة واحدة هي الساحة
الأفغانية . ربما كانت هذه المرة الأولى والأخيرة في العلاقات غير المتكافئة بين الطرفين .
جددي أنهى زيارته وقد انتابه شك عميق في جدوى العرب والتجمعات الإسلامية غير الواعية
كما أنه امتعض للنجومية التي غاز بها سياف ، حديث العهد بالعمل الإسلامي قياسا إلى مجددي
المخضرم والذي عمل مع الإخوان المسلمين في مطلع الخمسينات في مصر أثناء حرب قناة السويس .
فقد أخبرني أنه عمل مدربا أثناء تلك الفترة للشباب الجامعي المصري ، ولم يسمح له الإخوان
بالمشاركة القتالية لأنه كان متزوجا وكانوا لا يجيزون اشتراك المتزوجين في العمليات العسكري
ة .
أم محمدي فقد كان كعادته هادئا بعمق ولا يمكن سبر أغواره . وكما عرفته لاحقا فقد كان شخص
ية دمثة الخلق ولكنه غير حيوي ولا يمكنه إدارة عمل ـ وحتى تنظيمه الخاص المسمى حركة انقلا
ب إسلامي كان يتركه لنوده أحمد كي يديره . والوفد المذكور كان قاصدا بأوسع معاني الفساد
. ولم يبرز دور أحمد في إدارة الحركة إلا بعد انفصال مولوي نصر الله منصور عن الحركة التي كا
ن يشغل نائب القائد محمدي وكان منصور هو المحرك الحقيقي للحركة إلى حين انشقاقه عنها بس
بب تهاون محمدي وتجاوزات نجله أحمد .
أما حقاني فكان صوت الحقيقة الضائع في صخب العواطف الجياشة والمخططات المتضاربة والأحلام ا
لطموحة، التي أثارها سياف والوفد الأفغاني . لقد كانت الزيارة ضخمة ألقيت على سطح
العمل الإسلامي الراكد . كان حقاني قد خرج لتوه من أوس صدام عسكري له مع الجيش الأحمر .
فقد كان نغمة نشاز في الوفد الأفغاني لأنه الوحيد الذي يمثل الحقيقة الميدانية للجهاد
. لذا ما كان يريد طرحه لم يكن متجانسا مع الطبيعة الإحتفالية للمواضيع التي طرحها
الوفد ، والطابع الإنفعالي الحماسي للإجتماعات . كما لم يكن متجانسا مع طبيعة الجمهور الم
ربي المتعود على
سلبية الإستماع والجانبة لنشوة الحماس والتأثر ولم يكن متعودا على حيوية المشاركة وما تجل
به من متاعب وصعاب لم يتعود عليها .
ويصح ذلك بوجه خاص على المجتمع الخليجي فائق الرفاهية . بما في ذلك تجمعاته الإسلامية الموا
طنة أو الوافدة . وأعظم ما تبلغه هم تلك التجمعات ـ حتى وقت الزيارة ـ كان دفع در
يهمات لمشاريع الخير هنا وهناك . وما الجهاد عندهم ـ حتى ذلك الوقت ـ إلا واحدا من المشروع
ات الخيرية ، مثل بناء مسجد أو دار أيتام أو استكمال مركز إسلامي في دولة أوروبية .
كان حقاني يريد أن يناقش القتال ومستلزماته ، والمجاهد ومطالبه والجهاد وخطوط إمداده .
وقد تحدث مع قليلين حول تلك الموضوعات واستغرب الحديث عدد أقل واستوعبه أقل القليل منه
م .
وظلت الجبهات ومشاكلها القتالية العملية أكبر الغائبين عن ساحة الإهتمام الشعبي العربي ـ
المسلم ـ طوال مدة القتال ـ مع تحسن نسبي بعد ظهور أبو عبد الله ـ على ساحة العمل القتا
لي العربي في أفغانستان وهذا موضع أحاديث مطولة في مواضع مختلفة من هذا الكتاب .
شعر حقاني هو الآخر بمحدودية الإسلاميين العرب و سطحيتهم في التعامل مع الحدث الأفغاني . وأ
نهم في حاجة إلى الأحاديث المدهشة أكثر من حاجتهم إلى المواضيع الصعبة . بل في حاجة إلى الإستم
متاع بمشاهدة الأحداث أو الإستماع إلى وقائعها أكثر من رغبتهم في الإنغماس فيها ومكابدتها
. ولكنه أدرك بطبيعته العملية أهمية الحفاظ على الخيوط العربية وتنميتها ، فهو قد جرب
عمليا أهمية المساهمات العربية على بساطتها . وقد كان محقا في ذلك كما أثبتت ذلك الأحداث
خلال فترة الحرب الطويلة .
قبل أن يتولى سياف رئاسة الإتحاد كان قد وقع ميثاقا ـ أو تعهدا ـ كتابيا يحدد مهامه وصلا
حياته وحدوده التي يعمل داخل إطارها . أهم بنود هذه الوثيقة ـ والتي احتفظ به في ملفا
ت حزب إسلامي يونس خالص وهي الجماعة التي رشحته وضغطت في سبيل توليه منصب الرئاسة حتى نجح
ت في ذلك ـ .
البند الأول أن الأموال التي يجمعها سياف بصفته رئيسا للإتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان
يقوم بإعادة تقسيمها بين المنظمات المكونة لهذا الإتحاد وعددها ستة منظمات .
البند الثاني في حالة فك الإتحاد المذكور يتعهد سياف ألا يحول الإتحاد إلى حزب خاص به .
كانت تلك الوثيقة ـ سرية ـ ولم نعلم بوجودها إلا بعد عدة سنوات من الخلاف بين سياف وقاد
ة الأحزاب الأخرى . فقد اختاروه ليس كزعيم للجهاد كما تخيلنا وتخيل غيرنا من العرب بل اخ
تاروه كلافتة مشتركة يجمعون تحتها الأموال ، ثم يعاد تقسيم هذه الأموال بين المنظمات الستة .
في تقديري أن الإتفاق المذكور كان دنيئا وخادعا . وكان العرب أثر من تأثر بتلك الخديعة
ولم يرغبوا في الإفاقة منها . لقد شاهدت بضع محاولات من هذا الطراز بين القادة الأفغان كان
الهدف منها تحقيق منافع مادية مشتركة على حساب العرب وحتى يتجنبوا الحاح وضغوط هؤلاء السذ
ج من العرب والذين يحملون أموالا فوق طاقتهم على الفهم والتدبير . وأبرز هذه الإتفاقات
المشينة كان اتفاق تشاونر الذي سيأتي ذكره فيما بعد . وكان اتفاقا ضد العرب تم بضغ

ط سياف عندما وصل إلى ذروة تألقه في السماء العربية .
عاد سياف من رحلته الخليجية – ومن المؤكد أن أشياء كثيرة قد اهتزت بداخله – . فبعد أن كان يسكن في غرفة صغيرة في هرود رود يتبرع بإيجارها بعض الأصدقاء ، وكذلك يتبرعون بما يسد رمقه ، فها هو قد عاد بعد رحلة واحدة مربحة ومبهجة وقد حمل ملايين الدولارات هكذا دفعة واحدة وبأي مقدمات أو مراحل متدرجة .
لقد أعطاه زايد مليون دولار – كما علمنا فيما بعد – ومن المنطقي أن تكون السعودية دفعت أضعاف ذلك المبلغ أو مثله على أقل تقدير ، و أن تكون قطر قد دفعت نصف ذلك المبلغ على الأقل . ناهيك عن التبرعات الشخصية التي انهالت بسخاء غير عادي . وقد كانت تبرعات الأعوام التالية – على النطاق الشعبي – من الضخامة بدرجة لا تصدق ، فقد رأيت بنفسي أكوام الذهب الذي تبرعت به النساء في أبو ظبي فقط . وقد كانت أكوام الذهب السعودية أعلى وأضخم بشهادة العرب أنفسهم ،وأحيانا الأفغان الذين لا يفصحون عادة عن الأموال التي تصلهم .
رفض سياف توزيع الأموال ، وقد سمع الزعماء في بيشاور عن طريق أعضاء الوفد والأفغان المقيمين في الخليج ، سمعوا عن شلال الأموال الذي انهار على سياف . فهرعوا إليه مستبشرين يطالبون بتقسيم الغنيمة من أموال العرب . لكنهم صدموا بموقف سياف ، الذي رفض بإصرار ، وقدم حججا متينة ، تناقض الإتفاق المكتوب وتنقلب عليه . فقد احتج سياف بأن الأموال قد جمعت باسم الإتحاد ، وعليهم أن يتحدوا اتحادا حقيقيا – بالطبع تحت إمرته – حتى يمكنه إنفاق هذه الأموال عليهم .
فهم القادة وهم المتمرسون بمثل هذه القضايا بأن الرجل قد خدعهم ، واستغل قوة مركزه الجديد كزعيم للإتحاد كي يضعف مراكزهم ويستولي على الأموال .
استعرت الحرب السياسية في بيشاور بين القادة الستة وسياف الضيف الجديد على الساحة الذي تحول – في لعبة واحدة بارعة – إلى السيد الأول لهذه الساحة .
بدأ سياف في تدعيم موقفه وإضعاف موقف خصومه – القادة الستة – وأخذ يكون تنظيمه مستفيدا من قوته المالية العملاقة وقوة الشرعية التي اكتسبها من اسم الإتحاد . وظلت تلك هي لعبته المفضلة والرابحة حتى نهاية الجهاد .
بالمال والشرعية بنى سياف تنظيما بيشاوريا ضخما . اشترى علماء وكون منهم مجلس شورى ، واشترى ضباطا سابقين ، وقادة داخل الجبهات من الساعين إلى أعلى العروض المالية في بيشاور وتلك تجارة بدأت تزدهر منذ ذلك الوقت . ظاهرة القادة الميدانيين الهابطين من الجبال إلى بيشاور بحثا عن فرص الربح السريع نصاحب أعلى سعد من الأموال والأسلحة .
والعلماء الغيورون الساعين إلى الإتحاد الحقيقي اجتذبوا كالفراشات الحائرة إلى اتحاد سياف الذي حولهم بمهارة إلى موظفين مخلصين بعد أن أغرقهم في رغد العيش من مسكن وكماليات ومنح دراسية للأولاد .
وعدد من القادة البارزين والمشهورين استدعاهم كي يقفوا إلى جانبه لبناء الإتحاد الذي طالما طمحوا إليه . فهرعوا إليه بإخلاص وبالتدريج تحولوا إلى مياكل خشبية يعرضها على الزوار متاجرا بتاريخهم الجهادي وعلمهم الديني .
وهكذا بدأت وتيرة الإنحدار تتزايد مع بداية الإتحاد الجديد كما لم يسبق أن حدث مع الإتحادات السابقة التي لم يكد يسمع بها أحد في العالم الخارجي . لقد كان الظرف السياسي مساعدا على سطوع نجم سياف . ومساعدا أيضا لزيادة وتيرة الإنحراف والإنحدار الذي بدأها . ولم تكد تمضي أشهر قليلة حتى وقعت الطامة الكبرى على الجهاد الأفغاني حين قررت أمريكا تحت قيادة رونالد ريجان أن تتبنى سياسة التدخل في الحرب الأفغانية وتحولها إلى حرب بالوكالة طبقا لتقاليد الحرب الباردة السائدة آنذاك .
وقتها تحولت قضية أفغانستان إلى قضية دولية من الطراز الأول وأخذ الطابع الإسلامي يذوي والدم الإسلامي يزداد نزيفا . أما القيادات الأفغانية – أصولية ومعتدلة – فلم تكن سوى أحجار على رقعة الشطرنج – وما زالت كذلك حتى الآن – .
لم أستطع الذهاب إلى أفغانستان في عام 1980 بسبب كارثة مالية حلت بي ، إثر محاولة فاشلة في مجال العمل الحر تفاديا لأسر الوظيفة وانتهت المحاولة بالوقوع في أسر الديون فترة من الزمن .
في عام 1980 سافر المنياوي منفردا وشارك في عملية صغيرة في جلال آباد ورغم عزوفه عن السياسة وشكوكه وكراهيته لها ولرجالها إلا أنه أحرز إنجازا سياسيا تاريخيا ، بإخراج القضية الأفغانية إلى مجال الإهتمام الشعبي الإسلامي ، على عكس ما كان يهدف إليه مؤتمر وزراء الخارجية للدول الإسلامية في إسلام آباد الذي أرادها حائط مبكى إسلامي جديد يضاف إلى الحائط الفلسطيني وعشرات غيره .
كانت مبادرة المنياوي مجازفة جنونية ، انتهت بخير ، وجاءت أفغانستان إلى العرب في بلادهم .
فقد مضت قرون على آخر عربي خرج في جيش للغزو أو للدفاع عن أراضي المسلمين .
تحركت في مايو عام 1982 وفي ذهني المرور على نفس المناطق التي زرتها في عامنا الأول داخل أفغانستان كي ألحظ الفرق بعد أو وقعت الكارثة العظمى بدخول السوفييت وتدخل الجيش الأحمر ضد قوات المجاهدين البدائية . كانت تصلنا رسائل مطمئنة ووفود من طرف المجاهدين . كانت الإتصالات – نسبيا – طيبة ومتصلة خاصة من طرف هؤلاء الذين تعرفنا عليهم في رحلتنا الأولى

، ومن طرف سياف الذي كنا نعتبر أنفسنا من أفضل أصدقائه . وقد شجعنا هو على
هذا التصور . وكانت رسائله ومندوبيه في حركة دائبة بين بيشاور والخليج . وساعد على قوة
الإتصال أن مندوبي مولوي يونس خالص وهم أول من التقينا بهم وتوطدت صلاتنا معهم . كانو
ا قد وضعوا تحت إمرة الإتحاد الجديد وتحولوا إلى تبعية سياف وذلك بأمر من خالص نفسه . و
هو أمر ندم عليه خالص كما سنرى الآن .
من حسن الحظ أنني وجدت بين أوراقي القديمة ثلاث رسائل كنت كتبتها أثناء تلك الرحلة إلى أص
دقائي في أبو ظبي ، ومن حسن الحظ أيضا أنهم لم يستلموها لأسباب فنية . وعند عودتي وجدت ال
رسائل في انتظاري فاحتفظت بها من وقتها إلى الآن .
سوف نورد نص الرسائل الثلاث أولا ثم نتناول بالتعليق أو التوضيح بعض ما جاء فيها . وقد
نربط بعض محتوياتها بما سبق أو لحق من أحداث . وكما ذكرنا سابقا فإن تلك الرسائل توضح
جانبا صغيرا وثانويا من التيار العربي الذي رافق القضية الأفغانية . والأدق أن نقول بأ
ن جماعتها الصغيرة كانت تيارا صغيرا للغاية يسير عكس شلال هادر من التحرك العربي والدولي
.لهذا كان تأثيرنا أشد تواضعا والأفكار التي أثرناها ، معظمها ظل معزولا أو متهما أو منبذ
وذا وقليل منها تبناها التيار العربي الهادر وطبقها بما لم يخطر ببالنا من تحريف . وسوف
يأتي ذكر أمثلة على ذلك في مواضع تالية .
والرسائل التالية موجهة إلى صديقنا إسماعيل الذي بدأت قبضته تتراخى عن القضية الأفغانية
منذ عام 1981م حتى قطع علاقته بها عمليا في العام التالي .وكما ذكرت فقد كان الأكثر واقع
ية سياسية ولكنني الآن بعد انتهاء التجربة كلها وظهور كل نتائجها – تقريبا – أقول أن
موقف صديقنا كان به القليل من الصواب والكثير من الخطأ .

الرسالة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم
الأخ إسماعيل تحية طيبة وبعد
أرجو أن تكون وجميع الإخوة في أحسن حال
أكتب لك اليوم صباح الثلاثاء 2 / 6 / 1981م ومن المفروض أن أغادر بيشاور إلى ميرانشاه ب
عد الظهر .
أمضيت الأيام الثلاثة الماضية في المرور على
مدارس أبناء المهاجرين وعلى بعض المعسكرات والتقطت بعض الصور وسأحاول الحصول على بعض ا
لبيانات عن عدد المدارس والطلاب . أحوال التلاميذ سيئة وغاية في القسوة . وقد أوضحت للشـ
يخ سياف وكل من قابلته من الأحزاب الإسلامية أن التعليم لا بد أن ينتقل من يد الأحزاب إلى
يد مؤسسة إسلامية للتعليم تكون لها ميزانية ثابتة تساهم فيها الأحزاب .والسبب طبعا لأن
التنافس السياسي بين هذه الأحزاب تدفع ثمنه المدارس والأطفال 1 . وكثير من الدول ترفض
المساهمة في عملية التعليم إلا بعد الإتحاد .
عملية الخلافات السياسية بين المنظمات مستمرة متزايدة وشيء مؤسف حقيقة .
غلب الدين لن يدخل أي اتحاد مهما كان الأمر هذا هو الظاهر حتى الآن ، برهان الدين يرف
ض الإتحاد مع غلب الدين ، مجددي وجيلاني يلعبان لحساب أمريكا على المكشوف واستطاعا السيطر
ة على الشيخ محمد نبي محمدي .
وهذا أدى إلى انقسام في حزب محمدي كاد يؤدي إلى
صدام يوم الجمعة الماضي لولا أن الله سلم 2 .
محور مجددي – جيلاني ورطا الشيخ يونس خالص في بعض المواقف أساءت إلى علاقات حزبه مع أحزاب
غلب الدين وبرهان الدين وأصبح الشك قائما بينهم 3 . والعلاقات متوترة بين سياف ومحمد
يونس خالص بسبب موافقة الشيخ يونس على
بيان أعده الثلاثة مجددي ، جيلاني ، محمدي ، يعلنون فيه خلع سياف وإلغاء الإتحاد وتوجيه ا
تهام لسياف بأنه لم يقسم أموال الإتحاد بينهم .
سياف يحارب في معركة شرسة لتكوين كيان اتحادي بأي شكل سواء باتحاد غلب الدين – برهان الـ
دين وقد فشل في هذا حتى الآن نتيجة رفض الإثنين لمبدإ الإتحاد بين حزبيهما رغم موافقة أعضاء
مجلس الشورى في الحزبين على
الإتحاد بالأغلبية ولكن الزعيمين ضربا بالشورى عرض الحائط . الحل الآخر أمام سيف هو تكوين
تجمع من أعضاء الأحزاب من رجل الصف الثاني وهم أغلبية الأحزاب لتكوين اتحاد من ملف ظهر
ر الرؤساء وهو يتوقع الحصول على أغلب أعضاء أحزاب برهان الدين – غلب الدين – محمد نبي
.
وأظن أن اعتقاده هذا صحيح ولكن هذه الخطوة ستحدث ارتباكا كبيرا في الصفوف ويخشى من حدوث
صدامات 4 .
أصدرت جماعة من العلماء بيانا قويا تهدد فيه رؤساء الأحزاب بالإتحاد فورا وإلا أصدرت بيان
ا بتكفيرهم إذا لم يتحدوا وجاء في هذا البيان – وهو بيان جيد جدا ويرسم خطوطا واقعية و
قوية لإعادة تشكيل البنيان الإتحادي – جاء في البيان 103 مادة تحدد الخطوات اللازمة لتشكيل
الإتحاد وتشكيل مجلس الشورى والشروط الضرورية توافرها في أعضاء الإتحاد 5 .
من ضمن شروط العلماء أن المنضم لهذا الإتحاد لا بد أن يكون معروفا بجهاده الإسلامي لا القومي

وعدم تورطه مع العهد الملكي لظاهر شاه وهذه الشروط ستؤدي إلى ابتعاد جيلاني ـ مجددي ـ محمد نبي .
من شروط العلماء أن يرشح كل حزب 20 عضوا للمجلس الشوري ليختار العلماء منهم عشرة فقط للمجلس المذكور . الحزب الذي لن يتوفر لديه عشرة أعضاء تتوفر فيهم الصفات المطلوبة س يكون عدد أعضائه أقل من عشرة ـ حسب العدد الذي توفرت فيه الشروط ـ .
مجلس الشورى سيدير أمور الإتحاد بشكل جماعي حتى
يتم انتخاب رئيس دائم بعد دمج اللجان الإتحادية للدفاع والإعلام ... الخ .
الشورى رأيها إلزامي على الرئيس .
سيكون العلماء مجلس إفتاء مكون من ثلاثة أعضاء .
أعضاء مجلس الشورى لا بد أن يمارسوا القتال في الجبهات لفترات معينة كل عام .
طبعا أنا سأغادر بيشاور قبل أن تنجلي المعركة الحالية وفي ظني أنها ستكون حاسمة على المجال السياسي وأما أن يعقبها اتحاد حقيقي أو تفتت وخيم العواقب .
أرسل الإخوان المسلمون في مصر مندوبا للمساعدة في عملية المصالحة بين الأحزاب وهو السيد كمال السنانيري ولكن جهوده لم تسفر عن شيء للأسف حتى الآن 6 .
جميع من قابلتهم أجمعوا أن الموقف العسكري ممتاز وأن المجاهدين أفضل تنظيما وفعالية في الداخل وأن موقفهم أفضل هذا العام من الأعوام السابقة .
وجميع الشواهد التي رأيتها تؤكد أن هذا الكلام صحيح 7 .
الشيخ جلال الدين حقاني هو في موقع قريب من جرديز عاصمة باكتيا ، وقد استطاع أن يضع على
قمم الجبال المحيطة بها أسلحة ثقيلة في وضع يمكنه من تدمير أي موقع عسكري في جرديز أو ما حولها إلى مسافة 20 كم تقريبا ... ولكن مشكلته أن الذخيرة غير متوفرة لهذه الأسلحة .
الشيخ مطيع الله ترك بيشاور قبل قدومي بعشرة أيام وعاد إلى موقع الأورجون وسوف أزوره إن شاء الله .
خط سيري من اليوم هو ميرانشاه ـ جرديز ـ أورجون . سوف أكتب لكم من ميرانشاه إذا كان هناك ما يستحق ثم أكتب لكم من عند الشيخ جلال الدين بإذن الله .
أخير الأخ بشير أني أرسلت شيك لصديقه في بيشاور وأوصلت الخطاب للأخ نجيب في الجمعية الإسلامية 8 وهو يهديه السلام أما الأخ الأطرش فلا يوجد أحد بهذا الإسم ويبدو أنه أخطأ .
أحمد المنياوي أعطاني عنوانا خطأ ولما كنت قد وصلت بيشاور في الواحدة صباحا في تاكسي خصوصي من مطار روالبندي وأخذنا نبحث عن عنوان المنياوي لأكثر من ساعة ونصف وقد كلفني هذا الخطأ 700 روبية للتاكسي أرجو أن يجهزه المنياوي مضافا إليها ألف روبية أتعاب ...
كل من هنا يسلمون عليكم كثيرا جدا ...
ضمانا لعدم الضياع على
كل شيخص يأتي إلى بيشاور لأول مرة خاصة إذا وصل في الليل مثلي دعه يأخذ التاكسي إلى منطقة صدر وهي منطقة السوق ويذهب إلى فندق سكاي لاب ت 74121 ومدير الفندق هو محمد عمر صديق جماعة مولانا يونس خالص سيعمل اللازم لتوصيله .
مرسل لك في خطاب آخرا وربما مع هذا الخطاب مقالة بالإنجليزية لأخ صحفي باكستاني وهو مسلم متعاطف للمجاهدين وعلى علاقة وطيدة بهم جميعا وله وكالة أنباء خاصة بالمجاهدين وله عدة مراسلين من صفوف المجاهدين ومن سكان المدن . أرجو أن تأخذ مقالته وتقدمها لسمير إذا أمكن أن يتعاقدوا معه اتفاقا مع أي صحيفة إنجليزية في الإمارات ليراسلها بالصور والأخبار عن الجهاد في أفغانستان .
بالمناسبة الأخ الصحفي يجهز لكتاب كالذي كنا نتحدث عنه وطبعا عنده المادة متوفرة أكثر لأنه يعيش في وسط الأحداث أرجو أن تكتب إليه فهو يرغب في التعرف عليكم .
أخيرا بلغ تحياتي للإخوة جميعا بشير وجمال ومحمد بدوي وأحمد أبو لبن والمنياوي وأبو عاصم وعبد الرحمن .
رجاء مداومة الكتابة على عنوان الجماعة في بيشاور وأطيب تمنياتي لكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
أخوكم
مصطفى
ملحوظة سمعت أم مولانا خالص سيصل في الرابعة مساءا سأنتظر حتى أراه ومازلت المشادات محتمرة حول بيان العلماء كل طرف يحاول تعديله لصالحه سأذهب الآن لمقابلة الأستاذ السنانيري .
رجاء كتابة رقم صندوق بريدك فقد اكتشفت أني لم أكتبه عندي
جاء مولانا خالص واتفق معي على مقابلة السنانيري ووعد بالسفر معي إلى باكتيا .
الرسالة الثانية
بسم الله الرحمن الرحيم
الأخ إسماعيل ، الإخوة الأعزاء ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته
أكتب لكم هذا الخطاب من مركز مولانا جلال الدين حقاني وقد سألني عنكم فردا فردا ويرسل لكم سلامه أيضا فردا فردا . وفي الحقيقة أن هناك عالمين مختلفين ، عالم السياسة والأحزاب في بيـ

شاور وعالم المجاهدين داخل أفغانستان .
أوضاع المجاهدين هنا أفضل كثيرا مما يمكن أن يتصوره أي إنسان لم يحضر ويشاهد بنفسه . أنا ن
فسي لم أكن أتصور ما كنت أراه والحمد والفضل لله وحده فهذا جزاء الصابرين . ولكنني أظن و
يشاركني الرأي الشيخ جلال الدين حقاني والشيخ سياف والشيخ يونس خالص وكثيرين من قابلتهم
م أن النصر لن يتم إلا إذا تحقق الإتحاد بين المسلمين . فالخلاف والتنازع على الرئاسة والزعا
مة مخالفة لأمر الله بالوحدة ونبذ الخلاف والنصر لا يعطيه الله لعاص .
في الداخل والحمد لله وفرة في السلاح وفي الرجال ورغم الهجرة والمهاجرين فإن الأراضي كلها مزر
وعة وإنتاجها عال وجيد والماشية كثيرة وجيدة وشاءت قدرة الله أن تنعم على هؤلاء الناس بف
يض من النعم بعكس ما سعت إليه قوات الروس من ترويع الأهالي وتدمير القرى حتى يمتنع الطعام
والملبس عن المجاهدين والذي يحدث الآن هو العكس فالخير الذي رأيته في الحقول هذا العام أفضل
بكثير جدا مما رأيته في المرة السابقة . وقد أخبرني الشيخ جلال الدين أن أسعار المواد الغ
ذائية داخل أفغانستان أرخص منها في باكستان .
وعسكريا فإن جيش الحكومة يهرب بأسلحته كثيرا ويقاتل قليلا تحت ضغط الروس . نشاط الطيران
أضعف كثيرا جدا من المرة السابقة . في أول يوم لدخولنا الحدود قرب خوست وقريبا من أحد
مراكز المجاهدين جاءت الطائرات على ارتفاع شاهق لدرجة أنني لم أرها وبعد أن دارت حول المـ
نطقة لدقيقتين رمت القنابل وذهبت . طبعا هذا يدل على
صوف الطيارين من المقاومة الأرضية . الذي أدهشني أكثر أنه خلال اليومين التاليين كانت الذ
اس تتساءل في الطرق الجبلية عن أخبار غارة الطيران وكأنها حدث غير عادي . وعلمت أنها الغـ
ارة الأولى منذ عدة شهور من الإنقطاع 9 .
والحمد لله لم تحدث خسائر . بل العكس ، أهالي القرى حول خوست يحصدون القمح الوافر ويعيشون
حياة عادية كأي قرية آمنة موفورة الرزق . وعجبت أن أحد صبيان في سن السابعة وفتيات في
التاسعة أو العاشرة يرعون الأغنام والإبل في سفوح الجبال منفردين . أدهشني هذا الأمن في
ظل الحرب القائمة وقارنت هذا بحالنا في أبو ظبي مثلا حيث لا يأمن الرجل منا على ترك ابنه
أو بنته على باب البيت منفردا ...
الإخوة الأعزاء ... بيشاور بما فيها من أحزاب وصمة في جبين المسلمين ... وإهدار لطاقات الجا
هدين ... وتأخير ليوم النصر الذي لاحت بوادره وتأخره معصية للعصاة في بيشاور . هناك الـ
سياسة كأسوء ما تكون وحزبية متعصبة كانت تغشت للأسف في عالمنا الإسلامي .
زعامات أغرتها الرئاسة والجاه والصور المعلقة على الجدران والتصريحات الرنانة وحولها مجموع
ة من المنتفعين ومجالس شورى لا يؤخذ برأيها يستبدلها الزعيم إذا ضاق بها ذرعا ويطرد من يحا
لفه الرأي منصوما مدحورا ويقرب المنافقين . وإذا اشتدت الضغوط لإقامة الوحدة اجتمعوا ث
يقبعوا وحدة تمتص السخط عليهم ثم يكونوا هم أول هادم لها .
وصدق الشيخ جلال الدين إذ وصف بيشاور بأنها موطن الفتن وأختم لكم الوضع السياسي في بيشاو
ر بالآتي
1 ـ مشروع اتحد بين غلب الدين وبرهان الدين وافق عليه مجلس الشورى . الزعيمين الكبيرين ر
فضا حضور اجتماعات مجلس الشورى بحجة المرض والإنشغال بمقابلات هامة . وكان الشيخ سياف
ومازال هو المحرك لهذا المشروع .
2 ـ الشيخ سياف يسعى لإقامة وحدة بين الحزبين المذكورين مع المنشقين من الأحزاب الأخرى بحيث
يتوفر للإتحاد تمثيل أغلبية المجاهدين ثم ينقل كافة نشاطه إلى داخل أفغانستان وأظن أنه يرشـ
ح نفسه رئيسا للإتحاد الجديد .
3 ـ جماعة محمد نبي محمدي انقسمت على نفسها بعد انسياق الشيخ محمدي وراء جماعة الخيانة العـ
لنية مجددي ـ جيلاني وأعلن مساعده مولانا نصر الله منصور ومعه أغلبية مطلقة من مجلس الشـ
ورى خلع محمدي . فأرسل محمدي قوات من أصدقائه مجددي ـ جيلاني لتستولي على المكاتب وتمنع
المنشقين من دخولها . المهم جماعة نثر الله في يدها القوة الحقيقية للحزب وأصبح محمدي معلق
ا في الهواء وبهذا أصبح حلف الخيانة لا وزن له ماديا بعد أن أصبح محمدي وحيدا وفشلت محاولات
مجددي ـ جيلاني في استدراج مولانا يونس خالص إلى شرك التعاون معهم رغم إطلاقهم شائعات
ومنشورات تؤكد هذا التعاون . ولكن هذا حقيقة غير صحيح وكذبه الشيخ خالص بنفسه .
4 ـ جماعة مولانا خالص ترغب بإخلاص في الإتحاد الإندماجي الكامل في أسرع وقت وأجل الشيخ ذها
به إلى الجهاد وقال لمندوب جماعة الإخوان المسلمين »إن تحقيق الوحدة الآن مقدم على ذهابي إلى
الجهاد وإن جهادنا لا فائدة فيه بلا توحيد كلمة المسلمين«
. وأعرب عن أسفه بأن كل محاولات الإتحاد التي تجري حاليا غير جادة ولكنه سيمكث في بيشاور لبـ
بذل جهده في هذا المجال .
5 ـ سياف يعمل كحزب مستقل منذ إعلان الإتحاد . فقد بقيت الأحزاب غير متحدة باستثناء مولا
نا خالص وظل سياف يعمل منفردا كحزب . وقد رفض سياف توزيع الأموال على الأحزاب حتى اتحـ
د ولكن هذا الإجراء لم ينجد ولكنه أضر بجماعة يونس خالص التي لم يعد لها جهاز مالي بعد أن
دمجه في الإتحاد وقد سبب هذا ضررا شديدا للحزب وأوقع مجاهديه في ضائقة شديدة وما زال م
ولانا خالص يحمل مرارة في نفسه تجاه سياف بهذا السبب . فالمندمج الوحيد أصيب بالشرر نتيجة
لاستقامته .

6 ـ حزب الخيانة الصريحة مجددي ـ جيلاني يعمل بنشاط وجد في إغراق الأحزاب الإسلامية في الخلا
ف وقد نجحوا في هذا إلى حد كبير وتعاونهم مع أمريكا ، مصر ، باكستان لأجل الإنحراف بمسار الج
هاد حتى
لا يؤتي نتائجه بإقامة دولة إسلامية . فالروس في مأزق حقيقي وموقف غاية السوء حتى عسكريـ
ا ـ بفضل الله ـ ولكن السؤال هو ما البديل ؟ ومن يحكم أفغانستان ؟ 10 .
7 ـ حزب الخيانة ضعيف جدا ماديا وإن كانوا أغنياء إلا أنهم غير مقاتلين . والخلافات القائم
ة بين باقي الأحزاب رغم سوئها إلا أنها أدت إلى ارتفاع كبير في الوعي السياسي الإسلامي لدى ع
امة الشعب الأفغاني وهذا شيء جيد جدا فترى شخصا غير متعلم يناقشك في أمور السياسة والجها
د وأحوال الممالك العربية والدول غير الإسلامية كل ذلك بآراء سليمة وواضحة ربما لا تتوف
ر لدى كثير من المثقفين المسلمين في بلاد العرب .
وهذا إن شاء الله دليل بأن هذا الشعب المسلم لن ينخدع بالنسير وراء الأفاقين وأنه سوف يجتاز
محنة الفرقة ويخلصه الله من سوء زعمائه الفاسدين الذين يقفون عقبة في وجه الإتحاد . فالتنـ
اقض واضح ومفجع بين رغبة المجاهدين وعامة الشعب في الوحدة وبين عرقلة الزعماء لها إنها علام
ة استفهام كبرى ومأساة في العمل الإسلامي . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيح هذه الغمة ويو
حد راية المسلمين وينصرهم على أعدائه وأعداء الدين .
11 الإخوة الأعزاء رجاء أن تقرأوا هذا الكلام جيدا وأن تكتبوا لي عن رأيكم وهل يمكن أن
نقوم بأي دور في هذا المجال ؟ ... علما بأن الإخوان المسلمين يواصلون جهودا متصلة منذ شهو
ر ولكن بلا فائدة . وسوف تصل منهم وفود على مستوى عال قريبا ولكن المشكلة في هذه الوس
اطات أنها طارئة تستمر أسبوعا أو شهرا ينقش في تسويف ومماطلة ثم يذهب الوفد وتبقى المشك
لة . وقد طالب واحد من حزب مولانا يونس خالص طالب مندوب الإخوان أن تأتي اللجنة لتقيم
في بيشاور مع عائلاتها وتشارك في المفاوضات كعضو أساسي حتى تنفرج الأزمة ولكن رد مندوب ا
لإخوان لم يكن شافيا .
12 أظن أن الأمر أخطر من أن نقف منه موقف المتفرج فدماء عشرات الألوف من الشهداء معل
قة في أعناق كل منا وليحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسبه الله . وفقنا الله وإياكم والسلام ع
ليكم ورحمة الله وبركاته .
أخوكم مصطفى
باكتيا في 10 / 6 / 1981م .
الرسالة الثالثة
بسم الله الرحمن الرحيم
الأخ إسماعيل ، الإخوة الأعزاء
سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .
أرجو من الله العلي القدير أن تكونوا في خير حال وأن يوفقنا الله وإياكم إلى ما يحب ويرضى .
الإخوة الكرام ... ندي الكثير جدا أريد أن أقوله لكم ... وعندما تتزاحم الأفكار في رأسي
بهذا الشكل فإني أفقد القدرة على الكتابة . ولكني سأحاول التركيز سائلا الله التوفيق.
1 ـ صورة الجهاد هنا ليست بالبساطة التي كنا نتخيلها فالمعركة شرية والمخلصون قلة قليلة
والمنافقون والخونة كثرة غالبة ورغم هذا وتبارك ربي القادر العزيز الجبار ، فإن القلة
الضعيفة المخلصة تضع العدو الجبار ذو العدد الضخم والعتاد الذي تشيب له الولدان ، تـ
ضع هذا العدو في حصار خانق . وتبارك الله الذي ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا وذكرها في كتابه
حيث قال » كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله« 13 .
والله سبحانه يضرب لنا المثل مرة أخرى ، ومن أراد أن يعبد الله عن بينة فليأت هنا ليرى بع
ينه أن قول الله لا يبدل .
2 ـ قيادات العمل الإسلامي هنا ليست فوق الشبهات وهي مسؤولة أمام الله عن عدة جرائم هي

أ ـ تفريق كلمة المسلمين وزرع البغضاء بينهم .
ب ـ التنافس على الدنيا وزخارفها من زعامة ورئاسة ومال .
جـ ـ ارتكاب معصية التفرقة والتنازع مخالفين أوامر الله في كتابه العزيز لهذا سيتأخر الفتـ
ح أو قد يمتنع إذا استمرت تلك المعصية الكبرى .
في جرديز لا تطلق طلقة إلا من جانب جماعة الشيخ جلال الدين حقاني وباقي الجماعات تتفرج رغـ
م أن بعضها يمتلك أسلحة ثقيلة مع ذخائرها بأعداد كبيرة . 14
وعلى سبيل المثال كادت أن تنفذ ذخيرة أحد المدافع الهاون فجاءت جماعة غلب الدين تعرض
بيع ما لديها من ذخائرها وعددها 2000 قذيفة بسعر 4000 أفغاني لكل قذيفة 15 .
طبعا الشيخ جلال الدين مستعد أن يبيع أولاده للحصول على الذخيرة .
مثال آخر حول جرديز جماعة لغلب الدين وجماعة انقلاب إسلامي ـ لجيلاني ـ والجميع صامتون ك
الموتى رغم المعارك اليومية التي تخوضها جماعتنا هنا .
مثال آخر تواترت الأنباء من مصادر غير حزبية متطوعين أن جماعة غلب الدين أوقفت القـ
تال في معظم المقاطعات منذ عدة أشهر . وأنها ارتكبت عدة جرائم اغتيال ضد مجاهدين بارزين
رفضوا الإنضمام إليها .

ولعلم غلب الدين يحصل على تأييد مادي ومعنوي من جهتين رئيسيتين هما إيران ـ جماعة الإخو
ان المسلمين 16 .
ولا أدري إذا كانت الصورة الحقيقية لهذا الرجل قد اتضحت للإخوان هذه الأيام أم لا ... فهم
الآن قريبون من الصورة أكثر من أي وقت مضى .
إذا منتم مازلتم تتذكرون فكرة المعسكر الإسلامي الي اقترحناه منذ سنتين أو ثلاثة ثم تقاعسنا
عنه فإنه الآن قائم وفعال لدرجة عجيبة رغم قلة عدد الأعضاء وليس بينهم عربي غير العبد
لله . والجماعة يتدربون على أحدث الأسلحة وشجعان إلى درجة كبيرة .
وللعلم ، أحد قادة حرب جرديز البارزين جدا ضابط مسلم متطوع على درجة عظيمة من الخبرة
والكفاءة .. ولكنه غير عربي أيضا . فأين أنتم الآن ؟ 17
أمس الجمعة وقعنا في كمين نصبه لنا العدو في الطريق واستعمل فيه كل أنواع الدفعية وبعض
الطائرات الهيلوكبتر ولكننا بفضل الله تخلصنا منه ولم يصب منا أحد.
إخوتي الأعزاء يعلم الله أني في شوق لكم وأدعو لكم في السراء وحين البأس . أسألكم الدعاء
... واكتبوا لي بما يجب أن أفعل وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته .
أخوكم مصطفى .

والآن إلى تعليقات على تلك الرسائل

1 أخوان المدارس كما رأيتها في ذلك الوقت كانت في غاية السوء حتى أنه من الصعب أن نطلق عليها لفظ مدارس ، حيث لا مبنى ولا كتب ولا أي شيء سوى عزيمة شعب يرفض الهزيمة ويصر على الحياة . وهذه أعظم ميزات هذا الشعب . كانت المدرسة تقام تحت شجرة كبيرة في الهواء الطلق أو داخل فناء مبنى سكني ، أو داخل إطار سور مهدم لمبنى قديم . والعجيب هو معنويات المدرسين والأطفال . لم ألحظ وقتها انكسارا في النفوس أو يأسا مطبقا ، بل رأيت حيوية وأملا وكلمة الإسلام والجهاد على لسان الصغار والكبار . إن من أعجب الظواهر في أفغانستان هي الكيفية التي يحافظ بها ذلك الشعب على روحه المعنوية ، وتعلقه بالفطر الحنيف بالإسلام ، مهما كانت درجة جهله بهذا الدين بل والمخالفات التي يرتكبها ضد تعاليمه . كانت معنويات أطفال المهاجرين وآبائهم مفاجأة لي في ذلك الوقت إلى أن شاهدت بعد ذلك معنويات أولئك المصابين في الجبهات بجروح قاتلة ، أو أولئك الذي يدفنون أبناء وآباء وإخوة ... كانت مفاجأة زلزلت وأيقنت وقتها أن هذا الشعب غير قابل للهزيمة خاصة إذا امتزجت تلك الصلابة مع مشاعر الدين .
كانت الإنقسامات الحزبية عائقا أمام تقديم الخدمات التعليمية والطبية للمهاجرين . وفي الحقيقة فقد كان من المستحيل الإعتماد على الأفغان أنفسهم في إدارة أي عمل ، وذلك لأسباب كثيرة منها عدم التأهيل الفني . والأخطر من ذلك روح القبلية ثم روح الحزبية التي تجعل ولاء أصحاب الوظائف العامة موجهة فقط لخدمة قبائلهم أو أحزابهم .
وبالنسبة للتعليم فقد أهملته الإغاثة العربية حتى بدأت في بحثه بشيء من الجدية عام 1985م على يد منظمة إسرا التي أخذت زمام المبادرة في هذا الميدان وتبعتها باقي المنظمات . ولكن الهيئات التعليمية كانت مصممة على الإنفراد بالعمل التعليمي وإبعاد المؤسسات الإسلامية عنه . وقد نجحت في ذلك إلى درجة كبيرة وهدفها بالطبع إبعاد التعليم الأفغاني عن الدين . وسيليها إلى ذلك علمنة المناهج وعلمنة المدرسين وسيتبع ذلك تلقائيا علمنة الخريجين .

2 أقدم مولوي نصر الله منصور على إعلان عزل مولوي محمدي وذلك بتأييد معظم العلماء في الحزب وموافقة أكثر أعضاء الشورى . ولكن مجموعة المعتدلين وحلفاؤها الدوليون لم يسمحوا بمثل تلك الإنقلابات ولو كانت شرعية من خلال مجالس الشورى . وأظهرت تجربة الأحزاب الأفغانية أن المفاهيم الإسلامية عن الشورى هي مفاهيم تسلب الشورى جوهرها وتكرس استبداد القيادة . وقد رأينا كيف تفننت القيادات الأفغانية في تفريغ الشورى من محتواها وتحويل مجالس الشورى إلى مجلس للعرائس الخشبية ، ورغم احتواء هذه المجالس على عدد من أفضل العناصر الدينية والجهادة . إلا أن الزعامات أتقنت لعبة الإتلاف واستخدمت الأموال كما تستخدمها أي سلطة طاغوتية ، في تخريب الزخم وتحويل الشجعان إلى منافقين ، والعلماء إلى طبالين وزمارين . وفي الحقيقة فإن القتل هو العنصر الموازي للمال ، فمن استعصى على الأول تكفل به الثاني . ولما كان القتل ليس سهلا دائما فإن القتل المعنوي كان دائما موجودا . وفي ساحة الأحزاب الأفغانية إذا حاولت السؤال عن أحد العلماء المجاهدين سمعت عنه ما يدمر سمعته ويطعن في دينه وجهاده ، وشرفه ويصوره بأنه العدو اللدود والعقبة الكأداء في طريق الجهاد والمجاهدين . ونجحت تلك السياسة أيما نجاح . وكأي ساحة إسلامية ولكن بدرجة أشد ساد اختلاط الأحكام والمفاهيم . وسادت أجواء خادعة . يصدق فيها الكذوب ، ويكذب الصادق ويؤتمن الخائن ويخون الأمين . فتقلص الخير تدريجيا حتى يرتع الشر والفساد في أوسع مجال من الساحة الأفغانية . ولكن رغما عن كل شيء يبقى شيء من الخير ، فالخير في أمة الإسلام إلى يوم القيامة .

3 بدأ يونس خالص منذ ذلك التاريخ يعاني صحيا ـ بسبب السن ـ وبسبب إصابة في ركبته أعجزته عن العمل الميداني . وكان الرجل غير مقتنع بالمعسكرين المتواجدين على الساحة الحزبية في بيشاور ـ معسكر الأصوليين سياف ـ حكمتيار ـ برهان ومعسكر المعتدلين مجددي ـ جيلاني ـ محمدي .

كان لا يرى الإخلاص في أي من المعسكرين بل يرى أنهما على نفس الدرجة من الخطورة . وعجز خال
ص لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية عن تكوين البديل . لهذا أخذت مواقفه تتذبذب بين المعسكرين
بحثا عن سبيل وسط . ولكنه أيضا لم يستطع بل تورط في عدة مواقف سياسية يصعب تبريرها أو
الدفاع عنها . وظل حتى نهاية الحرب في مكان ضائع بين معسكر الأصوليين ومعسكر المعتدلين ، وإن
كانت مواقفه في أغلبها تجعله أقرب إلى المعسكر الأول .

4 لقد نفذ سياف خطته وكون تنظيمه مستفيدا من قوته المالية التي فاقت بمراحل قوة باقي
زعماء المنظمات ، ناهيك عن غلالة الشرعية المتمثلة في نفط الإتحاد . وقد أدى ذلك إلى صد
امات عديدة في الداخل . اشتهر منها ما حدث في منطقة ميدان القريبة من كابل عا
م 1985م بين تنظيمي سياف وغلب الدين . والأخير كان يتبع سياسة حازمة تجاه من ينشق عليه
تتمثل في عمليات اغتيال تم تنفيذ كثير منها على أرض باكستان ، خاصة بيشاور ، وعدد منها
داخل أفغانستان ، إظافة إلى حروب صغيرة في الداخل خاصة ضد تنظيم رباني . وكان أطرف
ما قاله أحد الشباب من أتباع حكمتيار تبريرا لتلك السياسة هو قوله »إن تنظيمنا هو
الأصل والأساس ، ومن شذ شذ في النار« . وعلى هذا الأساس التنظيري فإن حكمتيار وتنظيمه ق
د عجلا بإرسال المئات من الأفغان ـ المجاهدين ـ إلى النار عقابا على شذوذهم . ونشير بهذه
المناسبة إلى
ضرورة قيادة علماء متمكنين لحركة الجهاد ـ أو على أقل تقدير ـ توليهم منصب الفتوى النشر
عية حتى لا تتحول الحركة الجهادية إلى سيف مسلط على
رقاب المسلمين قبل غيرهم . ووبالا عليهم لا على أعدائهم .
والوعي الشرعي والسياسي ضروريان للحركات الجهادية على مستويات القيادة والأفراد حتى تحص
ن نفسها ضد الإنحراف . ونشير هنا إلى
حركة الخلافة التي ظهرت في بيشاور عام 1993م في بدايات انهيار التواجد العربي الجهادي هذ
اك . وقد استقطبت الحركة العديد من هؤلاء الشباب إضافة إلى دماء جديدة وصلت من أوروب
ا ، ورغم البصمات الإستخباراتية على صفحات تلك الحركة والقائمين عليها ، إلا أنها وجدت م
ن يبايع حتى الموت . وكان من أهم قرارات الخلافة ـ وهي كثيرة ـ استباحة دماء وأموال الع
رب في بيشاور وسبي نسائهم بحجة أنهم لم يبايعوا الخليفة . وشجتع حكومة باستان ـ وغيرها من
حكومات الكفار ـ تلك الحركة من طرف خفي ثم استفادت من فضائحها لتلويث سمعة العرب المجاه
دين وتبرير إرهاب ومطاردة التجمع العربي المجاهد في باكستان .
وعودة إلى فقدان القاعدة الشرعية ـ كنتيجة لغياب أو تغييب العلماء ـ وفقدان الوعي ا
لسياسي ، أن قطاعا بارزا من العرب المجاهدين بعد انهيار النظام الشيوعي في كابل عد انضم
وا إلى حكمتيار نقتال رباني بدعوى
1 ـ أن رباني تحالف مع الشيوعيين البارشام ومازال يستخدمهم في الجيش ، وفي مليشيات عبد ا
لرشيد دوستم الأوزبكية .
2 ـ أن رباني متحالف من الشيعة الأفغان وهم كفار وقتالهم مقدم على
قتال اليهود والنصارى .
ولكن مع بداية عام 1994م تبدلت خريطة التحالفات ، وتحالف دوستم وميليشياته مع حكمتيا
ر ، كما انضمت إليه الشيعة أو نصف قواتهم على الأقل ، أما الشيوعيون فمنذ اليوم الأول
تحالف حكمتيار مع بقايا حزب خلف الشيوعي ومعظمه من الباشتون أي نفس قومية حكمتيار
كما أنه منذ اليوم الأول متحالف مع ميليشيات عبد الجبار وهو شيوعي من قندهار وباشتو
ني أيضا . ومع هذا فضل هؤلاء المجاهدون العرب مع حكمتيار حتى
لاقى عديد منهم ربه وهو على هذه الحال . وترك آخرون الجهاد لأنهم أدركوا جزءا يسيرا من الح
قيقة مع اعتقاد معظمهم حتى تاريخه بأن حكمتيار هو الأقرب إلى الحق . أما أهم شخصيات
وقيادات التجمع العربي المقاتل مع حكمتيار في كابل ـ و هو أهمهم عسكريا ـ وقد قتل في ك
ابل في يونية 1994م هذا المجاهد العربي تكلم مرة مع حكمتيار قائلا » أنا لست من علماء
الدين ، كما أني لا أحب السياسة ولا أفهمها ، ولكني أسير خلفك ـ ثقة بك ـ وأضع المسؤولية
كلها في رقبتك يوم القيامة« .
وطمأنه حكمتيار ووعده خيرا . ونحن أن نتخيل تلك الشخصية العربية المجاهدة ، وهي على حل
ق طيب وشجاعة نادرة ونقاء في النفس ولكنه يسلم نفسه هكذا كي يقوده زعيم ويتولى عنه ال
قرار الشرعي والقرار السياسي ، وبلا أي مناقشة لأن أخانا المجاهد لا هو رجل رجل ولا هو ر
جل سياسة . وكم هو وأمثاله ، فرائس سهلة وأدوات نادرة المثال ، لتحقيق مآرب سياسيين
خونة وقوى دولية طاغوتية كافرة .
إن حرص لعمل الإسلامي عامة على تجهيل أتباعه سياسيا ، وعلى تسطيح معلوماتهم الشرعية وح
صرها في بؤر ضيقة اختيارية ، كل ذلك لا يجعل في ظباته إلا أعظم الأضرار على المسلمين أنفسهم
وأعظم الخدمات لأعداء الإسلام . فانتبهوا يا أولي الأبصار...
5 كانت حركة العلماء المذكورة في ذلك الحدث هي الأكبر من نوعها والأخطر كما أنها كانت الأ
خيرة من هذا الطراز ، بمعنى أن التحركات الأخرى للعلماء الأفغان كانت أضعف كثيرا .
وفي رأيي أن هذا التحرك كان انتفاضة الموت للعلماء الأفغان وانتهاء دورهم التوجيهي الأس
اسي في الجهاد ، وانتقال تلك المهمة الخطيرة إلى أيدي قادة الأحزاب في بيشاور . وتشرذم العل

ماء بين مجالس الشورى لدى المنظمات أو رئاسة بعض اللجان الهامشية في بيشاور وقليل منهم
عاد إلى القتال الذي استهلك أكثرهم .
وتحرك العلماء المذكور قد تم الإلتفاف حوله وإجهاضه من جانب زعماء الأحزاب ، وإن كانت سيد
ف استفاد منه كثيرا لتدعيم موقفه وتقوية اتحاده واستحوذ على
عدد كبير من العلماء سواء
في الشورى أو في رئاسة لجان مختلفة للأيتام ، التعليم ، الصحة ... الخ.
طبعا الشروط الأساسية التي حددها العلماء في بيانهم المذكور لم يطبق منها شيء في الواقع .
6 كانت مفاجأة لي أن أعلم بوجود مندوب عن الإخوان المسلمين في بيشاور ، وكانت مفاجأة لـ
ه أيضا أن يقابل شخصا مثلي – من خارج قنوات الإخوان – وكان السنانيري – رحمه الله – كما
رأيته ذكيا دمث الخلق مرحا . سادت الألفة بيننا سريعا ، ساعد على ذلك اتفاق وجهات نظر
نا بأن سياف هو الشخص المناسب – والشرعي
– لقيادة اتحاد المجاهدين . وأيضا اتفاقنا بأن معظم الخلافات مبعثها عوامل شخصية ، ثم احتر
امنا المشترك للشيخ يونس خالص . وبعد مدة قصيرة من جهودات الشيخ السنانيري على الساحة ا
لأفغانية قام النظام المصري باعتقاله ثم اغتياله في السجن مدعيا أنه انتحر . وقد رب
ط الإخوان بين اغتيال السنانيري وبين نشاطه لتوحيد المنظمات الأفغانية . وفي ظني أن هذا الإد
عاء صحيح ولكن بصورة تختلف قليلا عما يصوره الإخوان .ونتيجة للاحظاتي لنشاط الإخوان على
الساحة السياسية الأفغانية فقد لاحظت ارتباطا مدهشا بينهم وبين الجهودات السياسية لحكومة
المملكة السعودية .حتى أن وفودا مشتركة قد تكونت من الجانبين لأغرض الوساطة وتقريب وجهات
النظر والوحدة بين المنظمات الأفغانية . وكان الطرفان – السعودي والإخوان – يضغط بثقل
بالغ لصالح سياف وتقويته وتأكيد دوره .
وكما علمت من مصادر عربية مطلعة ، أن سياف قد تم تعيينه من جانب التنظيم الدولي للإخو
ان .. مسؤولا عن الفرع الأفغاني في التنظيم ، وهو منصب كان ينافسه عليه كل من برهان الد
ين رباني وغريمه حكمتيار . فربانى أقدم تنظيما وأكبر سنا ، وحكمتيار أكثر حيوية وأدق
تنظيما وأشد بريقا في أوساط الشباب المسلم . وقد أثمر التعامر السعودي الإخواني في جعل س
ياف هو الشخصية الأولى في أوساط الشباب الإسلامي على مستوى العالم .وانعكس ذلك ماديا ومعنو
يا وسياسيا على
سياف وتنظيمه الذي ما كان له أن يستمر بغير ذلك الدعم خاصة في وجه غريميه الأصوليين برها
ن وحكمتيار .
وفي ظني أن سياف كان أكبر انحرافا في المسيرة الجهادية الأفغانية وأن الدعم السعودي الإخواني
قد أكسبه شرعية وشعبية أثرت في الشباب العربي بل والتواجد العربي كله وفي تفكير ذلك الت
يار ومشاريعه ونشاطاته التي كانت في معظمها في غير وجهتها الصحيحة .
لقد بني النشاط العربي على
أساس خاطئ مبني على تقييم مضلل تماما حول زعامة سياف وباقي زعامات الأصوليين . ومضلل فيـ
ما يتعلق بدور تلك الزعامات وتأثيرها الحقيقي على حركة الجهاد .
أما ملاحظة جماعة يونس خالص حول موسمية الوساطات العربية ودعوتهم لتكوين لجنة إسلامية لمتا
بعة الأوضاع وبذل المساعي كان اقتراحا معقولا ، وربما أنه كان المخرج الحقيقي لحالة الضياع
الأفغانية والعربية لو نفذ هذا الإقتراح بمجموعة من المخلصين – أصحاب الحل والعقد – في العمل
الإسلامي .
ولكن لم تكن هناك نظرة جدية تجاه القضية الأفغانية ، ولم ير فيها الإخوان سوى
فرصة جديدة لتحقيق مكاسب آنية بارتباطهم مع السياسة السعودية ، والإشتراك من خلالها في
قضية ذات طابع دولي ، تحت قيادة أمريكا . وكان ذلك الإشتراك سوف يرفع – في ظنهم – أسهمهم
لدى أمريكا صاحب الأمر والنهي في مصر والمنطقة العربية . وبالتالي فإن موقف الإخوان التـ
نافس على
السلطة عن خلال العمل الديموقراطي سوف يتعزز كثيرا بل قد يصبحون قوة بديلة مناسبة للنظ
ام الفاسد المهترئ في مصر ، وبديلا معقولا عن تيارات أخرى متشددة ومعادية بعنف لأمريكا وم
صالحها ومشاريعها – خاصة المشروع الإسرائيلي – .
إذن الساحة الأفغانية كانت بالنسبة للإخوان تعزيزا لمسيرتهم الديموقراطية نحو السلطة في مصر
– وربما في بلدان أخرى عربية – عبر التفاهم مع أمريكا القوة المسيطرة على
مجريات الأحداث والمصائر في المنطقة العربية .
7 كان موقف المجاهدين ممتازا ... بالفعل كان تقدم قد حدث رغم أن سلبيات عديدة بدأت تـ
ظهر – كما سيرد ذكر بعضها في الرسائل التالية – ولم أكن أعلم وقتها أن القضية قد تم تدو
يلها وأن أمريكا قد قررت مساعدة الأفغان عسكريا واعتبار أن أفغانستان ساحة حرب بالوكـ
الة . كان الأفغان على جميع المستويات حريصين على عدم كشف مقدار المساعدات التي تصلهم وأخـ
فاء التي تقدم بها . بل على العكس كانوا حريصين دائما على
إفهامنا دوما أنه لا أحد يساعد وأننا – أقصد أي مستمع لهم – هو الوحيد الذي يساعد بأخـ
لاص .
كانت تلك السياسة مفيدة لهم على المستوى الشخصي . ولكنها كانت ضارة جدا بقضيتهم . وعند

د الأفغان الإعتبار الشخصي يأتي أولا يليه الإعتبار القبلي ، والإعتبارات الدينية في غالب الأحيان تأتي بعد ذلك . أما الوطن فهو مفهوم غامض لدى الأفغان وليس له اعتبار كبير

حتى أن النظام الشيوعي في آخر عهده حاول اللعب بهذه الورقة وكان فشله ساحقا .

ومن المؤكد أن أداء الجيش الأحمر في أفغانستان كشف عن أوجه قصور رهيبة . وهو ما اكتشفه عدد من كبار القادة الميدانيين من أمثال جلال الدين حقاني . وفي كتاب لمسؤول في الإستخبارات الباكستانية كان مختصا بالنشاط العسكري للأفغان ، قال بأن السوفييت كان يمكن هزيمتهم في أفغانستان عام 1983م . ولم تكن غير الأعين الخبيرة تدرك تلك الحقيقة ، وقد أسرد لاحقا عدة أحداث عسكرية تثبت تلك النظرة – فقط في ولاية واحدة هي ولاية باكتيا .

وما كان لأمريكا أن تغامر بالمراهنة على ورقة خاسرة – وعلى سبيل الإحتياط فقط أبقوا أمر تدخلها في أفغانستان سرا حتى عام 1986م – وكان سرا مشهورا ولكنهم رغم ذلك لم يعترفوا به رسميا إلا في ذلك التاريخ .

وتاريخ أمريكا العسكري يثبت أنها تظل بعيدة عن مسارح الحرب الدائرة حتى

أ – ينهك جميع الأطراف .

ب – ينجلي الموقف عن تفوق نسبي لصالح أحدهما .

جـ – تتدخل بثقلها كله لصالح الطرف ذو التفوق النسبي .

د – يتسبب الثقل الأمريكي في اختلال فادح في الموازين وينتصر الطرف الحليف لها .

هـ – تقوم أمريكا بجني جميع ثمار النصر لصالحها . ولا تترك لحلفائها إلا أقل الفتات .

و – تكون النتيجة النهائية هي انتصار أمريكا وحدها وهزيمة الطرفين الأساسيين في الحرب .

حدث ذلك السيناريو في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كما حدث تحت أنوفنا في أفغانستان ، وحرب تحرير الكويت .

إن أي لاعب ماهر لا بد أن يرتكب أخطاء . وأي خطة محكمة لا بد فيها من ثغرات . وأظن أنه في حالة أفغانستان وحرب تحرير الكويت كانت هناك ثغرات كثيرة قاتلة للمغامرات الأمريكية فيهما .

والتاريخ مليئ بالشواهد التي تثبت أن الكثير من الإنتصارات الباهرة لم تكن كذلك إلا على المدى القصير ، أما بمرور الزمن فيتضح أنها كانت مقدمة لهزائم ماحقة . وأرجو أن تكون أفغانستان والخليج نهاية حقيقية لأمريكا كقوة عظمى ، بل الغرب وحضارته الوثنية التوراتية

... وإن غدا لناظره قريب .

8 هو نجيب الله لفراني شاب جامعي نشط من الجمعية الإسلامية بقيادة رباني ، قابلته وتحدثت مطولا معه حول مشاريع الدمة بين الحزب والجمعية بقيادة سياف ، وكنت يومها متحمسا لتلك المشروع . وكان بدوره متقبلا للغاية . وكان في طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية في بعثة دراسية طويلة . وقد أتم بعثته فعلا وهو الآن يتولى منصبا وزاريا هاما في حكومة رباني في كابل . وهي حكومة معادية تماما للتواجد العربي في أفغانستان . وتبذل جهودها في إنهاء فك الحصار البري عن المدينة ، وكان الروس من جهتهم غير مصرين على ذلك تفاديا للتصعيد كما ذكرنا . خاصة وأنهم من خلال الصدامات الأولية المبكرة بينهم وبين مجاهدي باكتيا علموا أن القتال في هذه المنطقة سوف يكون شديد الوطأة ومكلفا في الأرواح والعتاد . لهذا التزموا جانب الحذر .

9 ... يبدوا أن السوفييت حرصوا على عدم تصعيد الموقف على الحدود مع باكستان ، سعيا لإنهاء مهمتهم في أقل قدر من التوتر الإقليمي لهذا تجنبوا حدوث صدامات كبيرة مع كراكز المجاهدين القوية على الحدود مع باكستان ، وبالذات في محافظة باكتيا ذات الأهمية الإستراتيجية الفائقة .لذا بقيت خوست محاصرة ، وأحبط جلال الدين حقاني ، والقوات المتحالفة معه ، أحبطوا محاولات الروس فك الحصار البري عن المدينة ، وكان الروس من جهتهم غير مصرين على ذلك تفاديا للتصعيد كما ذكرنا . خاصة وأنهم من خلال الصدامات الأولية المبكرة بينهم وبين مجاهدي باكتيا علموا أن القتال في هذه المنطقة سوف يكون شديد الوطأة ومكلفا في الأرواح والعتاد . لهذا التزموا جانب الحذر .

10 حزب الخيانة الصريحة ... واضح من العداء الذي تحمله العبارة ، بأن الصورة الحقيقية لدور أحزاب بيشاور لم تكن قد اتضحت بعد ، فالأمر لم يكن سوى توزيع أدوار ليس إلا ، و أن القطبع القيادي كله كان يسير في موكب الخيانة منذ البداية . إنها نفس المسرحية التي شاهدناها في البلاد العربية على مستوى الأنظمة . فبعد عدة عقود ظهر لنا أن الثوري و الرجعي كلاهما يعمل ضمن مخطط واحد وإن كانت الأدوار فيه مختلفة . ذلك المخطط أوصلنا لما نشاهده حاليا – وقت كتابة هذه الوريقات – من استسلام المنطقة العربية بالكامل تقريبا لزعامة يهود إسرائيل ثم تحالف الأنظمة العربية مع إسرائيل في مطاردة الإسلاميين ومحاربة الإسلام في المنطقة العربية مهد الإسلام وقلبه .

إن التكتيكات الصليبية – اليهودية في السيطرة على الحركات العلمانية العربية ، تمارس كلها الآن داخل العمل الإسلامي . ولنتأمل مسيرة منظمة التحرير وزعيمها عرفات ، وكيف انتهى بها الأمر أكثر من ربع قرن أن عرفات ليس إلا نبتة إسرائيلية والمنظمة لم تكن سوى وعاء لنتاج بعد أكثر من ربع قرن مر اليهودي .

وحسب ما أفهمه – بعد كل تلك السنوات – وتجربة الإحتكاك القريب بالتجربة الأفغانية ، أن المنظمات الأفغانية لم تكن سوى صناعة صليبية لخدمة أغراض دول الصليب الكبرى في تلك المنطقة

ة الإسلامية وأن القادة الأفغان الناشطين لم يكن فيهم من هو أفضل من عرفات . والخطورة هنا
كما أشرنا وسوف نسير مرارا خطورة سيطرة الصليبية على العمل الجهادي ، والنفاذ إليه ع
بر قيادات وتنظيمات تكون وبالا على الإسلام والمسلمين بدلا من إقامة شرع الله وقهر الكفر وص
ولا إلى جعل الدين كله لله .
ليس هذا مدخلا للتشكيك أو اليأس بقدر ما هو دعوة لاتخاذ مقاييس موضوعية ومعايير شرعية و
اقعية ، وإجراء مراقبة إسلامية شاملة على التنظيمات وزعاماتها حتى
لا يستولي عليها العدو من الداخل .
وحسب ما نرى — والله أعلم — أنه لا مخرج للمسلمين من الهاوية التي سقطوا فيها إلا بالجهاد ،
وما لم تكن الحركة الجهادية إسلامية خالصة فإنها لن تؤدي الغرض منها . إن لم تتحول إلى تدم
ير داخلي للمسلمين إذا ما سيطر عليها العدو كما حدث في أفغانستان .
أما المحور الصليبي الذي تتزعمه أمريكا ويضم كلا من باكستان ومصر فقد برز بعد دورة السا
دات إلى دعم الأفغان واتخذ عدة خطوات مثل تكوين جامعة الدول الإسلامية التي تضم مصر وأفغا
نستان والسودان وكانت محاولة من السادات للخروج من عزلته الشعبية عربيا وإسلاميا أيضا
. وكان السادات أول من استخدم القضية الأفغانية وشعاراتها الإسلامية لتغطية خطواته نح
و اليهود .
ونجح السادات في استقدام وفد من قيادات المجاهدين في تظاهرة إعلامية وقد شارك من القادة ج
يلاني ومجددي ومحمدي وقد تورط خالص في هذا الوفد أيضا . وكان السادات أول من فضح تورط ا
لمخابرات الأمريكية في القضية الأفغانية عندما كشف عن صفقة أسلحة مقدارها خمسة ملايين دولار
لصالح المجاهدين الأفغان من خلال الإستخبارات الأمريكية . وفي تقديري أن أمريكا لم تكن سعيد
ة بهذا الإفتضاح المبكر لتورطها . المهم أن ادور المصري تراجع بعد ذلك عدة خطوات إلى الخلف
مكتفيا بصفقات الأسلحة على النمط الذي فضحه السادات ، ولكن المملكة العربية السعودية
تقدمت لتأخذ محل الصدارة من بين كل الحكومات العربية حتى صارت أحد ركيزتين رئيسيتين تتحر
ك بهما أمريكا فوق الساحة الأفغانية واحدة هي القدم الباكستانية والأخرى هي القدم السعو
ودية . وعلى كل حال فإن ظهور مصر تحت الأضواء في الساحة الأفغانية وهو ما كان يشكل خطرا ق
لأوراق ويكشف زيف التوجه الإسلامي للمنظمات والقيادات الأفغانية وهو ما كان يشكل خطرا ق
انما على كل المخطط الأمريكي الذي قام على
فلسفة مفادها ضرب الشيوعية في أفغانستان وآسيا بالإسلام وحركته التي بدأت تنمو وتنحت عن
مكان لها تحت الشمس .
وليس سرا أن الإنفاق الرئيسي على الحرب الأفغانية قد تم — بأوامر أمريكية — من الخزانة
السعودية . هذا عن الميزانية الرسمية لهذا التدخل وأشرفت باكستان على
تنفذها ميدانيا — وهذه المهمة الأساسة لجهاز الإستخبارات الباكستاني الـ ISI الذي أنشأه
ضياء الحق في عام 1979م بهدف أساسي هو الإشراف على المشكلة الأفغانية وتطورها والتحكم في
تأثيراتها على الأمن القومي الباكستاني . وبالطبع سلامة نظام ضياء الحق من أن يتأثر بتلك
المشكلة الخطيرة .
ونضيف أيضا أن الظهور العلني لمصر مان سيثير شكوكا عند جمهور المسلمين حول تورط أمريكي إس
رائيلي ، نظرا لسقوط مصر تحت الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية . وفي الواقع فإن إسرائيل كا
ن لها تواجد مبكر فوق ساحة بيشاور ، وبمعرفة القادة الناشطين في الأحزاب الأفغانية ، وقد
تكشفت بعض أوراق هذا التواجد في مناسبات مختلفة عام 1991م في باكستان . تذكرت يومها الـ
تحذير الذي حذرناه سياف في عام 1980م أثناء زيارته الأولى لدول الخليج ، وهي التحذيرات ا
لتي أوردناها سابقا ، وقد قام سياف بتنفيذ عكس جميع تلك التحذيرات وكان واحدا من الذين
ن تعاملوا بوضوح مع اخبراء الإسرائيليين وكذلك فعل غريمه حكمتيار وبشكل أعمق . وسنعود
في أماكن أخرى إلى مسألة النشاط الإسرائيلي داخل المنظمات البيشاورية .
10 الروس في مأزق حقيقي ولكن ما البديل ؟ . ومن يحكم أفغنستان ؟ .
تعجبت كثيرا وأنا أعيد قراءة هذه الفقرة بعد أكثر من ثلاثة عشر عاما من كتابتها . وجع
العجب هو إدراك تلك الحقيقة الخطيرة منذ ذلك الوقت المبكر . وأظن ذلك كان من بركات الج
هاد . وكم من الأشياء أدركناها وفهمناها بفضل ذلك الجهاد المبارك . وقد أخبرني أحد الشخ
صيات الجهادية البارزة في مصر بأن ما تعلمناه وفهمناه في بضع سنوات من الجهاد في أفغانس
تان ، ما كان لنا أن نحصله في مائة عام إذا بقينا في أماكننا ولم نخضر إلى هنا .
وكما ذكرت سابقا بأن الأعين الخبيرة لم يكن يفوتها أو الروس وقعوا في ورطة لا مخرج منها ، ول
كن هؤلاء الخبراء — من طواغيت العالم — كان يرعبهم أكثر أن يكون البديل هو الإسلام الذي
يصل إلى حكم تلك القلعة الإسلامية في سقف العالم أفغانستان عبر حرب جهادية مظفرة ضد قوة
عالمية عظمى . ويدهش بعض إخواننا إذا ذكرت لهم أن سبب هذا الذعر هو أن أمريكا واليهو
د رأوا نهايتهم أمام أعينهم في أفغانستان . إن الجيش الروسي — بحكم الخبراء — هو أقوى بريـ
ا من أي جيش آخر في العالم ، والجندي الروسي أكثر صلابة بما لا يقارن بالجندي الأمريكي أو ا
لأوروبي ولا داعي لذكر الجندي اليهودي ويكفي أنه يهودي . إن أمريكا وإسرائيل قاتلا ضد
المجاهدين الأفغان والعرب في أفغانستان من أجل هزيمتهم أو على
الأقل منعهم من تحقيق هدفهم بإقامة حكم إسلامي في أفغانستان .

لقد استخدمت أمريكا وإسرائيل القادة السياسيين الأفغان ومنظماتهم البيشاورية بانضبط كم
ا استخدمت الحكومات العربية وأجهزة الأمن والدفاع العربية في مقاومة الإسلام والحركة الإسلا
مية ومنعها من النمو أو النجاح في تحقيق أهدافها .
لم يكن غريبا الحرب ضد الإسلام التي شنتها أمريكا وإسرائيل ضد الجهاد الإسلامي في أفغانستان
، مستخدمين حكومات مثل حكومات باكستان والسعودية ومصر ، ولكن الغريب هو استخدام المنظ
مات الجهادية البيشاورية وقياداتها ، وهذه النقطة ما زالت خارج إدراكات أغلبية المسلمين
– والشباب المجاهد – في وقتنا الراهن بل موضع استهجان واستنكار أكثرهم . وأرجو عندما
يصل هذا الكتاب في أيدي المهتمين من الحركة الإسلامية أن تكون تلك النقطة واضحة في أذهانهم
– ومعقولة – ليس سعيا لإدانة أناس بأعينهم بقدر ما هم محاولة لسد ثغرة استخدمها العدو
ضدنا – عدة مرات – وينبغي علينا ألا نسمح له بالمزيد .
وكما قلنا فإن السلاح الوحيد الباقي في أيدينا وعليه المعول في تمكين شرع الله والدفاع عن د
ينه في الأرض هو الجهاد . وهو سلاح لا ينبغي بأي حال أن نجعل عدونا يسيطر عليه ويستخدمه ضد
نا بواسطة عملائه ومنظماتهم التي هي أشبه بمساجد الضرار .
11 من الأخطاء الأساسية التي لازمتني طول فترة الجهاد هي أن الشعب الأفغاني في نهاية الأمر س
وف يلفظ قادة المنظمات ومناطماتهم ويفرض شرع الله بواسطة مجاهديه المخلصين وقياداته من الع
لماء المجاهدين . وكنت أتصور أن القادة الخونة لن يجرؤا على دخول أفغانستان بعد الفتح ، و
ربما أن هذا التصور الخاطئ أمدني بكثير من الصبر على الإستمرار . ولكن الذي وقع كان عكس
هذا التصور المتفائل . فقد كانت القوى المخلصة قليلة ومبعثرة ، ولم يكن أثقل على النفس
من رؤية المشاهد المهزيلة التي صاحبت فتح كابل . فالزعيم حكمتيار طار إليها بمصاحبة ق
ادة حزب خلق الشيوعي من الباشتون وهم جنرالات كبار في وزارة الداخلية وأمن الدولة . أ
ما القائد الميداني مسعود – وكنت أحسن الظن به نسبيا إلى ذلك الوقت – فقد حملته وقواته
طائرات الميليشيات الأوزبكية المسماة جلم جم التي أذاقت الشعب الأفغاني الأمرين في قتاله
م الشرس ضد المجاهدين . واكتملت المهزلة بتحرك موكب ضخم من السيارات الفخمة التي تقل أعض
اء الحكومة الجديدة التي شكلها سياف تحت توجيه مباشر من الأمير تركي بن عبد العزيز رئيس ا
لإستخبارات السعودية والذي يعمل تحت إمرة الإستخبارات الأمريكية ضمن فريق عمل –
سنتحدث عنه فيما بعد – يضم ممثلي الإستخبارات الباكستانية والإسرائيلية والمصرية في آخر
الأمر .
إن المأساة التي عاصرناها في ذلك الوقت هي ملهاة مأساوية من الطراز الأول . لقد دخل مجد
دي كابل كرئيس للدولة في حكومة يرأسها سياف و باقي الكراسي موزعة بين الذين لم يشاركو
ا في إطلاق رصاصة واحدة طوال أربعة عشر عاما – باستثناء مسعود وزير الدفاع – مع مزيد
أو اثنين من الوزراء الذي لا وزن لهم في الدولة . والغريب أن القادة الذين كانوا ملتصقين
في بيشاور طوال مدة الحرب أقاموا في أفغانستان بصفة مستمرة للإشراف على مسيرة الحرب الأهل
ية في كابل .فلم يكن سياف أو برهان الدين أو حكمتيار يعرفون طريق الجبهة إلا في زيارات
استعراضية للمتاجرة الإعلامية ، ولم يمارسوا ولو لشهر واحد دور القيادة الجهادية الحقيقية
داخل الميدان . ولكنه منذ فتح كابل وحتى الآن – أي ثلاثين شهرا تقريبا – يقيمون بصفة شبه
مستمرة يديرون فتنة هوجاء وبأوامر من أسيادهم القدماء أمريكا ، باكستان ، السعود
ية .
129 طلب خالص وجماعته من الأستاذ السنانيري أن يقيم وفد دائم من الإخوان في بيشاور لمتاب
عة مراقبة الوضع بشكل مستمر . وفي الحقيقة فإن الإخوان يتحملون جزءا كبيرا من مسؤولية
الإنهيار الأفغاني وفشل تجربتهم الجهادية ، والإضرار بالجهود التطوعي العربي من نواحيه ال
عسكرية و التنظيمية .
لقد ابتكر الإخوان نظرية – الجهاد بأمر الحكومات فقط –
وهكذا فعلوا في عام 1948م ثم في حرب القناة عام 1950م . وفي الجهاد الأفغاني الذي طبلوا
له بأعلى ما يمكنون ، أحجموا عن التصدي لتبعاته الحقيقية واكتفوا بالمظهريات –
أعمال إغاثة وجمع تبرعات مع تواجد شكلي من عناصر إخوانيج متمردة – .
إن تواجدا إخوانيا قويا في أفغانستان – كان في تقديري –
كافيا لإحداث انقلاب إسلامي عالمي . فلو تصورنا أن تلك الجهودات العربية قد احتواها ونظم
ها وعاء إسلامي واحد ذو خبرة ، إذن لاتعدمت إلى حد كبير ظواهر الفوضى والتطاحن والعشوائية
وإهدار الأموال والدماء ، ولكانت أكثر فعالية في الميدان ، ولأثرت بلا شك في المسيرة السيد
اسية للقضية ولكانت خسائرنا أقل على المستوى الإسلامي . ولا ننسى أن طبيعة الشعب الأفغاني
كانت سوف تساعد في تبني هذا التيار والتأثر به وإفراز قيادات دينية مخلصة موازية وموا
كبة لذلك الزخم العربي .
كان ذلك أحد أحلامنا التي كانت غير واقعية بالمرة وقد ورطنا ذلك في متاعب ما زالت مستمرة
حتى الآن .
13 كانت الرؤية مختلفة تماما بين بيشاور وخطوط القتال داخل أفغانستان . وكان الإخوان
والعرب عامة ، يكونون آراء نهائية عن أوضاع أفغانستان من خلال مقابلاتهم في بيشاور مع قا
دة الأحزاب الجهادية وكبار المسؤولين فيها . وكما سنلاحظ في تقارير تالية بأن ذلك كان م

صدرا خلافات شديدة ناتجة من اختلاف الرؤية بيننا وبينهم .
وحتى عندما بدأ العرب يتوافدون إلى داخل أفغانستان شاب ذلك أوجه تقصير خطيرة منها أنهم كـ
انوا شباب صغيرا عديمي التجربة أيضا أنهم كانوا يدخلون إلى أفغانستان بقناعات جامزة غير
قابلة للتبديل ، وتكون رحلتهم إلى الداخل هي لمجرد البحث عن شواهد تؤكد وجهة النظر تلك
. وغالبا ما تكون عقولهم قد تم برمجتها في بيشاور على أيدي ذلك القائد الأصولي أو ذاك
وكان لسياف الغلبة الكاسحة في نشر وجهات نظره وبرمجة عقول الشباب نظرا للمزايا التي يـ
تمتع بها والتي ذكرناها في مواضع سابقة . وفي ذلك الوقت المبكر كانت الصورة كما ذكرتها الر
سالة قلة ضعيفة مخلصة ، وكثرة من المنافقين والخونة . ولم يكن مضى على برنامج تدويل الـ
قضية سوى عام واحد أو أقل . ولنا أن نتصور الصورة بعد ذلك في عام 1992م وهو عام الفتـ
ح وكم كانت النسبة بين المخلصين والمنافقين . لقد كانت نسبة مفزعة حتى أن أكثر ما أدهشني هـ
و عفو الله ولطفه الذي نصر المسلمين على ما هم فيه من المعصية بل أن أكثرهم خان الله ورسوـ
ه .
14 ... في جردبز لا تطلق رصاصة إلا من جانب جماعة الشيخ جلال الدين حقاني وباقي الجماعا
ت تتفرج رغم أنها تمتلك أسلحة ثقيلة وذخائرها بأعداد كبيرة . هذه الجملة تصلح للإستخدام
بدون تغييرات كبيرة أثناء معركة فتح خوست في مارس 1991م . وسيأتي ذكرها تفصيلا بإذن الله
. وهذا المشهد كان هو الغالب في معظم الجبهات الأفغانية – باستثناء حالات قليلة ومشرفة –
ولكن القاعدة هي القتال المنفرد مع سلبية باقي الأطراف الجهادية بسبب الخلافات الداخلية
– سواء حزبية أو شخصية – .
غياب التنسيق بين المجاهدين داخل الجبهة الواحدة كان عاملا مساعدا للشيوعيين والسوفييت
وأطال أمد بقائهم وأنجح العديد من حملاتهم العسكرية ، ومنهم من ضربات قاتلة كانت كفيلة
بإنهاء الحرل خلال فترة أقصر بكثير مما حدث فعلا ، وسبق أن ذكرنا رأي ضابط الإستخبارات البا
كستانية محمد يوسف في كتابه فخ الدب بأن الحرب الأفغانية كان يمكن أن تنتهي عام 1983م
بانتصار المجاهدين .
إن طبيعة المجتمع الأفغاني ساعدت على هذا التفكك ولكن النشاط التدميري للمنظمات –
طبقا لسياسة أمريكية – كانت وراء تنشيط هذه الظاهرة السلبية وتفاقمها .
ولا داعي للذكر بأنه مع غياب التنسيق داخل الجبهة الواحدة لا يمكننا أن نتوقع تعاونا
أو تنسيقا بين عدة جبهات . ولا يخفى الآثار الهائلة لمثل هذا التنسيق في حال حدوثه . وعكس
ذلك شاهدناه ، أي أن المجاهدين في حال انتصارهم في جبهة عمليات معينة ، فإن حالة خيانة
تحدث في جبهة مجاورة بحيث تسمح بمرور تعزيزات العدو بسلام لإنقاذ قواته أو استرجاع ما فقدون
من مواقع .
وتفكك الجبهة الواحدة ساعد استخبارات العدو على اختراق جميع التنظيمات والحصول على أدق
التفاصيل عن الأحوال داخل صفوف المجاهدين . لذا فقد كانت الإستخبارات وليست قوات الجيش هـ
ي الذراع الحقيقية للنظام الشيوعي ، وقد أحرزت الإستخبارات أعظم الإنتصارات ولم تكن الإنـ
تصارات العسكرية للعدو بنفس مستوى نجاحاته التجسسية .
15 ... حضرت هذه المساومة حول هذه الصفقة ولم أصدق نفسي .وكانت صدمة لمشاعري المثالية
آنذاك ، خاصة وقد كنت منفعلا ببرنامة القصف المدفعي حيث كان هو الفقرة الأساسية في العمـ
ليات وقتها .
16 ... إيران –
ليبيا – حركة الإخوان المسلمين ثلاثة أطراف بينها من التناقض ما ليس يخفى . ولكن بواط
ن السياسة تخفي دائما ما يتعارض مع سطحها الخارجي . غلب الدين ، وبرهان الدين أيضا رغ
م كونها نتة واحدة انقسمت إلى شطرين ، فبينهما من التجانس والتشابه بقدر ما يبدو على
السطح من تنافر وتعارض . فالإثنان فكريا وتنظيميا من حركة الإخوان . وارتبط كلاهما برو
ابط جيدة – في بداية الجهاد – مع نظام الثورة الإسلامية في إيران ونظام معمر القذافي في لـ
يبيا . وقبل فتح كابل بفترة ليست طويلة حضر الزعيمان مؤتمرا في ليبيا وصليا خلف القذ
افي الذي أجمعت أكثر المصادر الإسلامية المعتبرة على
كفره .وتسبب لهما ذلك في إحراج كبير مع الجالية العربية المجاهدة والمقيمة في باكستان –
بيشاور – .وفي فترة لاحقة اهتزت علاقة حكمتيار مع طهران نتيجة تضعوط السعودية ودول الخليـ
ج . وأذاعت طهران أن عناصرا من جماعة حكمتيار قد تورطت في نشاطات معادية لإيران يهدف الـ
تخريب الداخلي . ولحق خالص بحكمتيار في عدائه المفتوح مع إيران نتيجة لحادث تسرب صواريخ س
تنجر من جماعة خالص في هيرات إلى أيدي الحرس الثوري الإيراني .
17 ... المعسكر الإسلامي في أفغانستان لتدريب العرب والمشاركة القتالية كان أحد الأحلا
م التي لم تستطع مجموعتها تحقيقها ، لاختلاف وجهات النظر وتفاوت الإستعداد وكثرة المشاكل الـ
تي لا تجد حلولا واضحة . فذبلت الفكرة تدريجيا فيما بين المجموعة ، وظللت أتابعها طوال مدة
الحرب ولم تتحقق الفكرة بالشكل الذي كنت أتخيله . ولكن أشياء أخرى تحققت شاركت في أقل ا
لقليل منها . ولذلك حديث مستقل .
أما ما وجدته في جردبز وقتها فقد داعب أحلام فكرتي الأولى ولكنه لم يكن متطابقا تماما . و
إن كان باكورة فعلية للتواجد الإسلامي القتالي على

أرض أفغانستان . وكان مكونا من شباب باكستاني وهذا أمر منطقي من ناحية جغرافية .

الرحلة الثانية

جلست مع قاري سيبإمام مسجد المهاجرين في ميرانشاه ، تعبا لأني جئت منفردا هذا العام ، و سألني بشوق عن زملائي أحمد وإسماعيل . وقص علي أخبار المجاهدين خاصة أخبار مولوي جلال الدين حقاني في جرديز وسرد بعض أسماء الشهداء من بين هؤلاء الذين قابلتهم في العام الأول . كما ان الرجل ضريرا عذب الصوت يدرس أصغال المهاجرين علوم القرآن . ولما كان جميع من أعرفهم قد توجهوا إلى جبهات القتال ، فلم يكن هناك به من أن أكون ضيفه حتى نرتب أمر الرحيل إلى الجبهة .

تطوع برافقني إلى جرديز شابان من طلاب العلم المجاهدين . الأول هو حنيف شاه والآخر سيف الرحمن . وكلاهما مازال حيا يرزق وهذا بانطبع شيء نادر . الأول تحول بعد عدة سنوات واحدا من قادة المجموعات البارزين والثاني عمل سنوات طويلة في شراء الذخائر والأسلحة والطعام للمجاهدين تحت إمرة جلال الدين حقاني .

ما أن عبرنا الحدود وشرعنا المسير في الجبال حتى اكتشفت أني مصاب بنزلة برد شديدة لم أكن قادرا على المسير، ولا قادرا على الأكل ، وأجلس للراحة على فترات متقاربة حتى ظننت أنها الرحلة الأخيرة . وأني لن أصل أبدا إلى سرانا حيث حقاني ورجاله .

كان ذلك نتيجة غير متوقعة للكرم الزائد الذي حباني به قاري سيب ، فقد أخفى بسرير وضعه لي خارج المسجد ، واستعار من أجلي مروحة ضخمة سلطها فوق رأسي طوال الليل ، فالجو كان صيفا والبعوض كثير ولم يدخر – جزاه الله خيرا – وسعا في توفير وسائل الراحة لي . ولكن النتيجة كانت مؤسفة عندما حانت ساعة الجد وبدأت الرحلة الشاقة .

اضطررنا في رحلتنا البطيئة أن نمر بعدد كبير من مراكز المجاهدين ، ونتلكأ أكثر في دكاكين الطريق التي تقدم خدماتها للمسافرين ، من طعام وشراب ومبيت وتسمى عندهم سماوات . وهو اسم عجيب حقا . كان ذلك البطء المميل في المسير مزعجا بالنسبة للشابين المرافقين لي . ولكنه أفادني من جهة أخرى إذ تعرفت بشكل أفضل على أحوال القرى والمجاهدين ، والمعنويات العامة ، وتعرفت على شخصيات ممتازة وأهمها القائد شاكرين وهو ابن عم مرافقي حنيف شاه . وكان شاكرين شابا حاد الملامح مبتسما دائما نحيفا طويل القامة قوي البنية نشطا لين المعاملة . كان من قبيلة تاناي أو ثاني – والشهير – وهي قبيلة غير محبوبة من جيرانها . ورغم صغر حجمها نسبيا إلا أنها مصدر متاعب كثيرة للجميع ، وكانت في معظمها متعاطفة مع التيوعيين من أبنائها ، وهكذا تسببت في مشاكل كثيرة للمجاهدين .ومع ذلك فقد خرج من تاناي مجموعة نادرة من القادة والمجاهدين من أمثال شاكرين وابن عمه حنيف شاه . كانت معرفتي بشاكرين قصيرة جدا فبعد لقائي هذا معه ، قابلته مرة أخرى أثناء معركة ليجا في خوست أيضا عام 1986م وقد استشهد يرحمه الله في نفس العام .

لقد استشهد شاكرين بإصابة مباشرة من قذيفة دبابة ، وتولى حنيف شاه قيادة المجموعة ، وشن فورا هجوما – وبالأحرى كمينا – كاسحا ضد طابور عسكري حكومي في واحدة من أنجح وأجرأ كمائن المنطقة ، فقد تم في وسط مناطق العدو وبين مواقعه العسكرية . ونجح حنيف شاه في اصطحاب غنائمه من الكمين بما في ذلك سيارات ومصفحات عدا الأسلحة والأموال .

قضينا ليلتنا الأولى في مركز شاكرين ، وكان في أحد الوديان الضيقة المتفرعة من وادي خوست في أقصى الشرق ، وهي منطقة قبائل تاناي . في الصباح الباكر كان رجال شاكرين في اشتباك مع العدو على مسافة بعيدة عن المركز ولكننا سمعنا بوضوح قصف المدفعية الثقيلة للعدو .

ومع ذلك تفرغ شاكرين لضيافتنا وتوديعنا وأرسل بعض رجاله لحراستنا عند عبور الوادي في اتجاه الجبال على الجانب الآخر .

كان من السهل ملاحظة حالة انتعاش عام بالمقارنة مع الصورة السابقة عام 1979م . كان عدد المجاهدين أكثر ومعنوياتهم أعلى ، والقرى مازالت عامرة رغم عمليات الهجرة التي تمت ، ويبدو أنها كانت هجرة انتقائية – أو بقاء انتقائيا – بمعنى أن الذي هاجر كان من الفئات الضعيفة التي لا تتحمل الحياة في ظل حالة الحرب . وبقت عناصر قوية قادرة على العمل والقتال معا .

مضى يومان ومازلنا في منتصف الطريق بين الجبال الشاهقة ، وفي أحد السماوات تمددت كمن يتهيأ للانتقال إلى السماوات العلى . لم أكد أتذوق طعاما منذ غادرنا ميرانشاه . وانتهاب الحلق جعلني أشرب الماء بلا حساب حتى أنهكني الضعف . سيف الرحمن الفتى الرقيق أحضر لي قليلا من التوت – لا أدري من أين حصل عليه – ودفعه لي وأنا في شبه غيبوبة . ولما علمت أنه توت انتابني شيء من النشاط والتهمته بال

سرعة الممكنة ، وطلبت المزيد ، واستبشر الفتيان وأحضرا كمية أخرى . وتحسنت أحوالي قليلا
وزاد من نشاطي ما أخبراني به أننا على وشك النزول إلى
الطريق العام المؤدي إلى جرديز ومن هناك سنركب شاحنة إلى مكان قريب من سرانا . أدهشني
لنبأ ودفعني الفضول إلى الحركة وأنساني آلام المرض .
الشاحنة الضخمة تقف إلى جانب الطريق وتحت الجبل مغطاة بعناية خوفا من الطيران . المسافرو
ن تحت الأشجار وإلى جانب المخور في انتظار موعد الإقلاع – أقصد الحركة –
وكان عند اصفرار الشمس تفاديا للطيران كما يحدث تماما في العمليات العسكرية . كنت أتوقع
أن تحملنا الشاحنة الضخمة – وهو ما حدث فعلا – ولكن لم أتوقع أن أحمل كميات من المتاع و
من الإخوة المسافرين فوق رأسي وقدمي وصدري ، وكل ما تيسر من جسمي حسب ما تتيحه ظروف ا
لطريق .
وتكونها التجربة الأولى
من نوعها فقد أنستني الدهشة سلبيات الرحلة ، وقد رأيت في السنوات اللاحقة رحلات آلية
أسوأ من تلك بكثير ، ويمكنني الآن أن أقول بأنها كانت رحلة درجة أولى رغم أن ذلك لم يكن را
جي وقتها .
تقابلت مع الشيخ جلال الدين في سرانا وكان قد مضى
عام تقريبا منذ آخر لقاء لنا وكان في أبو ظبي أثناء زيارته مع الوفد الذي ترأسه سياف
. كان أهم ما يشغلني موضوعان الأول ما هو الوضع العسكري الآن ؟ وكيف استطاعوا الصمود
حتى الآن ؟ – كان قد مضى عام ونصف على
التدخل العسكري السوفييتي – وهل يعتقد بإمكانية الإستمرار ؟ .
الموضوع الثاني ما هو رأيه في وضع الإتحاد الآن وهل هناك أمل في اتحاد حقيقي بين المجاهدي
ن؟ .. وماهو دور سياف وكيف يمكن دعمه ؟ .
بالنسبة للوضع العسكري كان جلال الدين متفائلا ويرى أنه قد تحسن عن ذي قبل ، وأن الر
وس لم يكونوا متيقنين إلى تلك الدرجة التي أشيعت عنهم وأن هزيمتهم ممكنة جدا لو توافرت بعض
الشروط وعلى رأسها اتحاد المجاهدين في الجبهات اتحادا حقيقيا . وأن العقبة الرئيسية أمام
ذلك هم قادة الأحزاب في بيشاور ، الذين يبذلون أقصى جهد لمنع اتحاد المجاهدين في الداخل و
يهددون من يفعل ذلك بمنع المساعدات ، بل ويحرضون أتباعهم في الداخل لمقاتلة أتباع الآخرين
. وهذا أكثر ما يخشاه على مستقبل الجهاد . أما السوفييت فليسوا هم المشكلة الرئيسية .
هكذا كان الموضوعان مترابطان تماما ، فالتقدم على الجبهة العسكرية مرتبط تماما بتحقيق تـ
رابط في المجال السياسي . والعكس يبدو صعبا ، وإن كان هو البديل الوحيد وهو أن يكون ا
لتقدم العسكري وسيلة ومدخلا لتحقيق تماسك سياسي . سواء تم هذا التماسك في بيشاور –
أو كما خطر في بالنا لاحقا أن يتم تماسك سياسي داخلي أي اتحاد سياسي بديل في الداخل ، وا
لغاء دور زعامات بيشاور ، وهذا بدوره لم يحدث مطلقا .
أما عن الوضع العسكري في باكتيا فقد أخبرني جلال الدين بأن الروس لم يستطيعوا تغيير الأ
وضاع السابقة ، وأن المجاهدين استطاعوا إحباط محاولات السوفييت لتغيير الموازين العسكرية
في الولاية . وأهم العلامات أن الجيش الأحمر فشل في توصيل الإمدادات إلى مدينة خوست عن الطريـ
ق البري . سواء عبر مناطق زدران وهي قبائل جلال الدين ، أو عبر الطريق المار في مناطق
صنجل وهي قبائل في شمال وشرق المحافظة .
إن المجاهدين –
كما يرى حقاني – أصبحوا أكثر جرأة على الروس . وقد ذكر مثلا لطيفا على ذلك فقال بأن
هناك قولا لدى الأفغان بأن الإنسان يجب أن يحذر من الكلب الذي يرقد صامتا أما إذا بدأ ال
كلب في النباح فيجب ألا تهتم به . وضحك حقاني قائلا لقد نبح الروس ، فسقطت هيبتهم في
نفوسنا .
أخبرني حقاني بأن باكستان بدأت في إعطاء بعض المساعدات للمجاهدين وأن أسلحة صينية وم
صرية قد وصلت إلى المجاهدين عن طريق باكستان وأن من ضمن هذه الأسلحة صواريخ سام7 المضادة
للطائرات وأن حقاني تسلم منها أربعة صواريخ كما تسلم عددا من الرشاشات الثقيلة المض
ادة للطائرات . وقد رأيت في مركز سرانا اثنان من تلك الرشاشات أحدهما مدفع دوشكا ذو أ
ربعة سبطانات من صناعة الصين ، ومدفع رشاش آخر زيكوياك وهو صناعة صينية أيضا . أما ا
لمدفع البلجيكي القديم الذي كانت تنحشر فيه الطلقات فلم أعد أراه بل أن العديد من الر
جال الذين قابلتهم في العالم الأول لم يعد لهم وجود فقد لاقوا الله شهداء . غير أن وجوها جديـ
دة في صفوف المجاهدين بعضهم شباب دون العشرين من العمر قد ظهروا في الجبهات والصفوف الأولى
.
سألت عن المدافع التي تقصف جرديز فأخبرني أنها مدفعان فقط أحدهما مدفع ميدان أوبوس عيا
ر 122مم ، والآخر مدفع جبلي عيار 76مم . وكلاهما من الغنائم كذلك قذائفهما . أما التشغـ
يل فيقوم به ضابط باكستاني متطوع وهو يشارك المجاهدين في عمليات أخرى مثل التدريب على
المدافع أو الهجوم على المواقع . أما عن قصة ذلك الضابط –
واسمه رشيد – فقال أنه ذات يوم بينما هو في ميرانشاه الحدودية يتهيأ لعبور الحدود إلى أفغـ
انستان أخبره بعض رجاله أنهم شاهدوا شابين باكستانيين أحدهما يقول أنه ضابط في الجيش بينما

هما يساومان البائع في أحد دكاكين الأسلحة ، في شراء بندقيتين لهما ويطالبان بتخفيض السعر لأنهما مجاهدان في سبيل الله .
أرسل حقاني رجاله لاستدعاء الرجلين وتعرف عليهما ، إنهما الرائد رشيد وابن أخته وحيد د وهو شاب في المرحلة الثانوية . قدم رشيد نفسه إلى حقاني على اعتبار أنه رائد سابق في الجيش الباكستاني . استقال مؤخرا من الخدمة لرغبته الإلتحاق بالمجاهدين ، لأنه يرى أنه يخدم بذلك باكستان ويدافع عنها أكثر من بقائه ضابطا في الخدمة وبعيدا عما يحدث في أفغانس تان ، فهو يرى أن السوفييت إذا لم يتم إيقافهم في أفغانستان فلن يستطيع أحد إيقافهم بـ عد ذلك وأن باكستان سوف تضيع لا محالة .
تعرفت على رشيد بعد ذلك ، فقد رحلت إليه في جبال ساتي كندو . تحدثنا كثيرا وأعتقد أن نا أصبحنا أصدقاء . وكان من أكثر من استفدت بمعرفتهم خلال سنوات الحرب . فقد ساعدني نق اشاني معه في تبين الكثير من أساسيات الموقف العسكري والسياسي للحرب الأفغانية . ورغم أن ه يتمتع بمزايا لم أجدها في غيره إلا أن عيوبه عرقلت استمراريته في الجهاد . وفي ظني أن أخطر عيوبه كانت حرصه على رؤية دوره بارزا ومعترفا به . وحرصه أيضا على إبراز تفوقه على الآخرين .
لقد كان دوره في ذلك الوقت بارزا فعلا وكان أيضا متفوقا على الآخرين بحكم احترافه العسكر ي الذي زوده بمعارف كان المجاهدون يجهلونها وهم في أمس الحاجة إليها .
نقد رأيت رشيد في ذلك العام وهو تقريبا أشهر شخصية في المنطقة يعرفه الشيوخ والأطفال . وكان ما يفعله مثار إعجاب الجميع . فقصفه المدفعي على جرديز كان حديث المجاهدين وسكان ا لمنطقة ، وكان راديو جرديز يسبه ويتوعده ويطالب برأسه .
لقد حدثني حقاني عنه بعد ذلك بسنوات ، وكان رشيد على وشك مغادرة باكستان مهاجرا إلى ك ندا — فقد تزوج صحفية كندية قابلها و******* —
فقال » إن رشيد رجل شجاع بل هو أشجع من في الحرب ولكن التعامل معه صعب جدا« .
في سنوات لاحقة قابلت بعض الشباب الباكستانيين في نفس منطقة رشيد . وكانوا مجاهدين مثقفين وأذكياء ، وللأسف وجدتهم يكرهون الرجل — رشيد — ويصرون أنه كان دائما يعمل لصالح الإستخبارات العسكرية الباكستانية . وظلت تلك التهمة تلاحقه أينما حل .
وبما أن رشيد كان من أهم الشخصيات — غير الأفغانية — التي قابلتها في أفغانستان ، وكان م ؤهلا عمليا للنشاط القتالي أكثر بكثير من العرب الذين توافدوا لاحقا على أفغانستان بما في ذلك القليل من الضباط العرب الذين شاركوا في القتال ، فإنني أتابع قليلا حالته ، ونجاحا ته وإخفاقه لأن ذلك متعلق كثيرا بالحالة الجهادية التي كانت قائمة آنذاك في أفغانستان .
قابلت رشيد للمرة الأخيرة في الميدان عام 1982 في معركة نيجاه في خوست ، ويومها اختلف م ع حقاني وانتهت علاقتهما . ثم انتقل رشيد للعمل مع جماعة خالص في جلال آباد ثم تركهم وعمل عدة سنوات مع مولوي نصر الله منصور . وكان توافق كبير معه ، ثم بدأت حالة حصار باكستان ية ضد منصور حتى ذبل تنظيمه . أما رشيد فقد طارده رجال الإستخبارات الباكستانية ، وطلا بوا من المنظمات عدم التعاون معه وأشاعوا حوله أنه يعمل مع الإستخبارات الأمريكية
. كان الإتهام عجيبا لمن يعلم بواطن الأمور ، فالمخابرات الأمريكية وقتها 1985م — 1986م كانت في قمة تألقها في إدارة مشروعها في أفغانستان ، إذن الإتهام كان لتشويه السم عة وليس لإظهار حقيقة . فمعنى كونه حقيقة في الإستخبارات الأمريكية فذلك يعني أنه لا يمكن المساس به إلى جانب نفوذه وسطوته على الجانبين الباكستاني والأفغاني .
كان حقاني واقعيا عندما أخبرني أن الرجل يستحيل التعامل معه . لقد كان منصفا — كعادت ه — فلم يتجن عليه أو يتهمه بما لا يستحق بل أنه أثنى على شجاعته .
وعندما سألت أحد القياديين في جماعة خالص عن سبب إنهاء علاقتهم برشيد فرد قائلا »إن رشيد يتعامل مع الإستخبارات الباكستانية لذلك أنهينا علاقتنا معه« .
كانت الإجابة استخفافا واضحا بي . فكانت علاقتهم — وجميع الأحزاب — مع الإستخبارات الباك ستانية تجري على قدم وساق ولا تحتاج أي دليل . فكيف يستخدمها تهمة ضد رشيد ؟ .
استنتجت وقتها أن الإستخبارات الباكستانية تعرض عليه في بيشاور . وقد أخبرني أحد العامل ين في مكاتب بيشاور بأنه قد طلب منهم صراحة من طرف الباكستانيين عدم التعاون مع رشيد . وأذكر أنه عندما غادر رشيد موقع نيجاه بعد نقاش حاد مع حقاني ، فإنه أرسل لي رسالة من ميرانشاه يأن ألقاه هناك بسرعة . وهناك شرح لي أوجه الخلاف مع حقاني ، وكانت حول خط ة الهجوم على حصن نيجاه وإصرار كل منهما على وجهة نظره فاحتد حقاني في الرد على رشيد الذي شعر أنه قد أهين أمام باقي القادة فترك العمل مع حقاني إلى غير رجعة . كنا وقتها في بيت أحد المجاهدين العاملين مع حقاني في ميرانشاه . وفجأة دخل علينا اثنان من أفراد المخا برات الباكستانية وطلبا الحديث على انفراد مع رشيد فخرج الأفغان ، وبقيت جالسا على اع تبار أني لا أفهم لغة الباشتو التي يتحدثون بها . كما أخبرهم رشيد أني عربي أتكلم الإنجلي زية فقط . فدار حوارهم معه بالأوردية . ومن خلال الكلمات العربية في اللغة الأوردية وكث رة المصطلحات الإنجليزية على ألسنة المتعلمين في باكستان خاصة رجال الجيش وكبار الموظفين ، ف هم اختلافا كبيرا بينهم وبين رشيد حول السياسات العسكرية التي يجب اتباعها في المنطقة وحول

نوايا الروس والدور الباكستاني المفترض ، وإمكانات المجاهدين واحتياجاتهم .
كان الحديث تقنيا عالي المستوى ، ولكنه لم يكن وديا . كانت وجهات النظر مختلفتين إلى درجة قريبة من التشاحن .
كان يمكنني استنتاج أن رشيد ليس واحدا منهم . وكان استنتاجي الخاص فيما بعد أن رشيد كا ن شابا ذكيا طموحا جديا دخل الحرب وهو منفعل بشيئين . الأول ، أهميتها للدفاع عن بلاده و أهميتها للإسلام والمسلمين . الثاني ، أنه خاض الحرب بمنطق رجل العصابات الحقيقي .فقد كان و اسع الإطلاع على كتب العصابات ومستوعبا فنونها . وقد شاهدت في باكستان الكثيرين من فرع ا لإستخبارات الباكستانية ISI وهم في مهام داخل أفغانستان ، كانوا يعملون كمستشارين و موجهين لقوميندانات قادة المجاهدين . فكانوا في سلوكياته وأدائه القتالي مشيدا نموذجيا لأ حد قادة حرب العصابات المتمكنين .
لقد كان رشيد مخلصا لدوره كقائد في أحد حروب العصابات وكان يمتلك شخصيا مؤهلات النجاح ما عدا عنصر خطير واحد ، فقد كان غريبا عن الشعب الأفغاني الذي يكره الغرباء – أو على الأقل لا يندمج كاملا معهم – ، وفي كل الحالات لا يسلم لهم بقيادة ظاهرة لشئونه . كان معقو لا أن يتقبل المجاهدون لفترة محددة دورا لرجل مثل رشيد حتى يمكنهم تعلم المهارات الجديدة التي يحملها معه ، أما بعد ذلك فعليه أن يخطو إلى الخلف خطوة واحدة على الأقل .
ورغم حداثة عمره 28 عاما في ذلك الوقت ، فإنه كان يحمل رتبة رائد وهي رتبة حقيقية ك ما أكد أبناء منطقته وهم من غير محبيه . وكان موسعي المعرفة في المسائل العسكرية والسياس ية والتاريخية . كما أنه تعلم بسرعة لغتي الباشتو والفارسية حتى أصبح يتفاهم بسهولة م ع الأفغان .
وعندما سدت الطرق أمام رشيد في العمل الميداني انهمك في إلقاء المحاضرات في معسكر التدريب الخاصة بالشيخ نصر الله منصور . ثم أنشأ مجلة خاصة بالتنظيم وسماها الصراط تولي هو كتابتها وتدبير مصادر للإنفاق عليها مع مساعدة بسيطة من مولوي منصور الذي بدأ يختنق هو أيضا .
وتناولت الصراط بالفارسية والباشتو تحرير مقالات رفيعة المستوى حول تطبيقات حروب العص ابات على الواقع الأفغاني . وتحليل العديد من المعارك العسكرية الهامة في ذلك الوقت في با كستير وباكتيا .
لم تستمر الصراط طويلا ولكنها كانت مجلة غير عادية بكل المقاييس إذا قارناها بالغثاء من الصحف والمجلات يشق اللغات والتي صاحبت الجهاد الأفغاني منذ نشأته وحتى نهايته ، مع استثناء ات نادرة لا تتعدى عدة إصدارات جيدة من بعض المجلات هابطة المستوى ضيقة النظرة التي ازدهت بها بيشاور .
في عام 1984م تعرف بعض أصدقائي العرب – في الجبهات أو في بيشاور – على رشيد ولكنهم لم يت قبلوه لأسباب متفاوتة . بعضهم احتقره لأنه ليس ملتزما فهو يدخن السجائر ويستمع إلى الموسيقى في المذياع ، وقد واجهوه بتلك الأخطاء وبطريقتهم العنيفة . فشعر الرجل بالخرج ا لشديد وعاتبني كيف لم ألفت نظره إلى تلك الأخطاء قبل ذلك ، ولم أجد إجابة مناسبة على هذا تبته إياي . أما الآخرون فلم يروا فيه غير ضابط باكستاني هريب يعرف الكثير من الصحفيين الغربيين الذين يحضرون إلى المنطقة .
بيشاور ويقابل الكثير من الأوروبيين الذي يتقاطرون على المنطقة .
وبالفعل فإن رشيد كان قد حقق جزءا لا بأس به من الشهرة بعد أن قابله عدد من الصحفيين الغربيين في الجبهات وحصلوا منه على تحليلات عميقة للأحداث العسكرية – أغضب بعضها حقاني و آخرين ، حيث أن رشيد وصف المجاهدين بعدم النظام والعشوائية في العمل وكثرة الخلافات الدا خلية بينهم ، ولم يلتفت هؤلاء لكثرة النقاط الإيجابية فيما أورده رشيد عن المجاهدين . ويرج ذلك إلى الطبيعة الأفغانية الفخورة بنفسها والحساسة جدا لأي نقد خارجي لها .
لقد ورد اسم رشيد في كتاب واحد على الأقل نشره أحد هؤلاء الغربيين عن رحلته داخل أفغانس تان . كما ورد اسمه في عدة إذاعات وبعض المقالات . لقد حقق شيئا من الشهرة . وللشهرة نت ائج سيئة في غالب الأحوال ، فهي تغير نفس الإنسان وقد يتحول إلى الغرور . كما أن الشهرة تزيد من رصيد الشخص من الأعداء .
ولكن الشهرة مكنت صديقي رشيد من الزواج من تلك الصحفية الكندية التي تعرفت عليه في آخر أيام عمله الميداني في أفغانستان ثم أسلمت وتزوجته . ثم غادر معها إلى كندا بعدما وجد ت باكستان بمعاونة المنظمات في حصاره حتى الإختناق ، وقد حاول عن طريقي أن يجد منفذا عربيد ا للعمل ، ولكني لم أكن سوى عكاز مكسور ارتكز عليه رشيد . فقد كنت أيضا منبوذا وتحت الح صار والملاحقة من أعداء أقوياء نـفذين على رأسهم سياف والإخوان المسلمون ثم انضمت إليهم في ذلك الوقت السفارة ا لسعودية .
تمكن رشيد من الفرار إلى كندا بمساعدة زوجته ، وانتهى تأثيره تماما على العمل في أفغانستا ن .
لقد خسر رشيد بذلك الكثير من الفضل –
وخسر الجهاد شخصا كفؤا وشجاعا وعارفا بأصول عمله . لم أشهد قط على الساحة الأفغانية شخ

صا على هذه الدرجة العالية من التأهيل العلمي والعملي والذهني لحرب العصابات كما وجدت في ذلك الشاب الضابط رشيد . لكن الحالة الأفغانية والعربية لفظتاه . وهو من جهته لم يس تطع التجانس معهما .

إن حالة رشيد أثارت في ذهني بعض التساؤلات الهامة منها مثلا لماذا تطرد الحركة الإسلامية الكفاءات من بين صفوفها كما تنفي النار الخبث ؟ . لماذا تظل الكفاءة في جهة والعمل الإ سلامي في جهة أخرى ؟ . ولماذا يظل العلم في جهة والنشاط والحركة الإسلامية في جهة أخرى ؟ . ولماذا يظل العلم في جهة والنشاط والحركة الإسلامية في جهة أخرى ؟ . ولماذا تطغى على الـ عمل الإسلامي صفة الخطابة والعنتريات والمظاهرات الصاخبة والفارغة ، بدلا من الجدية والعلم والتخطيط ؟ .

وعلى هذا المنوال يمكن أن نطرح عدة صفحات من الأسئلة ...

إن المخابرات الباكستانية عندما ضيقت على رشيد وطاردته لم تفعل ذلك لأن رشيد يعمل ضمن المخابرات الأمريكية — وذلك لسبب بسيط جدا وهو أن المخابرات الباكستانية نفسها كانت تعمل تحت توجيه المخابرات الأمريكية — وذلك باعتراف باكستان نفسها فيما بعد ومسئولي مخابراتها — فقط كان شرط هياء الحق ألا تتخطى أمريكا القنوات الباكستانية .

في ظني أن باكستان رأت في حيوية رشيد وكفائته خطرا على مشاريعها ومشاريع قادتها الأمريكان .

كانت حالة الجهالة التي تطفح على بيشاور ونشاطتها لا تسمح لأمثال تلك القدرات أن تمارس الفعل والتأثير العملي بل تدفعها بقوة إلى خارج الساحة تطبيقا لقاعدة إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة .

لقد طلب مني رشيد في لقائي الأول معه أن أحاول تجميع عدد من الشباب العرب ، يقوم هو بتد ريبهم للقيام بعمليات عسكرية راقية في أفغانستان ، لأن للأفغان محدوديتهم الناتجة عن طبا عهم الخاصة وعدم تلقيهم العلوم الحديثة وعصبيتهم القبلية وغير ذلك .

كان ذلك نفس ما أفكر فيه ، وهو أيضا ما لم أقدر عليه طوال سنوات الحرب الأفغانية للأسبا ب السابق ذكرها . والعرب حتى نهاية الحرب الأفغانية لم يرهنوا على أنهم أمسكوا بالخيط الصحيح للعمل العسكري . ولم يقتنعوا عمليا بأهمية التدريب إلا بعد معـ ركتهم في جاجي عام 1987م . لقد كان معظمهم في حاجة إلى فتاوى تقنعهم بأهمية التدريب ، بـ ل فتاوى تقنعهم بصحة كل بند تدريبي على حدة . فالهرولة قال بعضهم أنها غير شرعية ، وكذلك قالوا عن الزحف . كما أن الأوامر الجافة والصياح من جانب المدرب أو القائد إنما هو عمل طاغوتـ ي كذلك الوقوف في صفوف منتظمة أو النصيحات أو الإرهاق في التدريب أو تعمد تجويعهم وحرما نهم من الراحة والطعام والشراب . كانت حالة مأساوية أن يبدأ العمل العسكري العربي من تلك النقطة المنحطة جدا .

أما شخص مثل رشيد فهو في نظرهم غير ملتزم وحليق يدخن السجائر ويستمع إلى الموسيقى .ف ليذهب إذن إلى الجحيم . وقد ذهب فعلا — وهل اللجوء إلى بلاد الغرب إلا الجحيم بعينه ؟.

تسببت المدفعية الثقيلة التي يستخدمها المجاهدون في مصرع عدد من كبار المسئولين ، من بينهم جنرال سوفييتي قتل بقذيفة مدفعية أثناء حضوره احتفال تكريم . والأخطر من ذلك هو ا لهيبة السوفييتية وهيبة النظام التي وضعت في حرج بالغ من جراء هذا التطاول المدفعي . كان أمام السوفييت والحكومة خياران الأول هو تحطيم تلك المدافع . والثاني هو توسيع النط اق الدفاعي حول المدينة بحيث لا تصلها قذائف المدفعية ، والحل الثاني واضح صعوبته وتكلفتـ ه الباهظة . فهو يعني فرض إشراف عسكري دائم على مساحة من الجبال لا تقل عن مائتي كيلومتر مربع . فلا بد أن يتقدم الجيش عشرة كيلومترات على الأقل داخل الجبال في العمق ثم ينتشر فيـ ها على موازاة المدينة لمسافة عشرين كيلومتر أخرى على الأقل . فكم تطلب مثل ذلك الجهود م ن رجال وعتاد وأموال ؟ . الحل أول كان هو الأيسر وبدأت فيه القوات الشيوعية على الفور وباستخدام كافة السبل المتاحة .

كانت الوسائل العسكرية لتدمير مدافع المجاهدين متوفرة لدى العدو كما أن المهارة في استخد امها لم تكن تنقصه أبدا . ولكن الشيء الذي كان ينقصه فعلا هو الشجاعة والتصميم مع تدنـ ي المعنويات خاصة لدى الجنود ، وكانت الصورة عكسية في طرف المجاهدين حيث العنصر البشري ا لمتمثل في الأفراد المجاهدين يتمتعون بدرجة عالية من الشجاعة والتصميم والفدائية . وتواجـ د قائد مثل رشيد معهم وفر لهم عدة عناصر فنية أفادتهم كثيرا . فقدراته الفنية والعقلية جعلت المواجهة العسكرية تحفة جميلة من فن التكتيك .

وقد أفادني كثيرا التمعن في تلك الإشتباكات من ذلك المنظور . وكم قضيت الساعات الطوال في مناقشات مع رشيد حول تكتيكات المعركة عبر جانبيها وكان تلك هي التجربة الأولى التي أكتشف من خلالها الجانب الجماعي في المعارك والذي يـ تمثل في لمسة الذكاء الإنساني الذي يدعمه الإيمان والتصميم .

إن المعارك تذهب وتنتهي وينتهي ما رافقها من دماء ومشاعر ألم وخوف ولكن الذي يبقى هو آثار الذكاء والتصميم التي تظل تثير الإعجاب بتلك المعارك وقادتها . لأجل ذلك ما زالت معا

رك خالد بن الوليد تثير إعجاب كل من قرأها .
إن المعارك التي تخلو من جمال الفكرة التكتيكية ليست سوى صراع حيواني يعتمد العنف البحت
. تماما كما يتصارع ثوران أو كلبان .
لذلك كانت معارك المسلمين – خاصة في صدر الإسلام –
تزخر بالأفكار التكتيكية الرائعة ، حتى كانت مدرسة عسكرية فريدة في نوعها . تجمع إلى ذكا
، القائد وعبقريته قوة الجندي وإيمانه وتصميمه .
يذهب البعض إلى القول بأن الحرب فن وليست علما . وإذا كان ذلك التعريف صحيحا فإنه يعني
أن في الحرب طابع جمالي شأن كل الفنون . والجمال يأتي من روعة الأفكار التكتيكية وروعة
لهندسة الإستراتيجية لمخططي الحرب . أما ما عدا ذلك فيس في الحرب أي نوع من الجمال فهي لا تعـ
ني سوى الدمار والقتل ، وهي كريهة على كل نفس إلا على أنفس الجبانين الذين يحب الحجر عليـ
هم . وصدق الله سبحانه وتعالى حين قال »كتب عليكم القتال وهو كره لكم« . فالحرب بالنسبـ
ة للمسلم فريضة وليست متعة ولن تكون كذلك على الإطلاق . اللهم ذلك الشعور بالرضا والر
احة الناجمان عن شعور المسلم أنه بطيع ربه ويرضيه عندما يقاتل في سبيله وهذا مصدر سعاد
ة لا توصف للمقاتل المسلم حتى في أحلك لحظات المعركة . لذلك فالمقاتل المسلم دائما يتمتع
بأفضل المعنويات متفوقا بذلك على
أي جيش كافر . ولا يعني ذلك انعدام حالات الإنتكاس المعنوي التي قد تصيب الجيش المسلم ، ولكـ
نه سريعا ما يتخلص منها ... ما لم ترتكب مخالفات شرعية جسيمة .
كان موقع المجاهدين قريبا جدا من مواقعها في العام الأول ،كان جنوب قرية دارا وعلى مسيرة
ساعة منها ، في طريق لا يصعب السير فيه وإن كان غير صالح لمرور المركبات أو الدبابات ، وذ
لك بالطبع لصالح المجاهدين .
وإلى الجنوب مركزنا جبل مثل الحائط القائم وهو من تحف سلسلة ساتي كندو وخلف هذا الحائط قـ
رية علي
مسافة قريبة وإليها تصل سيارات المجاهدين التي تأتي من سرانا مستخدمة الطريق العام لعد
ة كيلومترات . وهو الطريق العام الواصل بين خوست وجرديز والذي لم تستطع الجيوش الشيوعية
اختراقه منذ معركة 1979م التي شاهدنا آثارها في رحلتنا الأولى
. وظل هذا الطريق 110 كم أحد معضلات الحرب أمام السوفييت حتى افتتاحه بمؤامرة دولية أ
شرفت على تنفيذها المخابرات الباكستانية في شتاء 1987م – 1988م .
في ذلك العام 1981م كانت الحكومة قد أخلت قرية دارا بعد أن كانت تحتلها أثناء زيارتنا
السابقة . وكانت مفارقة غريبة فالمفروض أن يكون الوضع عكس ذلك خاصة بعد تدخل الروس م
ن ناحية وامتلاك المجاهدين مدافع ثقيلة أبعد مدى من جهة أخرى .
ولكن الجيش الحكومي وضع دارا تحت نيران مدافعه المركزة وكان يدكها من وقت إلى آخر . وبذلك
أصبحت منطقة محرمة ، تستخدم فقط للعبور السريع أو الإستراحات القصيرة .
وكان عبور قرية دارا ثم الإنحراف غربا والسير عدة كيلومترات في الجبال ، ينقل المجاهدين في مو
اقع مرتفعة يمكنهم انعمل ضد مواقع حكومية في بنو – زاي وهي منطقة واسعة منحقة بالعما
صمة جرديز وتشرف على المدخل الغربي للمدينة عند اتصالها مع وادي زورمات وهو وادي خصب
متسع ملئ بالقرى ويصل إلى مديرية غازني التاريخية . نور محمد طرقي الزعيم الشيوعي مؤ
سس النظام القائم ينتمي إلى غازني . أما المدخل الشرقي لمدينة جرديز فتشرف عليه سيد ك
رم وهي مركز إداري وعسكري تمتد عبره الطريق الذي يواصل الإمتداد شرقا حتى جاجي وهو موقع
أفغاني شهير ارتبط بالنظام الجهادي العربي ، وهو قريب جدا من الحدود الباكستانية .
سيد كرم هي مسقط رأس نجيب الله آخر رئيس شيوعي للبلاد ، أما زورمات فهي مسقط رأس أصلم
وطندار أحد الأعمدة الرئيسية للإنقلاب الشيوعي وهو ضابط كبير في سلاح الطيران .
أخبرني رشيد أنهم قد أطلقوا صاروخين من طراز سام7 ضد الطائرات ولكنها لم تصب . ولكن الط
ائرات أصبحت أكثر حذرا ، وبالفعل فقد لاحظت أن مجهود الطيران أقل من المرة السابقة . كما
أنه يأتي مرتفعا جدا في أغلب الأحيان .
كنت مندهشا لهذا الأداء الضعيف للجيش السوفييتي الرهيب ، وتناقشت مطولا مع رشيد حول ذلك
الأمر . هو نفسه كان مندهشا ولكنه كان يرى أن السوفييت ربما يحاولون تحاشي تورط واسع ك
الذي حدث لأمريكا في فيتنام لذلك فهم يحافظون على مستوى معقول من التواجد العسكري حتى لا
تتعاظم الخسائر والنفقات .

القوانين الخاصة للحرب

كان موقف القوات الشيوعية واضح الحرج ، وشعر الأهالي بضعفه فارتفعت المعنويات وزاد عدد
المتطوعين في مراكز المجاهدين . أما حقاني فقد خطر له الهجوم على جرديز والإستيلاء عليها –
دفعة واحدة – وقد صارح رشيد بذلك الخاطر . والعجيب أن رشيد أيده في ذلك ، ولكنه طلب أ
ن يضع حقاني تحت إمرته ثلاثمائة مجاهد وأخبرني رشيد أن برنامجه للقصف المدفعي هو تمهيد لذلك
الهجوم والهدف من القصف هو إضعاف دفاعات العدو ومعنوياته .
لم يخامرني شك وقتها بأن حقاني لو حاول فسوف ينجح ، ويرجع ذلك الإعتقاد إلى قلة خبرتي من

ناحية وارتفاع معنوياتي بشكل كبير من ناحية ثانية ، ثم انتصارات المجاهدين ضد الروس وا
جيش الحكومي من جهة ثالثة ، وأخيرا ثقتي في جلال الدين كقائد ورجاله المؤمنين الشجعان .
فكرة الهجوم على جرديز في ذلك الوقت كانت سابقة جدا لأوانها ، والغريب إنها خطرت على ذه
ن حقاني في ذلك الوقت والجيش السوفييتي مازال طازجا لم تستنزف قواه أو معنوياته . وغريب
أيضا أن يوافق رشيد على رأيه – وهو الضابط المحترف – . على أية حال لم تنفذ الفكرة واس
تبدلت بالهجوم على تعمير وهي قرية حديثة تستخدم لإدارة منقطة واسعة والإشراف عليها إذ
اريا وعسكريا ، وهي في الطرف الغربي لجرديز على بعد حوالي عشرين كيلومترا ويخترقها الطريق
الرئيسي الواصل بين جرديز وغازني . كان هجوم تعمير ناجحا للغاية وقلب الكثير من المفاه
م كما سيأتي شرحه .
ولكن نعود إلى فكرة الهجوم على جرديز لكون ذلك معلم من معالم التفكير العسكري لجلال الدين
حقاني . الرجل الأهم في باكتيا حتى نهاية الحرب . وامتدادا لتقاليد الأبطال من مقاتلي ق
بائل الباتان ، فقد كان لبطولة والشجاعة عند حقاني مكانة عالية جدا ، فالهجوم مهما ك
انت المخاطر ، وانثبات أمام العدو مهما كانت العواقب كانت مفاهيما قوية في ذهنيته الع
سكرية .
الشجاعة في الهجوم ، وانثبات في الدفاع صفات جيدة بلا شك إذا استخدمت في مكانها الصحيح .
وهو ما يفعله قائد ناجح مثل جلال الدين . وبالنسبة للتعامل مع الجيوش الحديثة وأسلحتها
الجديدة يحتاج تطبيق مثل تلك المفاهيم –
من جانب قائد لحرب العصابات – يحتاج إلى كثير من الحرص حتى تعطي تلك المفاهيم نتائج إيجابية
ولا تتحول إلى العكس .
فالهجوم الشجاع بدون خوف قد يكون مفيدا للغاية ويكون مدمرا وذو عواقب وخيمة على صاحب
ه .
والدفاع المستميت قد يكون مفيدا مهما بذل فيه من تضحية وقد يكون وبالا وسببا في هزيمة قا
تلة .
لقد تعلم المجاهدون الأفغان كثيرا من تجاربهم . وجلال الدين أيضا من خلال الصواب والخطأ تعلم
الكثير واستلك ميزانا صحيحا لتقدير الأمور . وبالطبع كان هناك ثمنا لتلك المعرفة ثمنا م
ن الدماء قبل أي شيء آخر .
مع هذا ظلت تقاليد أبطال الباتان حية في ذهنه وسلوكه وكذلك كان معظم القادة الممتازين
في أفغانستان .
لقد كان لجلال الدين قرارا خطيرا –
مخالفا لمبادى حرب العصابات حين قرر الدفاع عن مكتسباته من الأرض وعدم الإنسحاب والبدء م
ن الصفر تلافيا لأن تدمره القوات الروسية . وقد أشار عليه بذلك الرأي الرائد جولز
راك وكان مساعدا عسكريا له – وهو من نفس القبيلة ومدرس سابق في الأكاديمية العسكرية
في كابل – كانت تلك المشورة في عشية استيلاء السوفييت على كابل . ومشورة جولزراك صحيحة
فينا وأكاديميا . ولكن وجهة نظر حقاني كانت الأكثر صحة بالنسبة للواقع الأفغاني . وقد
كانت مبررات رفضه لمقترحات جولزراك كما أخبرني بعد ذلك هي كالتالي
أ – إن فك مجموعاتنا القتالية الكبيرة وإخفاء أسلحتنا الثقيلة في مخابئ سرية ، والعودة
إلى أسلوبنا الأول في الضرب والإختفاء كان سيحرمنا من مكتسبات عامين من القتال . ولم يكن
مقاتلينا سينحملوا تلك النكسة وكانت تعني بالنسبة لهم الهزيمة والإستسلام للعدو . وما كان
وا لينفضوا بعدها لقتال العدو . وهذه نقطة هامة بالنسبة لمعرفة القائد لنفسيات مقاتليه
ه ، فالإنسحاب الواسع كان سيؤدي إلى هزيمة معنوية واستسلاما للعدو . إذن في هذه الحالة يك
ون اختيار القتال هو الأصوب حتى لو حمل في طياته مخاطرا الإبادة . هكذا فكر حقاني وكان مصيـ
با تماما . ونستنتج من ذلك أن قواعد الحرب وقوانينها ليست مقدسة بل يمكن تعديلها أو تخط
يها بل يكون ذلك واجبا في بعض الحالات الخاصة – كالحالة التي نحن بصددها الآن – ولا يمكن سوى
للقائد الفذ أن يستنتج قوانين الحرب الخاصة والتي تتعلق بأوضاع غير عادية لأحد الحروب .
كما فعل حقاني في هذه الحالة . ولا بد من الإعتراف أن العديد من القادة الأفغان المقاتلين
قد طوروا قوانين الحرب بما يناسب الحالة الأفغانية من حيث طبيعة الشعب فكريا ونفسيا و
سلوكيا . وكان العديد من هذه التطويرات عبقريا ، وبعضه الآخر أدى إلى كوارث لأنه كان خا
طئا .
وعلى وجه العموم ظل الأفغان يقاتلون بطريقتهم الخاصة طوال مدة الحرب ، لذلك كان عسيرا
جدا على غير الأفغان من المتطوعين – عرب أو غيرهم – أن يتوائم مع الطرق القتالية للأفغان
التي لا يمكن استساغتها أو مجاراتها في معظم الأحوال .
من أجل ذلك لجأ العرب في مراحل متأخرة إلى تكوين مجموعات قتالية خاصة تقاتل بالتعاون مع
مجموعات أفغانية – وفي أحيان قليلة قاتلوا منفردين –
سوف نلاحظ أن الإنسحاب التكتيكي الواسع لقوات الجيش الأفغاني عام 1989م بعد الإنسحاب ا
لسوفييتي أدى إلى كوارث ضخمة خاصة في جلال آباد .
ب – أضاف حقاني دفاعا عن قراره قائلا إن الإنسحاب مرة أخرى إلى أعماق الجبال –
كما بدأنا أول مرة –

كان سيتيح للسوفييت فرصة الإستيلاء السهل على الطرق الرئيسية التي تخترق مناطقنا صوب حدو
د باكستان . وبالتالي سوف يقطعون خطوط إمدادنا ويعرقلون حركتنا . ويسيطرون بسهولة عل
ي التجمعات السكانية التي سوف تكون أسيرة لديهم –
حتى أولئك الذين تحرروا في السنتين الماضيتين . فإذا تحقق للسوفييت ذلك سوف يطاردوننا في الج
بال ويتصيدوننا واحدا واحدا كما تصاد الوحوش البرية .
إن قرار البدء مجددا من الصفر في حرب عصابات بدائية كان سيقودنا إلى هزيمة سريعة بلا مقا
ومة . بينما رجال القبائل أصحاب الغيرة على الدين والأعراض كانوا سيقاتلون باستمرار ض
د السوفييت إذا نحن ثبتنا في أماكننا للدفاع . وهذا بالضبط ما حدث نجحنا بذلك من إحباط
الجهود العسكري السوفييتي في مناطقنا . حتى أن وضع السوفييت حاليا 1981م أضعف من موقـ
ف الجيش الشيوعي قبل تدخل السوفييت . هذا وسوف نمر في سردنا خلال هذا الكتاب ببعض التج
اوزات الخلاقة لقوانين الحرب وكانت بحثا منهما عن القوانين الخاصة لحرب على الساحة الأفغان
ية ، وهو ما تحتاج إليه كل حرب عصابات ناجحة . وهي مهمة القيادة وكوادرها العاملة وك
ل من له بصيرة في القتال .
– إن الدفاع حتى الموت عن مكتسبات المجاهدين في باكتيا والنجاح في ذلك 1980م
– ثم القرار الطموح للغاية بالهجوم على جرديز 1981م
دليل على ترسخ أسلوب قتالي لدى القادة الأفغان البارزين خاصة حانة حقاني التي نحن بصدد
ا . والسبب في تطويلنا حول هذه النقطة هو ادعاءات وردت في كتاب فخ الدب الذي سبق الإشا
رة إليه – وهو كتاب خاضع لوجهات نظر صاحبه كضابط مخابرات سابق – وهو لم يكن يوما – ول
ن يستطيع – أن يكون مجاهدا يخوض حرب عصابات عقائدية ضد عدو ساحق التفوق ، فقد كان العـ
قيد محمد يوسف مجرد العبد المأمور تحت إدارة قائده الجنرال أختر عبد الرحمن رئيس جهاز الإستـ
خبارات الباكستانية ISI الذي كان بدوره عبد المأمور لدى الولايات المتحدة وإن كان كما
ا ذكرنا – عبدا على وشك التمرد –
وقد دفع ثمن تمرده ، فقد دمره الأمريكان في ظائرته مع أختر عبد الرحمن وغيرهم من كبار ضباط
باكستان وحتى مع السفير الأمريكي نفسه . لقد ادعى محمد يوسف في كتابه أنه كان صاحب فكرة
الدفاع الثابت عن منطقة علي خيل في جاجي ، وعن قاعدة جاور التابعة لحقاني . والإدعاء ا
ت نابعة من الغرور والتعالي الذي يميز رجال الإستخبارات خاصة أولئك الذين قاموا بمهام ك
بيرة في يوم ما .
وإدعى العميد أنه خالف بذلك القواعد التقليدية لحرب العصابات وتعرض لانتقادات مرؤوسيه
من أجل ذلك .
سنتعرض لاحقا لحالتي جاور وجاجي ، وكيف أن الأسباب الحقيقية للدفاع الثابت عنهما تعود في
الحالة الأولى إلى حقاني شخصيا وأسلوبه القتالي ، وملابسات القتال في باكتيا والعوامل الشخـ
صية والقبلية فيه . أما في حالة جاجي والقتال الثابت عنها فالذي يقف خلفها هو شخص غر
بي هذه المرة – وتلك ظاهرة نادرة وفريدة في الحرب الأفغانية –
ذلك الشخص هو أبو عبد الله أسامة بن لادن . وسوف نتعرض بشيء من التفصيل للحالتين لكونهما
من معالم الحرب الأفغانية وغناها بالدروس المستفادة . وكما أن مكتسبات الجهاد الأفغاني س
قطت في أيدي غير إسلامية فكذلك كل الميزات العسكرية التي حدثت تحاول تلك الأطراف أن تنسبها
إلى نفسها .
فالأمريكان ينسبون النصر إلى أنفسهم وأموالهم وصاروخهم العجيب ستنجر وحتى
إلى البغال الأمريكية التي أرسلوها كي تحل مشاكل اللوجستيك لدى المجاهدين .
أما خدمهم من الباكستانيين فادعوا بأنهم هم الذين خططوا ودربوا وقادوا . ولم يتركوا للأف
غان سوى التنفيذ الذي كان مليئا بالسوءات كما يتضح في كتاب فخ الدب . أما الذي صنعوا
النصر – وأجراه الله على أيديهم في أفغانستان – فهم إما تحت التراب ، أو تركوا الساحات
واختفوا تلاحقهم لعنة أفغانستان التي أنزلتها عليهم أمريكا . قالوا قديما إن الهزيمة يـ
تيمة والنصر له مائة أب . ولكن الأب الشرعي للنصر في أفغانستان مطارد في أرجاء المعمورة
وحتى على أرض أفغانستان نفسها .
الطريق الذي شقه حقاني لعبور خانط الجبلي خلف مركزنا في ساتي كندو كان هو الآخر من
الإنجازات التي قد لا يلتفت إليها كثيرون . وكان أول طريق غير قانوني شقه المجاهدون خدمة الـ
عمليات . وأمثال تلك الطرق أدت دورا حيويا في عمليات المجاهدين ، وكان ذلك ظاهرا للغاب
ة في ولاية باكتيا . وقد برع حقاني في ذلك النوع من الهندسة .وكنت أعتبره أكبر مهندس
باكتيا . ليست المسألة براعة فنية . حيث أن المعدات الحديثة لشق الطرق لم تظهر إلا في
وقت متأخر جدا . وشق طريق في مثل تلك الجبال الوعرة ليس فنيا بالشيء السهل . والأهم من
ذلك اختيار مكان الطريق وخط سيره بحيث يلبي عدة متطلبات في آن واحد . أهمها بالطبع خدمة
أكبر عدد من الأهداف العسكرية ومنها عدم اكتشافه من قبل مراكز العدو الأرضية ، وإذا ك
انت المنطقة مأهولة نسبيا فإن موافقة السكان القريبين من الطريق تعتبر ضرورية . قد تست
دعي الموافقة دفع بعض الأموال للأهالي أو الإنحراف بالطريق بعيدا عن قراهم ، أو مجرد إقناع
هم بأهمية الطريق للمجاهدين .
والسبب هو أن التجربة أثبتت أن الطريق مهما كان بدائيا فإنه يعتبر هدفا لهجوم الطائرا

ت . والقرى التي يخترقها أو يمر قريبا منها تعتبر هي الأخرى أهدافا محتملة . لقد أهدر الطير
ان النشيوعي مئات الأطنان من القنابل على أمثال تلك الطرق بدون أن نتيجة ملموسة ، لأن
إصلاح الطريق أو الإنحراف قليلا إلى أحد الأجناب – بعيدا عن حفر القنابل –
ليس بالشيء العسير ، حتى أن بعض الحفر الضخمة للقنابل كانت تدفن بلا جهود بواسطة الرمال
والصخور التي تحملها مياه السيول والأمطار . والملاحظ أنه لم تكن هناك انتصارات كبيرة خاصة
ة في مرحلة العمليات المتوسطة والكبيرة بدون وجود شبكة طرق مناسبة من ذلك الطراز غير ا
نقانوني .

كما كان ملاحظة الإرتباط المتبادل بين كثافة العمليات وكثافة شبكة الطرق غير القانونية
وهو ارتباط جدير بالتأمل . فقد تؤدي شبكة طرق من هذه إلى إعطاء أهمية عسكرية لمنطقة
لم تكن مهمة سابقا . والعكس أيضا صحيح فقد تتحول منطقة هامة جدا عسكريا إلى منطقة خامد
لة لعدم وجود طرق مناسبة بها . بل إن كثافة شبكة الطرق قد تؤثر في التخطيط الإستراتيجي
لنعمليات . فقد كان ملاحظا في معركة فتح خوست أن وجود شبكة طرق جيدة في القطاع الجنوبي
من الجبال منطقة باري قد فرض على خطط عمليات الهجوم – جلال الدين حقاني – أن يرتكز ع
لى ذلك القطاع في عملية الهجوم الرئيسي على المدينة .

بالطبع لم تكن شبكة الطرق هي الإعتبار الوحيد . ولكنها من أهم تلك الإعتبارات التي جعلت
باري منطلقا للهجوم الأخير والناجح على خوست .

نعود إلى الطريق غير القانوني الذي ان يربط مركزنا بالعالم الخلفي من حيث يجيء الإمداد ،
متخطيا الحائط الجبلي الرهيب . ذلك الطريق لم يجعل الإمدادات أمرا سهلا فحسب بل جعل المناو
رة بتحريك المدفعية أمرا ممكنا ومذهلا للعدو بحيث كانت في كل مرة تحدث له مفاجأة جديدة ،
من حيث مكان الرماية ومن حيث التوقيت .

فشلت مدفعيات العدو ورماياته الكثيفة في أن تنال من مدافع المجاهدين . كذلك فشلت عدة مح
اولات لنطيران ، حتى أنه لم ينجح في مجرد تحديد أماكن اختفائها . ولكنه تمكن أخيرا من إرسال
بعض الجواسيس حددوا له مكان المدفع بدقة ، وكان يوما غير سعيد .

ويمكن تخيل ما حدث لنا في ذلك اليوم ، ولكن بفضل الله لم يصب أحد ولكن مدفعها الثقيل 122
مم أصيب بعدة شظايا غير مؤثرة ولكنها خدشت كرامته فتوقف برنامجه لعدة أسابيع . استخد
م فيها الهاون غرناي 105مم ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

والمدفع الجبلي 76مم وكلاهما أيسر نسبيا من حيث المناورة خاصة المدفع الجبلي ذو العجلات
الكاوتشية الذي يمكن قطره بسيارة بيكاب وحتى يمكن دفعه بواسطة الأفراد . أما الغرناي فه
ا زلت أعتبره من أغنى الأسلحة التي يمكن أن يستخدمها رجال حرب عصابات . ولم تستخلص تلك الـ
نتيجة في أفغانستان فقط ، بل في تجارب أخرى أيضا .

ولما كان ذلك المركز يعتبر الأهم والأقوى في باكتيا كلها فسوف أعدد أهم الأسلحة – الجديدة –
التي وجدتها فيه مقارنة بما كان موجودا في العام 1979م .

أولا المدفعية

* مدفع واحد أوبوس عيار 122مم روسي الصنع من الغنائم
* مدفع واحد جبلي عيار 76مم روسي الصنع من الغنائم
* مدفع عديم الإرتداد عيار 82مم صيني الصنع من الصين
* هاون غرناي عيار 105مم مصري الصنع من مصر

ثانيا المضادات الجوية

* عدد 2صاروخ أرض جو سام7 بجهول الصنع من مصر .

هذا بالإضافة إلى عدد من بنادق كلاشنكوف مصرية وصينية ، بحيث أصبحت البنادق الإنجليزية الـ
قديمة من طراز لي انفيلد قليلة التواجد في الأيدي نسبيا .

ولم تكن الدفاعات الجوية تحتوي إضافة إلى صاروخي سام إلا على رشاش دوشكا عيار 12.7مم روس
ي الصنع وكثير الأعطال أيضا وكالعادة .

أما هاون عيار82مم الذي كان نحم 1979م في نفس المنطقة فلم أشاهده ويبدو أنه أصيب .كان
في المركز حوالي أربعين مجاهدا ، وكنا في شهر شعبان ، لذلك كان العدد مرشحا للإنخفاض وهذا م
ا حدث فعلا . وقد هاجم العدو مركزنا هجوما كبيرا في اليوم الثالث من رمضان وكان هدفه ا
لأول تدمير المدافع وهدفه الثاني دفعنا إلى الخلف لتأمين المدينة . ولكنه أخفق في كلا الهدفين

.

ولكننا أيضا أخفقنا في إصابة إحدى طائراته بواسطة صاروخ سام . والأرجح أن سام هو الذي
أخفق فقد تمت الرماية في ظروف مثالية ومسافة مناسبة تماما ضد طائرة هيلوكبتر من –
24 . ومر الصاروخ على
بعد عشرة أمتار من ذيل الطائرة بدون أن يبذل أدنى مجهود في متابعتها –
والأرجح أن جهاز الصاروخ للبحث والمتابعة لم يكن يعمل –

وفي الواقع أن معظم صواريخ سام التي أرسلت إلى أفغانستان كانت تعاني من نفس العيب وقد
أفاد أحد الخبراء في هذا المجال بأن تلك الصواريخ قديمة ومخزنة منذ فترة طويلة وأن الأجهزة ا
لدقيقة داخل الصاروخ تتلف بعد مدة محدودة . وعلى أية حال فإن صواريخ سام أوحت إلى المجا
هدين بفكرة عبقرية وهي استخدام القذائف المضادة للدروع الآر بي جي ضد الطائرات الهيل

وكبتر بوجه خاص . وكانت النتائج ناجحة جدا فقد أخافت تلك القذائف الطيارين ، وأحرزت نفس نسبة إصابات صواريخ سام7 فلم تسقط أي طائرة .
كانت الحملة العسكرية ضد مركزنا من الطراز التقليدي ، واستغرقت نهارا واحد من بعد صلاة الفجر إلى قرب المغرب . بدأت بالقصف المدفعي الشديد على مركزنا وعلى المناطق التي سوف تحتلها القوة في بداية المعركة . وفي العاشرة صباحا بدأت أفواج من سكان القرى تأتي للمساعدة في صد القوات الحكومية . وكان منظرا مؤثرا للغاية . فقد سمعوا قصف المدفعية الشديد وفهموا –
بالتجربة – أنه هجوم واسع . فحضروا مع بنادقهم القديمة يسألون عن مكان العدو كي يتوجهوا إليه . وكان مقاتلوا كل قرية يتوجهون في كتلة واحدة صوب المكان المحدد. سكان بعض القرى جاءوا بالطبول يقرعونها بقوة ويلوحون بالبنادق القديمة . كانت صورة تاريخية للحروب القديمة محفوظة في المتحف التاريخي لأفغانستان . كان تعداد مركزنا قد انخفض قبل الهجوم بسبب مغادرة المجاهدين إلى قراهم حسب تقاليدهم الثابتة ، فانخفض عددنا إلى أقل من النصف . ولكن عند الظهر فإن عددنا كان أكبر من مقداره الأصلي ، وكثيرون أخذوا مواقع أمامية للدفاع عن مركزنا ولم نكن نعرف أكثرهم ولكن جميعهم كانوا من مناطق الجوار . كان مشهدا مؤثرا وغنيا بالدلالات ولم أشهد مثله أبدا بعد ذلك بل شاهدت عكسه تماما في عام 1990م عندما توافد الناس من باكستان لنهب المدن المفتوحة وقد ظنوا وقتها أن خوست على وشك الفتح . فجاءوا في عشرات من السيارات وصنات أو آلاف من البشر ولحسن الحظ فإن المدينة لم تفتح وقتها .
لم يقتل أو يجرح أحد من أفراد مركزنا – ولكن بعض سكان القرى قد جرحوا – وكنت مع رشيد والشباب الباكستانيين الذين معنا وعددهم حوالي خمسة أشخاص تقريبا . كنا جميعا مرشحين بجدارة كي نكون ضمن عدد القتلى في ذلك اليوم . وإذن لخسرت أفغانستان أول مجموعة دولية من المتطوعين المسلمين ، ولا أدري كم كان ذلك سوف يؤثر على مسيرة الجهاد الطويلة في أفغانستان ، وهل كان تأثيره سوف يكون سلبيا أم إيجابيا على ذلك الجهاد – الله أعلم – فالمهم أننا لم نقتل .
وفي الواقع أن الصاروخ سام7 قد وضعنا جميعا في مأزق خطير فقد حملنا الصاروخين ، وتسللنا إلى سفح جبلي منبسط مواجه لسهل جرديز ، وكمنا لطائرتين مي – 54 كانتا تصبان حممها على الخط الأول للمجاهدين . كان أحد الصاروخين جاهزا للإستخدام وكان رشيد هو الذي يحمله وكنت أقوم بدور مساعد الرامي ، بينما الشباب الآخرون يحملون الصاروخ الثاني ويقومون بالحماية من قريب . كما ذكرنا مر صاروخنا مرور الكرام من خلف ذيل الهيلوكبتر الأخيرة . واصلت الطائرتان سيرهما إلى نهاية الوادي وانحرفت الأولى عائدة إلى المدينة أما الطائرة الأخرى
فقد استدارت راجعة ، توجست شرا من تلك الإستدارة ، أما رشيد فقد جن جنونه وانتابته عصبية شديدة حتى أنه فشل في تركيب البطارية الخاصة للصاروخ الثاني –
وهي عادة تركب بسهولة ونتيجة للعصبية استعصت –
وتجمع الشباب حول الصاروخ ولكي طالبت بمغادرة المنطقة بسرعة ، رفض رشيد ورفض الآخرون ، بل أنهم أعطوني بنادقهم حتى يتفرغون لهذا الصاروخ وبطاريته المشاكسة ، كان تكدسا خطرا ومحزنا . حلقة من الشباب تصارع صاروخا كأنه بغل جامح . لم أرفع نظري عن الهيلوكبتر وبات واضحا –
لي فقط – أنها تتوجه إلينا . ومن جانبي أرسلت إلى المجموعة ببانات مقتضبة وتحذيرات ولكن لا مجيب . مصحت المنطقة بعيني لاختيار المكان المناسب أن أتواجد فيه خلال الأزمة القادمة لا محالة بعد ثوان . وعدت بنظري إلى الطائرة . وخيل إلي أن نظراتي التقت بنظرات الطيار وبالها من نظرات ، إن أحدنا على وشك أن يقتل الآخر . ولم أكن أنا سوى القتيل . لم أرفع نظري عن خصمي وأنا أصيح في جماعتنا بصوت كالرعد ولكن بلغة إنجليزية سليمة إجر . وتابعت الجري بالعمل وجريت في اتجاه متعامد على خط اقترات الطائرة – ولم أدر هل كان ذلك بناء على تفكير سليم مسبق أم أن قدماي قد اكتسبتا خبرة – إضافة إلى غريزة فطرية قوية في التفكير السديد واختيار المكان المناسب في الموقت المناسب .
تحركت بسرعة لا بأس بها إذا وضعنا في الإعتبار أنني كنت صائما كما أنني كنت أحمل على كتفاي المجموعة كلها تقريبا . أما باقي المجموعة فقد تحركت إلى أعلى السفح حيث كتلة ضخمة سوداء ، من الصخور ، لقد غامروا بالتحرك في نفس خط تحرك الطائرة ، ولكنهم نجحوا في الحصول على مكان أفضل من الذي فزت به . فقد وجدت نفسي محشورا في شق ضيق حفرته مياه السيول وعمقه أقل من قدم ولكنه طويل جدا . ولمدة عدة قرون وهي المدة التي تخيلتها للمعركة غير المتكافئة بيني وبين الهيلوكبتر كانت معركة من جانب واحد كما هو واضح
. كانت المعركة صراع بقاء ومنافسة بين أفضل تكنولوجيا عسكرية في عالم طائرات الهيلوكبتر و بين غريزة الإنسان في التخفي والإختباء النابعان من حب البقاء . لقد تغطيت بالرداء الأغبر الذي الباتو وحاولت المناورة بالزحف وتغيير مكاني بين كل زخة نيران ترشقها الطائرة على جانبي الحفرة . وبعد كل تغيير أتلقى عددا آخر من الزخات كدليل على أن رامي الرشاش يراني بوضوح كامل .

ومن حسن الحظ أن هذا الطيار الحاقد كان قد أفرغ صواريخه جو أرض في رمياته السابقة عل
ى مجاهدينا في الخط الأول وإلا فإني وإخواني عنه الصخرة كنا قد فزنا بمنازل الشهداء في يوم
الثالث من رمضان عام 1401هـ . وبإنه من يوم مبارك ولكننا لم نكن في المستوى اللائق لنيـ
ل درجة الشهادة ، لا في ذلك اليوم ولا في أي يوم جاء بعده حتى لحظتنا هذه . نجحنا في مغادرة
المكان بعد انصراف الطائرة التي أفرغت كل مخزونها من الطلقات حتى أصبحت خالية من الذخيرة

.

ووقتها قعدنا في أزمة من القصف المدفعي وعادت الطائرات بعد ساعة أو أكثر . ولكن القوا
ت الحكومية تجمدت في أماكنها ثم تراجعت تماما بعد العصر . وحامت الطائرات النفاثة فوق مو
اقعنا لكنها لم تشارك في الإحتفال لسبب مجهول .
وهكذا فشلت التكنولوجيا - متمثلة في صاروخ سام7 -
في أن تتوائم معنا . وتكرر ذلك معنا في السنوات التالية مع أجهزة أخرى
ومناسبات مختلفة . إلا أن الحادث المذكور ظل أخطرها . ولم تمض سوى أيام حتى اكتمل الدرس أم
ام أعيننا ، وظهر سلاح آخر - ضد الطيران أيضا -
لا يعتمد على التكنولوجيا ولكن اعتمد على عوامل غيبية نعجز عن فهمها . ولنضع هذا الحا
دث إلى جانب حادثة سام ثم نقارن .
في التاسعة صباحا من ذلك اليوم الرمضاني المشرق كان جميع من في المركز نائمين . فلا نوم تقـ
ريبا أثناء الليل . كنا في خيمة أعلى الجبل . صوت الطائرة النفاثة مر تماما فوق الخيمة
فأثار ذلك فزعنا ونقمتنا . أحد المجاهدين دخل الخيمة غاضبا واستل مسدسه وأطلق عدة طلقـ
ات في أعقاب الطائرة النفاثة . فلم أمالك نفسي من الضحك . وحتى الآن أبتسم كلما تذكرت
الموقف .
دارت الطائرة وهي تتمايل حول قمة جبلنا ولكن على ارتفاع مناسب ربما تفاديا لمسدس صديقـ
نا . انصرف الطيار بعد أن استعرض مهارته في إغاظتنا . اختفى ولم يرم علينا قنابله رغم
أننا لا نشك في أنه رآنا . لعبت الوساوس في رأسي وسألت رشيد عن رأيه فيما حدث ، وبالأح
رى فيما سوف يحدث . وجدته هو أيضا في قلق ويتوقع شرا . فاقترحت أن نفعل شيئا تحسبا للأمر

.

من أعلى الجبل الحائط نزل بسرعة رجل يحمل رسالة من رشيد إلى المجاهدين في المركز بالإنتشار
وتجهيز الدشكا للطوارئ . وبعد عشرين دقيقة تماما من اختفاء الطائرة الأولى
ظهرت ثلاث طائرات واضحة الضخامة ذات لون رمادي - على
غير عادة الطائرات الشيوعية ذات اللون الفضي -
تعرف رشيد على الطائرات بأنها من طراز ميج -
23 . مرت الطائرات من فوق خيمتنا البيضاء ثم شكلت حلقة تدور حول قمة جبلنا . لم يعد
هناك مجال للتخمين ، لقد جاء الكبار للقضاء علينا . لم تكن الطائرة الأولى سوى صبي شقي
نقل الخبر إلى إخوانه الكبار . كل من يحمل سلاحا منا أطلق في اتجاه الطائرات ، تعرف أننا لـ
ن نصيبها ، ولكننا سوف نقتل على أية حال ، فهكذا تصورنا .
كمن رشيد مع صاروخ سام ولكني لم أكن مستعدا لتكرار المأساة ورأيت أن الكلاشنكوف أكثر مص
داقية وبدأت في استخدامه ضد الطائرات . بعد عدة دورات اختفت الطائرات الثلاثة في اتجاه
الغرب ، ولعدة دقائق حبسنا فيه الأنفاس فنحن على
يقين بأنهم سوف يعودون ولكن كي يقصفونا مباشرة بلا أي لف أو دوران . وأخذت أتلو كل ما
أعتقد أنه ينفعني عندما ألقى الله بعد دقائق معدودة .
سمعنا صوت طيران بعيد نسبيا ثم تكبيرة هائلة من القمة القريبة يطلقها مجاهد أخذ يتقافز ط
ربا وصائحا زنده باد إسلام ثم صوت انفجارات تأتي من جهة الوادي .
أسرعنا إلى القمة القريبة فكان منظرا لا يصدق . الطائرات الثلاث التي نتوقع أن تقصفنا ت
قوم بعمل غير معقول إنها تقصف مواقع العدو على جبل كوكاراك على بعد حوالي عشرة ك
يلومترات فدمرتها شر تدمير . كانت مواقع العدو تستخدم للترصد وحماية مدخل الوادي الجنوبي
، فالجبل منيع ومرتفع ويقع معظمه في الوادي بحيث يسهل الدفاع عنه وتموين قواته . كانت ت
لك هي المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها عملية قصف جوي بهذا الجمال . كان منظر الطائرات
رائعا وهي تدور ثم تنقض على
هدفها ثم أعمدة الدخان والنار تتصاعد من الإنفجارات . وما أن تفرغ طائرة من انقضاضها
حتى
تتبعها الثانية ثم الثالثة . ولا يمكن تصور حالة الذعر التي أصابت القوات الشيوعية فوق
الجبل ، لأن آخر ما كانت تتوقعه هو أن تتعرض لقصف جوي . وقد وصلتنا في اليوم التالي معلـ
ومات عن خسائر العدو وأقل ما توصف به أنها كانت فادحة .
ذلك هو العامل الغيبي الذي لم يحطم طيران العدو ، بل حوله إلى العمل لصالحنا . ولم أشهد حـ
ادثا مثل هذا بعد ذلك . ولكن شاهدت فيما بعد كيف مكننا الله من تدمير طائرات العدو ، و
لذلك قصص أخرى .
بعد عدة أيام بدأنا في تجهيز غارة بتيران الهاون الغرناي المصري . استطلعنا منطقة بنو

-

زاي عدة مرات لهذا عبرنا قرية دارا في كل مرة . ويبدو أن العدو شعر بذلك . وفي يوم تحرك نا لتنفيذ العملية وأثناء عبورنا للقرية فوجئنا بدفعيات العدو تصب حممها فوق رؤوسنا . كانت إرشادات رشيد السريعة نافعة جدا في إفلاتنا من الكمين . لقد جرى شرقا وتبعناه بسرعة وكانت القذائف تنهمر أمامنا وخلفنا وإلى جهة الغرب . وما أن أفلتنا من منطقة النيران حتى كانت طائرات الهيليوكبتر تبحث عنا . استمرت كذلك نصف الساعة ثم عادت أدراجها . كان تنسيق عملياتنا جيدا . فقد كانت مجموعة من المجاهدين تحرس المكان الذي سوف نستخدمه في الرماية من الصباح ومجموعة أخرى تقلت الهاون والذخائر على ظهور البغال . ومجموعة ثا لثة رافقت رشيد إلى الموقع المنشود . بدأت رماياتنا قرب العشاء — فقد اكتشفنا أن المدفع مازال مشحما ولم ينظفوه من الشحم قبل إحضاره . رد العدو على نيرانا بكثافة ولأول مرة أشاهد القنابل الفسفورية ، وقد أحرقت الجبال من خلفنا . لم يستطع العدو تحديد مكاننا بدقة ، والأغلب أنه ظن أننا نستخدم المدفع الجبلي وهو أطو ل مدى من الهاون غرناي لذلك كانت رمايات العدو خلفنا بمسافة كبيرة نسبيا . أظنها كان ت المرة الأولى في استخدام ذلك الهاون ، ولم أشاهده بعدها في يد المجاهدين إلا في السنتين الأخيرتين .

ركبنا الشاحنة العسكرية وتحركت بنا على الطريق الأسفلتي لمدة نصف ساعة ثم نزلنا إلى السماوات إلى جانب الطريق . بعضنا كان مفطرا فتناول الشاي الأخضر وآخرون انهمكوا في شراء بعض البسكوت الحجري كنوع من الترفيه على وجبة الإفطار . كانت القوافل المتجهة نحو الشمال أو القادمة من هناك تمر من هنا بين الفينة والأخرى .

كانت سرانا على بعد عدة كيلومترات فقط إلى الغرب من تلك المنطقة على الطريق العام . انتحيت جانبا وتغطيت برداءي حتى أفوز بقسط من الراحة في أحد أجناب الد كان . لم أكد أذهب في غيبوبة النوم حتى استيقظت على صياح رشيد وهو يقول ضاحكا » يا إله ي أنت هنا ؟« . قالها بالإنجليزية فأدركت أن أحد الصحفيين الأوروبيين من الذين تعرفوا على رشيد قد عاد إلى هنا مرة أخرى . وقد أجاب ذلك الوافد بالإنجليزية على دهشة رشيد بتساؤ ل أكثر غرابة » يا إلهي ... وأنت مازلت حيا؟« .

بعد دقائق كانت أتعرف على رفيع الله ... وهو مصور تلفزيوني من استراليا ... أسلم منذ ذ أربعة عشر عاما ، وحضر منذ أشهر وصور فلما عن المجاهدين وعرضه في تلفزيون بلاده . وقد لاقى إعجابا كبيرا . لذا فقد عاد مرة أخرى ، ومعه مصور آخر جاء لمساعدته . تعرف رفيع الله على رشيد أثناء زيارته السابقة .

في هذه الزيارة أحضر له بعض الخرائط لمنطقة باكتيا ، وزوج من أجهزة اللاسلكي الصغيرة تو كي وكي . سمع رفيع الله أن هناك استعدادات لمعركة كبيرة في تعمير غرب جرديز وصمم على أن يبقى حتى تصوير المعركة على شرط ألا تتأخر كثيرا .

لقد أثار رفيع الله في نفسي الكثير من الشجون تدور محور رئيسي وهو أين العرب ؟ . فهذ ا هو روفائيللو الإيطالي الأصل والمسلم فقط منذ أربعة عشر عاما يفجر حماسا وحيوية للجـ هاد في جبال أفغانستان ، وهذا هو رشيد والفتية الخمسة معه يصارعون الطائرات والدبابات بحيوية وحماس ، فأين العرب في الإعلام ... وفي القتال ... وفي كل شيء ؟ ... لماذا هذا الموت والركود ... والتعامل مع الجهاد كما يتم التعامل السلبي مع المسلسلات التلفزيونية . وم تى يدرك العرب أن الجهاد في حاجة إلى الجهد والدم والمال ... وليس مجرد بضعة دريهمات ، بخر ج كرامة المسلم أكثر مما تعينه على خوض حرب حقيقية .

قالها لي مرة أحد أصدقائي في أبو ظبي »لقد دفعنا الكثير للمجاهدين في أفغانستان ... فأين هي الإنتصارات والفتوح« ... فسألته »هل حاولت مرة واحدة أن تحسب كم يكلف اشتباك يستد غرق دقائق معدودة مع طابور تشبوعين ؟ « . لم يرد جوابا لأنه لم يكن هناك ولو تنصف ساع ة . وحتى نهاية الحرب كان القليل جدا من العرب الذي أدرك فداحة التكلفة المالية للمعارك . وكلما تقدمت مراحل الحرب زادت تكلفتها . فالمعركة في بداية الجهاد يمكن خوضها بعدة طل قات كما ذكرنا ، ولكن في وسط الحرب حيث الأسلحة الثقيلة والمجموعات الكبيرة لا يمكن مقارنتهـ ا بمراحل البداية من حيث التكلفة ... أما إذا دخلت الحرب معركتها الحاسمة وبدأ المجاهدون محاولات اقتحام المدن ، فتلك قصة أخرى لا يكاد يتصورها المسلم العادي من حيث هول المعركة ولا من حيث تكلفتها .

لهذا ننوي الحديث بشيء من التفصيل حول هذه المرحلة عند حديثنا عن فتح مدينة خوست . وحتى نكون منصفين لا بد من الإعتراف بفضل الأنظمة العربية التي مسخت شخصية مواطنيها ، و أرضعتهم الذلة والمهانة والخوف مع حليب أمهاتهم .

لم يكن رفيع الله يخشى شيئا عند عودته إلى بلده استراليا ولم يكن يخشى شيئا في باكستان لا في المطارات أو الفنادق والشوارع . ومنا نعترف أيضا أن الإنسان الغربي — كافرا أو مسلما — هو إنسان حر إلى درجة خيالية إذا قارناه بالإنسان العربي — خاصة — ونعترف أننا عندما حضرنا إلى أفغانستان كنا نتلفت خلفنا وحولنا ونحتبس أنفاسنا في كل محطة للحركة . في المضارات في الطرقات . كنا نتوقع دوما نظرات المخبر أو بده الثقيلة عندما تهبط كالمصيبة على كتف أحدنا .

لم نكن نشعر بطعم الحرية إلا بعد مغادرة آخر نقطة على الحدود الباكستانية . كان الهواء يـ
صبح أكثر إنعاشا ، وتختلف مناظر الجبال وطعم الحياة ، حتى كسرات الخبز الجافة تصبح لذيذة
ومشبعة . كنت أظن في البداية أن تلك المشاعر خاصة بي وحدي ، حتى وجدت أحد إخواننا العر
ب يتلفظ بها كما كانت تدور في ذهني تماما . لقد كان لتلك المشاعر أثر كبير على سلوكيات وتـ
فكير الشباب العربي الذي توافد على أفغانستان في النصف الثاني من مدة الحرب . كانوا يكـ
تشفون أنفسهم ومواطن قوتها عندما يستعيدون حريتهم في جبال أفغانستان فكانوا أكثر بأسا
في القتال حتى من الأفغان أنفسهم . وكانوا أكثر غيرة على مصير أفغانستان وعلى نقاء الإسلا
م على أرضها ، وعلى إسلامية نظامها القادم أكثر من معظم الأفغان ، بل أكثر مما يحتمله !
لظرف الزامن وقتها . وأكثر من طاقة الأفغان أنفسهم على الفهم والتطبيق . وكان ذلك سبـ
با ـ رئيسيا فيما أعتقد ـ
من أسباب الفجوة التي ظهرت بين العرب والأفغان ، وتطرف المواقف العربية داخل أفغانستان
.

رفيع الله
الحر الطليق ذكرني بعبوديتنا للحكام والأنظمة . كنت أرثي لحالي . وحال إخواني . العديد
من ليالي رمضان داخل خيمتنا التاريخية على ظهر الجبل الخانق قضيناها في الحديث الثلاثي بيـ
ني وبين رشيد ورفيع الله ـ
أما المصور الآخر وقد كان نصرانيا ، فقد كان يفضل النوم أو الصمت .
حكى لنا رفيع الله عن عمله التلفزيوني وأسرته مزرعته الصغيرة والخيل التي يربيها وعشقه لـ
لفروسية . رأيت فيه إنسانا شجاعا ونبيلا وذكيا لا يتلون أو يخادع .
لم نلبث إلا عدة أيام حتى تحولنا إلى شامي كوت وهي قرية ساحرة جنوب وادي زورمات ومقابلة
تماما لمركز تعمير ـ الهدف القادم للمجاهدين ـ . شامي كوت قرية جبلية ولكنها وفيرة المياه
وخفية ويطول وصفها . ويمكن القول أنها إحدى الجنات المجهولة التي تزخر بها أفغانستان ، بيـ
وتها جميعا طالها الدمار الكامل أو الجزئي . كانت أشجار التوت والمشمش تملأ الطرقات الضيقة
وأفنية البيوت المهجورة . وكميات هائلة من الثمار مطروحة أرضا لا تجد من يلتقطها . وجـ
دنا في القرية أسرة واحدة فقط . مجاهد واحد مع زوجته وطفل وطفلة كلاهما تحت السادسة من ا
لعمر يقفان في ذهول وسط الطرقات المقفرة . والحقول الملينة بالأعشاب البرية الموحشة . كان
منظر الطلقين لا يقل وحشة وحزنا عن منظر القرية المدمرة .
تمثلت هذا المكان قبل الحرب وكم كان مرح الأطفال وسعادتهم في وسط كل هذه الأشجار المثمرة الـ
ظليلة وجداول الماء التي تروي العطش ولا يرتوي منها النظر . تخيلت أطفالي لو جاءوا معي إ
لى هذا المكان ، وتبسمت لهذا الخاطر . كم كانت صعوبة أن أجمعهم مرة أخرى من فوق الأشجار و
جداول الماء ، وحتى من الحقول المهجورة ذات الأعشاب الوحشية .
زارنا جلال الدين في القرية وعقد جلسة شورى موسعة مع مجاهدي المنطقة وما تبقى من السكان
، وأخبرني عن وفد ذهب إلى باكستان كي يقنع أهالي شامي كوت بالعودة التدريجية على أن يعـ
ود الرجال أولا مع بعض النساء لزراعة الأرض .
أفلحت مجهودات التشبث بالأرض لفترة محدودة ثم انهارت للأسباب التي ذكرناها . وقد عدت مرة أخـ
رى
إلى شامي كوت عام 1988م . ولم أجد فيها سوى المجاهدين فقط وبدون أثر لحياة مدنية للسكان
.
إنها سياسة الأرض المحروقة التي تكاتف على تنفيذها السوفييت وقادة الأحزاب في بيشاور مع المـ
نظمات الإنسانية وسياساتها الخبيثة .
بالتدريج بدأت تتضح فكرة الهجوم على مركز تعمير . وكما ذكرنا فإن الروح المعنوية كانت
في قمتها . فضربات المجاهدين ناجحة باستمرار والمبادرة العسكرية في يدهم دائما ، والعدو
في حالة إحباط ومجماته فاشلة ، وسلاحة الجوي يبدو كأنه فقد تأثيره حتى تعود الناس على الا
فلات منه وتحمل تواجده كضيف ثقيل ... ضار أحيانا .
عقدت العديد من جلسات الشورى داخل بيوت شامي كوت المدمرة تمتعت خلالها بأكل أكبر وأشهى
كمية من فاكهة المشمش والتوت . كنت مسرورا أكثر من أي شخص آخر . ليس من أجل الفاكهة
فقط ، ولكن لكوني أرى اتحادا حقيقيا بين المجاهدين ، اتحاد يتخطى القبيلة والحزب . لم أكن
واهما في ذلك فقد أثبتت معركة تعمير أن ما كنت أراه كان حقيقة . فالمعركة كانت أكثر من
رائعة . وكانت أكبر تحدي للسوفييت في باكتيا . القتال كان في منتصف وادي زورمات فسيح الأ
رجاء ، حيث الغلبة العسكرية لمن يسيطر على الجو ويمتلك الدبابات . المعركة أثبتت العكس
. الكفة كانت للمسلمين المتحدين الشجعان الفدائيين .
ربما كانت معركة زورمات سببا في وقوعي في خطإ فادح في حساباتي الأفغانية ، فقد ظللت أعتقـ
د حتى لحظة فتح كابل ، أن هناك قوة خفية مخلصة ومتحدة من المجاهدين الأفغان سوف تلتقي في ا
للحظة الحاسمة وتفرض حلا إسلاميا في أفغانستان رغما عن الأحزاب وما تمثله من تدخل أجنبي صلـ
بي يهودي في شؤون أفغانستان . كان ذلك هو الوهم الأكبر الذي ظل يلازمني . وأظنه كان أكبر
أخطائي في تلك السنوات ومن فوائد ذلك الوهم أن ساعدني على الإحتفاظ بمعنويات عالية حتى
في أحلك الظروف .

تجمع قادة المجموعات في أيام وليالي رمضان يتناقشون ، وتجمعت الإمكانات وكانت الحصيلة مذهلة بمقياس ذلك الوقت ، تجمعت لدى المجاهدين ست دبابات إضافة إلى عدة مدافع ميدان عيار 122مم ومدافع جبلية عيار 76مم . إضافة إلى عدد كبير من المجاهدين شاركوا في العملية . لقد تأ خر الإتفاق كثيرا ولم تنفذ العملية إلا بعد عيد الأضحى . وانتهاء جميع المناسبات الدينية ا لتي تستدعي إجازة إجبارية من العمليات . فلم أستطع حضورها .

وأبلغني رشيد بنتائجها تلفونيا كما تلقيت رسالة كتابية من حقاني حول نتائج المعركة . وبعثت بها إلى جريدة الإتحاد مع شرح موجز لأهمية نتائج المعركة والتحديات الخطيرة التي تمثلها . لقد تركت تلك المعركة تأكيدا في نفوس من خاضوها بأن الروس قابلون تماما للهزيمة — وهي نتيجة كان من العسير إقناع الناس بها —

فبقيت حكرا على المقاتلين فقط . لذلك اختلفت كثيرا حسابات خطوط القتال مع حسابات بيشاو ر والمتعاونين معها . وأظنني تبنيت وجهة النظر الأول

وتصادمت بشدة مع معتنقي الرأي البيشاوري .

كونت رأيا مفاده أن المساعدات يجب أن تصب مباشرة في الداخل وأن يتواجد المتطوعون العرب هناك ، كي يقوموا بمهمة مزدوجة . فمن جهة يساعدون على

إقامة اتحاد حقيقي بين المجاهدين الحقيقيين . ومن جهة أخرى ينظمون أنفسهم ويقاتلون إلى جانب إخوانهم الأفغان .

وكنت مازلت أرى

أن دور الإخوان مازال ضروريا لتنظيم العمل العربي نفسه . ولم أجد أمامي بديلا عن الإخوا ن . فتابعت الجري خلف ذلك السراب حتى أفقت على ضربات مؤلمة فوق رأسي من الإخوان أنفسهم ، أعادت إلي إبصاري من جديد . وفهمت بعضا من حقائق الحياة المؤلمة ولم أسترد وعيي إلا في عا م 1984م بعد لقاء لي في بيشاور مع الأستاذ مصطفى مشهور وهو من قيادات الإخوان في مصر .

لقد أقنعني الرجل تماما أن هناك فرقا بين 48 و 84 . إنه تبدل كامل لمواقع الأرقام . وتبـ ديل كامل ليس لمواقف الإخوان بل للإخوان أنفسهم . شتان شتان بين إخوان 1948م أولئك الأبط ال المجاهدين ، وإخوان 1984م أصحاب الدور المتواضع في ركاب القوة الأمريكية المهيمنة على شؤون العالم . لقد قام الإخوان بذلك الدور الذي يناسب مؤهلاتهم الحالية . قاموا به في س وريا ثم في أفغانستان في عقد الثمانينات . باعوا قضيتين جهادتين لحساب السياسة الأمريكية . وباله من دور إسلامي للجماعة التاريخية الأم .

عن معركة تعمير مرة أخرى استمرت المعركة خمسة أيام متواصلة . حوصر فيها الموقع ، وحاو لت قوة عسكرية من جرديز القريبة أن تفك الحصار فأوقعها المجاهدون في كمين ودمروها . واست مرت المعركة أربعة أيام إضافية فتح فيها المركز وأمامي الآن قائمة الغنائم وكانت دبابتين سنيمتين من طراز تي — 54 ومدفعين من عيار 76مم مع 3 رشاشات ثقيلة من طراز دوشكا و 7 صناديق قنابل يدوية و 122 ألف طلقة كلاشنكوف و 6 رشاشات خفيفة مع عدة سيارات محملة بالأغذية والملابس الشتوية ة كان النشاء على الأبواب وقد جرح حقاني في هذه المعركة ومعه 44 جريحا آخرين . أما ع دد الشهداء فكان ثلاث عشر شهيدا .

استمر المجاهدون في وادي زورمات أكثرمن شهرين — قبل وبعد العمليات — وقطعوا تماما الطريـ ق بين جرديز وغزني وقطعوا أيضا اتصال جرديز مع كابل . أي أن جرديز قضت فترة من الحصار البري الكامل . وفشل الروس في تطهير وادي زورمات الفسيح طوال عدة أشهر بل فشلوا في صد ه جمات المجاهدين على مواقع رئيسية في ذلك الوادي وفي مقدمتها مركز تعمير .

هل كان ذلك يعني شيئا آخر سوى أن السوفييت ليسوا سوى نمور من ورق وأنهم قابلون للهزيمة ؟

. لقد ولدت تعمير وترعرعت فكرة المدن الكبيرة . وبعد أن كانت طيفا شاحبا قبلها ، أصبح ت بعد تعمير فكرة معقولة . لم تبارح تلك الفكرة الطموحة ذهن جلال الدين حقاني ، وسوف نـ تحدث عن نمو تلك الفكرة وتطورها في برامجه العسكرية حتى حقق أكبر إنجاز عسكري في حرب أفغانسـ تان متمثلا في فتح مدينة خوست .

هذا الكلام يتعلق كثيرا بما ذكره محمد يوسف في كتابه فخ الدب وادعاءاته — كضابط ثابرات — بأن أفكار الدفاع الثابت عن القواعد الإستراتيجية للمجاهدين كانت فكرت ه ، وأنه ساند مشروعا للهجوم على خوست عام 1985م قام به المجاهدون ولكنه تكلل بالفشل .

. وسوف نتعرض لكل ذلك في حينه .

ظهرت أهمية باكتيا أمام ناظري بالتدريج ، ليس فقط من خلال المعايشة الميدانية لكن من خلا ل مناقشات مطولة مع ثلاث شخصيات لها ثقلها العسكري والفكري . وهم جلال الدين حقاني وما يمثله من ثقل ديني وعسكري وسياسي داخل باكتيا وما حولها . والرائد رشيد الذي قابلته عـ ام 1981م وقد كان رجل عصابات بفطرته . ثم الرائد جولزراك المدرس السابق بالكلية الحربيـ ة في كابل ، والذي عمل لفترة مستشارا عسكريا ومساعدا ميدانيا مع جلال الدين حقاني . وأ ظنها كانت أكثر فترات حياته العسكرية خصوبة وثراء . وقد انتهت تلك الفترة عام 1985م عـ ندما التحق جولزراك بالجهاز العسكري للإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان الذي يقوده سياف ح يث دفن جولزراك كرجل عسكري وتحول إلى العمل البيروقراطي في بيشاور .

وحيث أن الإستراتيجية تتعامل غالبا مع الثوابت خاصة الثوابت الجغرافية التي يصفها البعض بأنها المادة الخام للإستراتيجية ، فلم يكن غريبا أن أجد تأكيدا لأهمية باكتيا فيما ورد في كتاب فخ الدب مضافا إليها أرقاما ذات دلالات عن نسبة الإمدادات التي ضختها المخابرات الباكستانية عبر تلك المحافظة .

لذا فقد شهدت باكتيا عددا من أعظم معارك الحرب الأفغانية ولكنني أدعي بأن مصير الحرب الأف غانية قد تحدد في معظمه فوق جبالها العتيدة وعلى أيدي مجاهديها من رجال القبائل الأشداء وقادتها الأفذاذ . وكان من الممكن التنبؤ بذلك منذ سنوات مبكرة جدا من الحرب . وقد ذكرت ذلك في أحد التقارير الميدانية التي نشرتها جريدة الإتحاد في 10 / 12 / 1982م حيث وردت فقر ة أقرأها الآن وأشعر بالإستغراب لكونها وردت في تلك الأوقات المبكرة فكانت مثل النبوءة ا لتي سبقتها إرهاصات كانت واضحة للبعض وأغمض كثيرون أعينهم أو أهالوا عليها التراب لأسبا ب عديدة . تقول عبارة في ذلك التقرير » خوست ... اسم لمدينة أفغانية كبيرة تقع على الحدود الجنوبية الملاصقة لباكستان وهي غير مشهورة في الخارج شهرة وادي بانشير أو نفق سالانج ولكنها بتواضع جم تبدو وكأنها سيتحدد فيها جانب كبير من مصير الحرب الأفغانية ، وبعيدا عن الأضواء تجري هناك أشرس معارك صراع البقاء« .

وأظنها أحد النقاط الهامة في ذلك الكتاب . ألا وهي إلقاء بعض الضوء من قريب على بعض هذه المعارك . والنتيجة المترتبة على ذلك إثبات أن النظام الشيوعي قد انهار بفعل المعارك التي دارت في باكتيا خاصة معركة فتح خوست التي دمرت النظرية الأمنية للنظام الشيوعي فانهار بعد عام تقريبا من تلك المعركة .

لقد حاول البعض الطعن في تقييمنا لأهمية باكتيا – ومناداتنا المبكرة بضرورة مساندة المجاهدين فيها باعتبارها البوابة الصخرية لأفغانستا ن –

وحاول سياف أن يطعن في كل ذلك وصور لأتباعه من العرب أن ذلك التقييم نابع من صداقتي مع جلال الدين حقاني وأنها مجرد آراء شخصية ...

ولكن سياف عندما حاول أن يصنع له مجدا عسكريا لم يجد سوى باكتيا وكانت قصته مع جاجي . ثم ترتب على مغامرته استدراج ذلك التواجد العربي المركز في جاجي الذي نتج عنه معارك جا جي العربية عام 1987م وبروز أبو عبد الله أسامة بن لادن على مسرح الأحداث العسكرية في أف غانستان . وما ترتب على ذلك من تطورات أفغانية وغير أفغانية على ذلك الظهور .

لقد كانت باكتيا هي عضن التواجد العربي الحقيقي على الساحة العسكرية في أفغانستان . و فرض ذلك حتميات الجغرافيا أكثر من القناعات والدراسات – التي لم تكد تظهر في أوساط العر ب المجاهدين – . وأظن أن ما كتبته عن ذلك الموضوع سواء في الصحف – مثل الإتحاد وغيرها – أو التقارير الخاصة التي وزعناها على بعض المهتمين والأصدقاء لم يكن لها تأثير يذكر على مسيرة الحركة العربية ، ناهيك عن الأفغانية . ولكن تحركنا الصغير ظل ملتزما بقوة بتلك النظرة وأحرز بعض الإيجابيات والنجاحات على ساحة باكتيا العسكرية كما سيأتي ذكره فيما بعد .

وقبل أن نستعرض بعض الكتابات حول باكتيا ، أحدها تقريرا كنت قد كتبته عام 1984م وبعـ صها فقرات وردت في كتاب فخ الدب ، قبل ذلك نمر على بعض المحطات في عامي 1982م و 1983م حيـ ث أن الحديث عن باكتيا سوف يقحمنا مباشرة في أحداث 1984م . لذلك سوف نبقى قليلا في محطة عام 1982م .

ما أن هبطت الثلوج في جرديز حتى نزل حقاني إلى الجنوب وبدأ نشاطه العسكري في مدينة خوست ، حيث البرودة أقل قسوة ويمكن للمجاهدين العمل فيها أثناء الشتاء . وقبل بداية العام الجديد كان قد تمكن من الإستيلاء على حصن داجي الذي يتحكم في أحد الممرات الطبيعية الوا صلة بين خوست والأراضي الباكستانية . أتاح هذا النصر حرية حركة أوسع للمجاهدين من خلال ذلك المنفذ . ولكن الإستفادة منه لم تكن كبيرة للغاية لسببين . الأول بعده النسبي عن ميدان شاه الباكستانية والتي كانت المعقل الصديق خلف الحدود حيث الإمداد ومراكز القيادة والإد ارة لتنظيمات المجاهدين . والسبب الثاني والأهم أن قبائل منطقة ميرعلي القريبة من ذلك المنفذ لم تكن متعاونة مع المجاهدين ، وكانت تتلقى دعما ماليا وتسليحا من حكومة كابل ا لشيوعية . وفي هذه الأيام – وقت كتابة هذه الأسطر – أشعر بالأهمية العالية لفتح حصن داجي بأكثر مما كنت أشعر به مع وقت حدوثه . وعقيد الإ ستخبارات محمد يوسف عبر في كتابه وبشيء من الإحتقار لتلك الفتوحات الحدودية . وقال عنهـ ا أنها كانت محببة لدى قومندانات – قادة – المجاهدين الميدانيين لكونها قريبة من مراكز الإمداد داخل الحدود الباكستانية كما أ نها تضمن لهم الثناء والمكافأة من الحكومة الباكستانية والسمعة العالية في الخارج عبر وسائـ ل الإعلام . كان ما يقوله العقيد صحيحا في بعض الحالات – سوف يرد معنا ذكر بعضها – . ولكن فتح داجي لم يكن من تلك الحالات . أقول ... أدركت الآن أهمية تلك الفتوحات الحدودية وضرورتها لتأمين منافذ آمنة ومحمية يستخـ دمها المجاهدون في العبور . وقد عاصرنا في العامين الأخيرين 1993م – 1994م مأساة المجاهدين في طاجيكستان وهم لا يجدون تلك المنافذ ، فقد اتخذ الروس من نهر جيحون آمو داريا عائقا

طبيعيا أقاموا خلفه نقاط الحراسة والدوريات مانعين المجاهدين من العبور . وخلال هذين الـ عامين لم يكن العبور ممكنا إلا بدفع رشوات محترمة للضباط الروس ، مع وجود مخاطر دائمة أثنا ء عبور المجاهدين الذي يستمر أحيانا بطول ستين كيلومترا على طوال النهر وتحت ملاحظة الروس حتى ينحرف المجاهدون شمالا إلى عمق البلاد .

كانت الحدود الأفغانية دائما تستعصي على الإغلاق لطبيعتها الجبلية وطولها الذي يستحيل تغط يته . وليس الحال كذلك ـ بكل أسف ـ في حالة طاجيكستان في جهادها الراهن .

لهذا لم يشعر العقيد بأهمية ذلك العمل ، فقد وصف محاولات الروس إغلاق الحدود الأفغانية مع باكستان بأنها مثل محاولة إغلاق صنبور المياه بوضع اليد على فوهته .

لقد حاصر حقاني حصن دابجي لمدة شهر ونصف ومنع كل النجدات القادمة من خوست ودمرها . و في النهاية فرت حامية الحصن في جنح الظلام تاركين العديد من القتلى والجرحى وكميات من الأس لحة والعتاد من بينها دبابتان من طراز تي ـ 34 ومصفحة واحدة .

وقد بذل جلال الدين حقاني جهودا طويلة حتى أقنع السلطات الباكستانية بنقل تلك الدبابا ت عبر الأراضي الباكستانية وإدخالها مرة أخرى إلى أفغانستان عبر ممر صدقي أو ممر غلام خ ان القريب منه وكلاهما يؤديان إلى مناطق نشطة وحساسة عسكريا . وكان لتلك المعدات تأثير كبير في عدد من الصدامات الهامة مع القوات الشيوعية .

تحركت بنا السوزوكي الصغيرة عبر الحدود من معبر صدقي ، كان رشيد إلى جانبي والضابط عمر يقود السيارة وخلفنا خمسة من المجاهدين والجميع وجهتهم جاور ...

جاور ذلك الإسم الذي سمعته لأول مرة وبالطبع لم يدر بخلدي أنه ستكون له في السنوات القا دمة تلك الأهمية الهائلة . أما الضابط عمر فهو شاب من قبيلة زدران إلتحق بالمجاهدين وأصب ح من رجال حقاني المقربين . بدأ حياته العملية معه مسئولا عن جاور . كان رشيد يرى أن جاور مهمة ولكنه ما كان يثق كثيرا في كفاءة عمر . وفي السنوات اللاحقة أصبح الضابط الـ شاب عمر مسئولا عن الإستطلاع وجمع المعلومات لدى حقاني . كما أشرف لفترة على بعض الأعمال الإعلامية كان أولها محطة الإذاعة المتنقلة . وقد كنا في الطرق كي نشاهدها في جاور .ويبدو أن مهمة جاور الأساسية في ذلك الوقت أن تكون مستقرا لتلك الإذاعة وتوفر لها الحماية من ا لطيران أو تخريب جواسيس العدو .أما مهام جاور كقاعدة خلفية فلم تكن واضحة كثيرا في ذلك الوقت ، ولكنها نبتت وازدهرت بالتدريج كواحدة من أهم القواعد الخلفية للمجاهدين ، ر بما على نطاق أفغانستان كلها . ودارت فوقها واحدة من أعنف معارك تلك الحرب وربما أعنفها على الإطلاق ، وذلك بعد حوالي أربعة سنوات من زيارتي الأولى لها أي عام 1986م .

كانت جاور في خطوتها الأولى عبارة عن خيمة واحدة فوق ربوة مشجرة ، وعربة للإذاعة مختفية بـ ين الصخور والشجيرات ، وعدد من العمال منهمكين في تهيئة حفرة في الهضبة الترابية لإخفاء عرب ة الإذاعة التي لم يكن قد مضى على عملها سوى أيام وتقصف على غير هدى . حتى ساعدتها المضاد ات الجوية في تحديد الموقع بدقة ، فبدأت الطائرات تحدد هدفها بسهولة نسبيا . كانت تلك الم ضادات في ذلك الوقت عبارة عن مدفع واحد زيكوياك عياره 14.5مم . أما الإذاعة فكانت تبث برامج معدة سلفا ومسجلة في مدينة ميرانشاه وذلك بعد العصر لمدة نصف ساعة .

أخبرني حقاني وقتها أن حكومة باكستان قد سلمت المجاهدين أربعة أو خمسة محطات إذاعية متنق لة ، كانت محطة جاور واحدة منها . تذكرت محاولتنا الفاشلة في الحصول على محطة إذاعية من الشارقة منذ ثلاث سنوات . كنا في ذلك الوقت نتوقع تأثيرا دراميتكيا للإذاعة ، وأنها ستقو د إلى ثورة عامة عندما يعلم الشعب بانتصارات المجاهدين . الآن هناك خمسة إذاعات على الأقل ولم نحصل على تلك النتيجة التي نتصورها . فهل كان تصورنا الأول على خطأ ؟ . أظنه كان به ه كمية من المبالغة ولكنه لم يكن على خطأ كامل . لقد كان للمجاهدين في عامهم الأول وحتى قبل المساندة الدولية لهم كان لهم تأثير أسطوري على النفوس . ولكنني اكتشفت متأخرا ـ كالعادة ـ أن بريق المجاهدين يخبو عادة عندما تزداد المساندة الخارجية لهم خاصة من أطراف يكرهها الشعب تقليديا . فباكستان ليست من الدول المحبوبة لدى الأفغان بل أنها عدو تقليد ي منذ الإحتلال البريطاني للهند . كذلك أمريكا والغرب كانوا مكروهين مثل الروس أو أكثر . وهكذا وجدت الدعاية الشيوعية المضادة تفهما ولو محدودا من الشعب الأفغاني . ولولا المس اندة العربية ـ وخاصة المتطوعين العرب ـ

لفقد المجاهدون في أفغانستان مصداقيتهم الإسلامية لدي الشعب وربما خسروا أمام السوفييت وا لشيوعية .وعلى هذا الأساس فإن تقديري للتواجد العربي في أفغانستان أنه كان حاسما أكثر من أي سلاح عسكري أو أموال لأنه تواجد يتصل بصميم وجوهر الصدام ، ألا وهو الجانب العقائ دي والنفسي . لهذا كانت الحملة الصليبية رهيبة ضد هؤلاء المتطوعين العرب . وكما هو معلوم دور أمريكا في قيادة هذه الحملة ودور الأنظمة المرتدة عن الإسلام في خوض غمار الحرب ضد من أ سموهم بالأفغان العرب بدلا من المجاهدين العرب أو الأبطال العرب .

ما هي إلا أيام قليلة حتى تحركنا في مجموعة من عشرين مجاهدا بقيادة رشيد في مهمة استطلاع اس تغرقت يوما واحدا من المسير الشاق . شمل الإستطلاع منطقتين ، الأولى منطقة دراجي في الشما ل الغربي من جاور والأخرى منطقة ليجاه في الشمال الشرقي منها .

بعد يومين من الرحلة فر ثلاثة جنود من حصن ليجاه وأفادوا بأنهم قد رأونا أثناء عملية الإستطلاع ، ووصفوا أفراد المجموعة بأن أحدهم كان يرتدي طاقية بيضاء

رشيد وآخر كان يلتقط الصور الفوتوغرافية كاتب هذه السطور .. وأفادوا أيضا بأن ضا بط الموقع طلبهم بإطلاق نيران الرشاش الثقيل على هذه المجموعة ، ولكنهم – أي الجنود الثلا ثة – جادلوه في ذلك لأن المجموعة أي نحن إنما هي مجموعة مسالمة من عابري السبيل . شعرب بالخجل وقتها من حالتنا كمجموعة استطلاع مهملة . ولكني رأيت كثيرا دوريات أسوأ حالا من حالتنا تلك . على أية حال كان الإستطلاع على حصن دراجي جيدا رغم أنه تم أثناء النها ر . وتم عن مسافة قريبة . أما عند ليجاه فقد كنا في جبل مرتفع عن مستوي الحصن الحكومي البوسطة . ولم نكن قريبين بما فيه الكفاية لذا انتابنا حالة من الإهمال والتسيب . وم ع هذا فإن ظهورنا قرب ليجاه كان حدثا غريبا على حاميتها التي كانت تعيش في هدوء منذ م دة طويلة .

وأثار ذلك شجون الجنود ، أو أثار خوفهم فهربوا وأدلوا بمعلومات كانت كافية كي يأخذ مو لوي جلال الدين حقاني قرارا بغزو ليجاه .

بعد عدة أيام تحركت مع مجموعة برئاسة رشيد مع مدفع هاون وسط 82 مم لمناوشة الحصن ، وا لبقاء هناك كطليعة لقوات الغزو التي سوف يحشدها حقاني . كنا في منتطف فصل الصيف وتم فتح حصن ليجاه مع نهاية الخريف . وتقهقر العدو تاركا جبال ليجاه تماما وبذلك سيطر المجاهدون على الممر الذي كانت تغلقه تلك البوسطة الحكومية في نهاية السلسلة الجبلية . ولكن القوا ت الحكومية اتخذت موقعا في الوادي على بعد عدة كيلومترات من مدخل الممر .وعلى المدى الطوي ل اتخذ حقاني ذلك الأسلوب التدريجي البطيء حتى توصل إلى فتح خوست عام 1991م .

كانت استراتيجية مناسبة تماما –

كما أثبتت التجربة – للواقع العسكري والسياسي والإجتماعي للمنطقة . كانت عمليات المجاه دين تدفع القوات الحكومية بالتدريج نحو الوادي تاركين الجبال تحت سيطرة المجاهدين . وبعدها بدأت المعارك في الوادي نفسه . وهي بالطبع أكثر صعوبة بالنسبة للمجاهدين ، الذي اتبعه وا نفس الأسلوب البطيء في القضم التدريجي وإنقاص الأرض من أطرافها . إن معركة داجي التي أشرنا إليها انتهت سيطرة الحكومة على منفذ حدودي مع باكستان في نقطة تبعد حوالي أربعين كيـ لومترا عن مركز خوست وأتاح ذلك إمكانية أفضل للإمداد بالنسبة للمجاهدين . أما في ليجاه فإن سيطرة المجاهدين على جبالها فقد أتاح لهم إمكانية أفضل للتسرب إلى داخل الوادي والوصول إلى المراكز الإدارية والقيادة هناك . وذلك السبب وراء الحملات العس كرية العنيفة التي قام بها السوفييت لاستعادة زمام الأمور وفرض توازن جديد في مصلحة القو ات الشيوعية . وكانت أقوى تلك الحملات في أعوام 1983م ، 1985م ، 1986م .والأخيرة كانت من أشد ما شهدته أفغانستان من معارك .

كانت رحلتنا الإستطلاعية أول تدشين لنشاطات جاور . كما كانت أول عملية ليجاه أول حملة ع سكرية تقوم بها جاور فيها بدور قاعدة الإنطلاق والتموين والإدارة . وانتهى ذلك الدور با سقاط مدينة خوست الذي أدى

مباشرة إلى انهيار كابل ونظامها الشيوعي بعد عام واحد من فتح خوست .

كان لمجموعتنا غارة يومية على حصن ليجاه وتتابع وصول الإمدادات ، فأصبح لدينا مدفعي دو شكا يعملان على التلال لهدف الحماية من غارات الطيران . وتزايد تدريجيا عدد المجاهدين . واقتر ب أكثر مدفع الدوشكا حتى صار في مقدوره إصابة جنود الحكومة في الحصن وقد ضايقهم ذلك كثيرا . ولم تفد مدفعية الحكومة ولا غارات الطائرات النفاثة في تحسين وضع حامية الحصن . وتتابع ضغط المجاهدين وغارات الهاون المؤثرة .. وزادت الإصابات في صفوف الجنود بينما لم نصب بأية خسـ ائر حتى ذلك الوقت .

وتطور الأمر في أحد الأيام فوصلت عدة مصفحات إلى الحصن تقلت الجنود إلى الخلف . وخيل إلينا أن المعركة قد انتهت . فتقدمنا خمسة أشخاص نحو ا لحصن في حرص شديد لسببين . الأول عدم تأكدنا بأن كل الجنود قد رحلوا والثاني خوفنا من حق ول الألغام التي نشرها العدو في المنطقة كلها – وليس فقط حول الحصن – . وأثار ذلك الذعر في صفوفنا . وما أن وصلنا إلى مسافة مائة متر م ن الحصن حتى صرخت رصاصة فوق رؤوسنا . تصورنا أن أحد المجاهدين قد أطلقها لأننا لم نشاهد أ ية حركة في الحصن . ولكن تتابع الرصاص نبهنا إلى أن مصدره من الحصن فاتخذنا سواتر قريبة وبدأنا في تبادل النيران .

كان معنا الضابط كمال وهو ضابط شاب رأيته لأول مرة في ليجاه كان هادئا للغاية ، وعنيد ا لدرجة كبيرة . كان يحمل على كتفه مدفعا عديم الإرتداد بينما يحمل مساعده عدة قذائف قبد أ على الفور في الرماية على الحصن . فانقطعت الرماية منه تماما ..

كان واضحا أن الإستيلاء على الحصن مسألة غاية في البساطة فلا أحد هناك غير ثلاثة جنود – كما قدرنا ذلك من الرمايات –

ولكن المشكلة كانت الألغام . لقد توقف زحف المجاهدين عدة أيام وهم يحاولون فتح ثغرة للنف اذ إلى الحصن . وكانت فترة كافية جهزت الحكومة فيها قواتها وجابهتنا فيها بهجوم مضاد شديد كان أسوأ ما فيه طائرات الهيلوكبتر .

ومرة أخرى أواجه محنة الهيلوكبتر بعد معركة دارا في العام الماضي .لم تكن محنة ليجاه بنفس الشدة ولكنها دامت لفترة أطول . فقد تمكنت الطائرات وأظنها لا تقل عن ستة طائرات من إس

كات مدفعي الدوشكا . لم تصب المدافع ولكن الأطقم لم تستطع الثبات أمام الصواريخ التي صبت ها الطائرات فوق رؤوسهم . أصبح معسكرنا بلا دفاع جوي . وصمتت النيران من جانبنا تماما . وتفرغنا عدة ساعات للجري في الشعاب والوديان وبين الأشجار بينما الطائرات الستة تلاحقنا بالنيران من نقطة إلى أخرى . كنا أشبه بسرب من الجرذان تطارده ستة من القطط المتوحشة . وقرب العصر انتهت المعركة غير المتكافئة . وقد تقطعت أنفاسنا ، وهبطت معنوياتنا بسبب نتيجة عجزنا المهين أمام الطائرات . لم يمنع ذلك ظهور حالة من المرح و التبريكات بين المجاهدين فقد كانت مفاجأة سارة لنا ألا نجد أية خسائر في معسكرنا سواء في الأفراد أو المعدات . لهذا قضينا ليلة مرحة حول أكواب الشاي الأخضر الذي لم أستمتع به تماما لكونه خال من السكر .

وصلت التعزيزات إلى حصن ليجاه ودبت فيه الحياة مرة أخرى واستدعى الأمر استمرار المعركة عدة أشهر أخرى حتى تم الإستيلاء التام عليه . ويمكن إرجاع السبب الأساسي إلى الألغام وكانت تلك الموقعة أول مشاهدة علمية بالنسبة في خطورة الألغام . وقد كانت أفغانستان حالة لم تتكرر سابقا في تاريخ الحروب بالنسبة لبشاعة استخدام الألغام إلى حد فاق أي حاجة عسكرية حقيقية ، وما زالت في أرض أفغانستان 15 مليون لغم مدفونة – حسب تقديرات الأمم المتحدة أيضا – .

أما الهيلوكبتر وكان ذلك هو نقاني الثالث معها فقد زاد احتراسي لها كسلاح فعال . وزادت قناعتي أيضا بإمكان التغلب عليها وأنها مشكلة تتعلق بمتانة الأعصاب قبل أي شيء آخر . واقتنعت بأن تأثيرها محدود جدا على مسيرة العمليات الخاصة إذا كانت تضاريس الأرض تماثل تلك التي كنا نقاتل عليها في باكتيا . أرض صخرية وعرة كثيرة الأشجار . في مثل تلك الأرض لا يحتاج المجاهد لأكثر من قدمين تجيدان اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب . وجدت ذلك الحل الأمثل ورأيته أفضل حتى من استخدام الصواريخ المحمولة من الكتف . وما زلت على قناعة بأن الإقدام المدربة أفضل ألف مرة من ستر الأمريكي . أما الرشاشات الثقيلة فهي كارثة حقيقية على مستخدميها خاصة في مواجهة الهيلوكبتر . وهكذا كانت نصائحنا لإخواننا المجاهدين في طاجيكستان عندما لمسنا ذعرهم من الطيران وجثتهم المنهوف عن بقايا صواريخ ستنجر التي كانت أمريكا تسابق الزمن في سبيل جمعها من أفغانستان . وبالفعل استطاع المجاهدون الطاجيك مجابهة الطيران بنجاح أكثر هذا العام 1994م رغم عدم وجود ستنجر لديهم مع وجود عدد محدود جدا من صواريخ سام7 الروسية . فقد تفادوا تأثير الطيران ، وأسقطوا عددا محدودا جدا من الهيلوكبتر كانت واحدة أو اثنتان منهما بواسطة سام7 ذلك الصاروخ الأحمق . فمنذ حادثة دارا وأنا أشعر بكراهية شخصية تجاهه .

لقد أدرك إخواننا الطاجيك أن الإستخدام الجيد لطبيعة الأرض هو خير سلاح في مواجهة الطيران . خاصة في مراحل الجهاد الأولى وغياب التدريب الجيد على الرشاشات الثقيلة وعدم توافر الصواريخ المناسبة .

ولا يمكن إنكار أن صاروخ ستنجر كان فعالا في مواجهة الهيلوكبتر بشكل خاص ، حتى أن تأثيرها تقهقر كثيرا منذ ظهوره . ويجب ملاحظة أن الرادع المعنوي لأي سلاح أكبر بكثير من قيمته العملية . لهذا فبغض النظر عن نسبة الإصابة التي حققها الصاروخ المذكور ولكن الهالة الدعائية حوله كانت أكبر بكثير من تأثيره العملي ، وقد تأثر العدو كثيرا بتلك الدعاية وانهارت قيمة الهيلوكبتر إلى درجة كبيرة . أما الطائرات النفاثة فقد ضاع جزء من فعاليتها لاضطرارها إلى الإرتفاع أكثر من مدى الصاروخ 6 كم تقريبا . أما نسبة الإصابة العالية التي روجها الإعلام الأمريكي فقد كانت محض تهويل ولم تكن أكثر من الدعاية لترويج السلاح في السوق الدولية إضافة إلى التأثير السياسي لتلك الدعاية .

أما الرشاشات الثقيلة فقليلا ما استخدمت بشكل جيد في أفغانستان فهي تحتاج إلى طاقم على درجة عالية من التدريب ، كما لا بد لها من الإستخدام الجماعي لتلك الأسلحة ، وما يستدعيه ذلك من كمية ضخمة من الذخائر . وهذا شرط صعب أيضا . يضاف إليه صعوبة المناورة بتحريك تلك الأسلحة وذلك يجعلها هدفا ثابتا للطيران .

يستجيب مولوي جلال الدين بسهولة للتحدي . لم يكن من السهل بالنسبة له أن يقبل ما فعله الطيران بنا . فوجه تأنيبا شديدا لأطقم الدشكا . وأتبع ذلك بإجراءات عملية أخرى ، فأحضر واحدا من صواريخ سام7 وسلمه إلى انظباط كمال ، وأحضر مدفعا من طراز زيكوياك 14.5مم ووضعه على جبل مرتفع خلف مواقعنا ، وأحضر عددا من قواذف الآر بي جي المضادة للدروع وأمر رجاله باستخدامها ضد الهيلوكبتر وأيضا ضد النفاثات . لم يكتف حقاني بكل ذلك بل سلح نفسه بواحدة من تلك القواذف ، وكان يصعد بنفسه إلى أقرب قمة إليه عندما يسمع صوت الطيران قادما ، وكان يرمي على الطائرات بنفسه .

كل تلك الإجراءات مجتمعة هي نموذج مثالي لروح التحدي والمواجهة العنيفة التي يتميز بها أسلوب حقاني في العمل العسكري . ويمكن القول أنها بصماته العسكرية . لقد فهم الرجال أن التراجع أمام الطيران ممنوع وأن الإستخدام الملهم للأرجل غير مسموح به بعد الآن .

شعر العدو بقوة موقعنا فتحولنا تلقائيا إلى هدف هام . وحرمنا ذلك من النوم والراحة وصرنا عرضة دائما للقصف المدفعي والغارات الجوية التي زادت حدتها بعدما رأت قوة النيران ا

نصاعدة إليها . وبسرعة عزز العدو مواقعه حول حصن ليجاه وبدأت المواقع القريبة منه وا
لقواعد الرئيسية داخل المدينة تقدم دعما مدفعيا للحصن . لقد وجدنا أنفسنا فجأة وسط ا
جحيم ، بينما برنامجنا الهجومي قد تجمد بسبب الألغام . في حين تحول همنا الأول هو الدفاع عن
أنفسنا ومركزنا . هذا التحول أدى إلى نشوب خلاف بين رشيد وحقاني لم يجتمعا بعده أبدا . غ
ادر رشيد الموقع ومن يومها لم أقابله في الجبهات . توافد عدد كبير من المجاهدين إلى المنطقة
بعدما أصبح متوقعا أن تهاجم القوات الحكومية مراكز المجاهدين . ووصل إلينا مدفع جبلي عي
ار 76مم فأصبحت نيران مدفعيتنا تصل إلى أبعد من الحصن نفسه وتطال طوابير التعزيزات قبل أ
ن تصل إليه . لم أكن أيضا سعيدا بكل تلك التطورات . كان الطيران وحده كافيا للنيل من
معنوياتي . فحتى شاي الصباح لم يعد ممكنا تناوله باسترخاء ، والليل ملىء بالتوتر والإستن
فار وقذائف المدفعية الثقيلة التي تأتينا من عمق الوادي .
كان برنامج المدفعي ناجحا على الحصن فقط ومنعدم التأثير على عمق العدو . والصمود أما
م الطيران بلا مضادات كافية أصابنا بخسائر بشرية ومادية ولم يؤثر بشيء على
الطيران طو ل فترة تواجدي . كان المطلوب هو الثبات على هذا الوضع حتى تنتهي جلسات الشو
رى الميدانية التي بدأت تنهال . فلم يكن قد تقرر شيء نهائي عن البرنامج ولا عن المجموعات ا
لتي سوف تشارك فيه . بعض الإجتماعات جرت في جاور ـ
خلفنا بمسافة عشرة كيلومترات مدينة بالجبال الوعرة ـ وبعض الإجتماعات جرى في مواقعنا التي
لم يكن بها خندق واحد حتى تلك اللحظة .
انتهت مشاركتي في معركة ليجاه عند تلك النقطة . ولكن التطورات استمرت نحو الشهرين أو
أكثر ، انتهت باستيلاء المجاهدين على الحصن والوقوف على أعتاب الوادي الفسيح ودفع العدو
عدة كيلومترات داخل الوادي وحرمانه من جبال المنطقة المنيعة .
كان نصرا رائعا ، جعل غرب الوادي في وضع خطر . فمدخل وادي ليجاه يتيح الوصول إلى منطق
ة الغرب كلها ويجعل العمليات ممكنة ضد عدد كبير من تلك المواقع . بل أن موقع القيادة الر
ئيسي لغرب الوادي ، وهو حصن دراجي حيث الإدارة والقيادة للمنطقة الغربية ، أصبح هو
أيضا مهددا . وبالفعل تم الإستيلاء على دراجي بواسطة قوات حقاني
المتحركة من ليجاه ولكن بعد 9 سنوات كاملة من معركة ليجاه الأولى التي نصف بداياتها هنا
. وليس المقصود هو ذكر تفاصيل تلك المعارك ، بل فقط ذكر بعض المعالم التي توضح الصورة ال
عامة ، وما يساعد قارئنا التاريخي المنتظر على
أن يتصور الأوضاع التي كانت سائدة ، ونحاول أيضا أن نبحث عن أوجه الإستفادة من تلك الأحدا
ث وما يمكن استخلاصه من نتائج . ونحاول أن نتفلسف قليلا ونعود إلى ما ذكرناه سابقا عن
القوانين الخاصة بالحرب . وهي قوانين تتعلق بالقتال في ظروف خاصة جدا ، بحيث يستدعي ذ
لك إجراء تعديلات في قواعد القتال المعروفة أو حتى وضع بعض القواعد الجديدة . وقلنا أن ذ
لك لا يتأتى إلا لنوع نادر من القيادات ، فهناك خطأين شائعين يقع فيهما قادة الحروب .
الخطأ الأول الإلتزام الحرفي ـ الجامد ـ بقواعد الحرب كما ذكرت في الكتب العسكرية وكما تـ
درس في الأكاديميات العسكرية .
الخطأ الثاني الإهمال المتعمد لقواعد الحرب ـ
بدعوى أنها كلام نظري كما كان يحلو لبعض إخواننا العرب أن يطلقوا عليها ـ.
بالنسبة للخطأ الأول فهو شائع في ضباط الجيوش النظامية الذين قذفتهم الأقدار إلى حروب ا
لعصابات . وقد شاهدت عددا منهم في أفغانستان أكثرهم كانوا أفغانا وقليلا من العرب . و
الضباط العرب بشكل خاص فشلوا في التكيف مع حرب العصابات بشكل عام ومن باب أول الطبيعـ
ة الخاصة للحرب في أفغانستان والتي امتدت إليها العديد من المجموعات الأفغانية وطبقتها بـ
نجاح .
وحتى رشيد بمؤهلاته وقدراته كقائد حرب عصابات فشل أيضا في احتمال الوضع الأفغاني الخاص
. وكانت نهاية عمله في باكتيا وما لبث أن فشل بسرعة في تجاربه الأخرى في جلال آباد
فانكمش إلى مجال التدريب ثم إلى الكتابات العسكرية في صحيفة الصراط التابعة لمولوي نصر
الله منصور ثم أخيرا ترك الساحة الأفغانية تحت وطأة الفشل المتلاحق وتحت وطأة المطاردة من جانـ
ب الإستخبارات الباكستانية وملاحقتها له .
ومن ضمن ما يتأثر به الأسلوب القتالي هو الحالة الثقافية للمجتمع . فالمجتمعات الواقعة تحـ
ت التأثير الغربي ـ
أو الشرقي ـ تتأثر إلى درجة كبيرة بالأسلوب القتالي العسكري للغرب أو الشرق .
ولما كان الأفغان من أقل الشعوب تأثرا بالثقافات الخارجية إضافة إلى متانة الوضع الإجتما
عي القبلي وسيادة الثقافة الإسلامية فكان من الطبيعي أن ينبت أسلوب قتال أفغاني وهو
ما شاهدناه في ليجاه ـ
وكان أسلوبا تبلور بالتدريج ـ حتى أصبح مدرسة قتالية . هذا الأسلوب وتلك المدرسة لم يكن
ممكنا التكيف معها أو استساغتها من جانب أفراد من خارج ذلك المجتمع ومن خارج تلك الثـ
قافة الأفغانية .
لم تنجح المجموعات الأفغانية بنفس الدرجة . وبعضها فشل في تخطي حد معين في عمله القتالي أن تجـ
مد عند مرحلة قتالية أولية .

ولا شك أن جلال الدين حقاني كان واحدا من الذين طوروا إلى أقصى حد ممكن أسلوبا أفغانيا للقتال كان ناجحا ومؤثرا للغاية .
كما رأينا فإن حقاني تخلى مبكرا عن سياسة إضرب واهرب . ورفض اتباعها كما رأينا حتى عندما بدأ الروس في فرض احتلالهم العسكري . بل مضى إلى حد القبول بمجازفة المواجهة الشجاعة ليس فقط في الجبال خاصة على الطرق المؤدية إلى خوست بل وفي الوديان المفتوحة كما رأينا في تعمير في وادي زورمت .لقد تحمل حقاني من جراء ذلك خسائرا كبيرة لكنه حقق نتائج أعظم خاصة على المستوي النفسي والسياسي وحتى
لو عادت عجلة التاريخ إلي الوراء ما أظن عسكريا محترفا يوافق على آراء حقاني تلك . رغم أنه ثبت عمليا أنها الأصلح لتركيبة الأفغانية وظروفها الفريدة . بل وظروف باكتيا الأشد خصوصية .
كما رأينا لم يستطع ضابط قدير مثل رشيد أن يتقبل أسلوب حقاني في معركة ليجاه . كما أنني لم أستطع عليه صبرا . لم أكتشف وقتها أن حقاني قد انتقل إلى المرحلة الثانية من مراحل حرب العصابات واتخذ بذلك قرارا من أخطر قرارات قيادة حرب العصابات وهو قرار التحول من مرحلة إلى أخرى . وهو قرار من الخطورة بحيث أنه قد يؤدي إلى هزائم ثقيلة قد تتحول إلى هزيمة كاملة .
بدأ حقاني يقاتل بمجموعات كبيرة مستخدما قدرا من الأسلحة الثقيلة هادفا إلى طرد العدو من الجبال ودفعه نحو السهول .
لم يقرأ حقاني حتى الآن كتابا واحدا في حرب العصابات ولكنه تصرف بغريزة فطرية سليمة وحماسة وتعلم الدروس بسرعة متخذا المسار المناسب لحالته الأفغانية الخاصة .
سأورد حادثتين لتوضيح الحالة النبشرية الخاصة التي أملت أسلوبا قتاليا بعينه ، وإن كان مخالفا لكثير من الثوابت العسكرية .
الحادثة الأولى
جلسنا في الصباح الباكر بعد صلاة الفجر نتناول الشاي الأحضر وبعض الخبز . وهذه مناسبة من أكثر المناسبات اليومية سعادة وانشراحا . بعد منتصف الليل أحسست بوصول مجموعة من المجاهدين كانت في دورية ليلية خلف خطوط العدو في الوادي .وتعرفت على صوت صديقي القديم مولوي محمد سرور مرافقنا في أولي معاركنا داخل أفغانستان . وأجلت اللقاء إلى الصباح . وقد كان لقاءا سعيدا غمره البشر الصادق والمودة . بعد انتهاء جلسة الشاي همس مولوي سرور في أذن طباخ المعسكر فأحضر له إبريقا ضخما من الشاي الأخضر المر . ما زالت تلك المسنه الشخصية ******* منذ معرفته ، إبريقه الخاص من الشاي الذي يعادل في حجمه كمية الشاي للمعسكر بأجمعه . قدم لي الرجل كوبا ارتشفت منه على مضض . وجلسنا نتبادل الأخبار والتعليقات حتى ارتفعت الشمس من خلف الجبال وباتت تغمرنا بأشعتها . بدأ مدير الطائرات النفاثة يظهر في الأفق البعيد ، فانسل الرجال الذين صقلتهم تجربة الأيام الماضية ، وظل مولوي سرور يرتشف الشاي بهدوء كأنه يستمع إلى شقشقة العصافير . اقترب منا الهدير وظهرت النفاثات الفضية تدور حول معسكرا ، وهذا دليل لا يدحض على أن الشر قد اقترب . ولكن الرجل الوقور لم تفارقه الإبتسامة وظل يدير الحديث العذب ولكن ذهني بدأ يشرد وتعلقت أذناي في السماء وعيناي تدور بحذر فيما حولي كي أنتخب المكان المناسب لحضور المأساة القادمة . ليس لدينا خنادق ولا معارات ، فقط صخور وأشجار وبعض مجاري السيل الضيقة . لم أستطع التحمل أكثر من ذلك وقد تمادى الطيار في مناوراته فوقنا فطلبت برفق من الشيخ أن نتحرك تحسبا للأخطار ، فلوح بكأس الشاي الأخضر التي في يده وقال برفق »نتحرك إن شاء الله عندما أفرغ من هذا الكوب« . وبالفعل نفذ ما قاله وبكل هدوء ثم سمي الله وبدأ يتحرك بهدوء كامل .
الحادثة الثانية
من الصباح حتى الظهيرة كنا قريبين من حصن ليجاد مع عدد محدود من المجاهدين حيث وصلنا قريبا من حزام الألغام . وتبادلنا إطلاق النار من البنادق مع جنود الحامية وكانوا قليلين . ولكن دعما مدفعيا قويا وصلهم من مواقعهم القريبة ومن العمق . فقضينا فترة عصيبة ونحن نبدل أماكننا باستمرار حتى تخلصنا من النيران وخرجنا من المنطقة ولكن المدفعية استمرت بعد ذلك لأكثر من ساعتين على نفس منطقتنا الأولى وما حولها .
كان القصف من الشدة بمكان بحيث أن المجاهدين من خلفنا استعدوا لاستقبال هجوم شيوعي مضاد وبدأوا التحرك إلى الأمام لصد الهجوم . قابلونا أثناء عودتنا وسألوا عن الموقف فأخبرناهم أنه لا هجوم متوقع حتى الآن .
في الطريق قابلنا شيخا طاعنا في السن ذو لحية بيضاء يرتدي البياض في جميع ملابسه وعمامته . ويتوكأ على عصاه ويسير بخطى وئيدة بينما يحمل بندقيته الإنجليزية العتيقة على كتفه . سألنا بصوت واهن
ـ هل جاء العدو ؟ .
ـ لا لم يجيء .
ـ أين هم الآن ؟.
ـ بعيد عند مدخل الوادي .
ـ جيد إذن ... عندي وقت كي أتوضأ وأصلي الظهر ، ثم أذهب مع المجاهدين للتعرض .

أذهلني الشيخ وحديثه ، وما زلت أعجب حتى الآن .
ونعود إلى حديثنا تعليقا على الحادثتين فنقول إن بشرا من طراز خاص جدا كهؤلاء لا بد لهم من طريقة خاصة جدا في القتال . وهذا ما كان ، ولم نستطع معه صبرا . لهذا تحركنا مع الوقت نحو تكوين مجموعاتنا القتالية الخاصة كي نقاتل بطريقتها الخاصة . وبالمثل صادفنا – نحن المتطوعين العرب – بعض النكسات وبعض النجاحات . ويمكن القول أنه إلى حد ما كانت هناك مدرسة عربية للقتال في أفغانستان – وعلى الأصح مدارس – . وسنذكر ذلك في حينه .
نقيض للصورتين السابقتين رأيته في حادثة الألغام . فقد شاع فجأة بين المجاهدين أن السلطات الشيوعية في خوست قد نجحت في تلغيم منطقة نيجاه بواسطة عملائها . وتحدد اخير أكثر عندما علمنا أن أحد عملاء الحكومة قد وضع ستة ألغام مضادة للأفراد في مكان ما من منطقة المجاهدين في نيجاه . وعلمنا أن المنطقة المستخدمة للزراعة بالهاون بها عدد من الألغام .
سافرنا إلى ميرانشاه حيث نشأت الإشاعة ، ومع فريق الإستقصاء ذهبنا في سيارة صغيرة إلى عدد من البيوت النائية قرب الحدود . وركب معنا شخص لا أعرفه قالوا أنه مجاهد . في اليوم التالي كان هذا الشخص يقوم بعمل غريب للغاية ، كان يستخرج الألغام من منطقتنا ، ثلاثة منها على
نفس الهضبة التي نستخدم منها الهاون ، وثلاثة أخرى متفرقة في الوادي وهضبة مقابلة كنا نحتمي بها أحيانا . سألت رشيد بدهشة عما أراه . كيف يتعرف هذا الرجل بدقة على مواقع الألغام وبدون أي معدات فنية للكشف عنها . ضحك رشيد وقال ببساطة لأنه هو الذي زرعها . وعلمت منه أن هذا الشخص يعمل مع المجاهدين أما أخوه فيعمل مع الميليشيات الشيوعية وأن علاقاتهما العائلية لم تنقطع . وبهذا يستطيع أحدهما تقديم بعض المساعدات إلى الآخر على النحو الذي شاهدناه أمامنا في نيجاه .
لقد نال هذا المجاهد مكافأة من حقاني لقاء رفع الألغام ، وبالتأكيد أنه نال مكافأة من حكومة خوست لقاء زرع الألغام . أما أخوه فقد نال هو الآخر مكافأة من نفس الحكومة في مقابل نقل الألغام إلى أخيه المجاهد كي يزرعها في طريق إخوانه المجاهدين .
كنت مذهولا وقتها . فقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها أن الأوراق قد بدأت تختلط حتى داخل الجبهات .
في السنوات التالية كانت الأوراق المخلوطة هي القاعدة الغالبة ، وسادت العناصر المغشوشة ساحات الجهاد . واستخدم الشعار المقدس للتمويه على
أبشع أنواع الإستثمار . استثمار الحروب والدماء وجني الثروات المحرمة من ورائها . لم يعد الفساد والعهر مقتصرا على
بيشاور ، بل اكتسحت أمواجه ساحات القتال في الداخل . وما رأيته في حادثة الألغام كان مجرد بداية للظاهرة الناشئة .
في ذلك الوقت لم يكن في نيجاه من المتطوعين غيري وغير رشيد . أما باقي المجموعة التي كانت معه في العام الماضي فلم يحضر منها أحد هذا العام . من الإمارات لم ننجح في إقناع أحد بالذهاب رغم كل التحريض وعروض المساعدة . حتى جماعتنا الأقربون كل منهم كان لديه ما يشغله من أمور الأسرة أو العمل . كان الجهاد في قمة الأولويات النظرية – لدى الملتزمين – ولدى التطبيق فإنه لا يكاد يجد له موطئ قدم في وسط المشاغل الأخرى التي تجد دوما مبررات شرعية قوية . حتى
أن أحد أصدقائي المقربين ومن أشد المتحمسين للجهاد ، كان يضع برنامج الترفيه الأسري لعائلته فوق جنسيات العمل التي كنا نقعدها من أجل دعم الجهاد في أفغانستان ، كانت العائلة ونزهتها فرض عين على صاحبنا أما الجهاد فكان فرض كفاية . ومن العبث محاولة إقناعه بغير ذلك فلديه من الحجج الشرعية ما يكفي حاجته وزيادة .
قبل أن يشتد وطيس المعركة في نيجاه وصلنا من ميرانشاه خبر أذهلني – من شدة الفرح – أخبرونا أن عشرة من المتطوعين العرب على
وشك الوصول إلينا للمشاركة في الجهاد . عشرة دفعة واحدة ... لم أكد أصدق نفسي ، وقد كنت أتمنى مجرد عربي واحد .
وصل الإخوة العرب بعد صلاة العصر وكانت مجموعتنا تتحرك بالهاون لنصف الحمل . فحضر معنا أربعة من العرب وبقي الآخرون فقد كانوا غير جاهزين . شارك الإخوة الجدد بحماس التجربة الأولى وشغافيتها الروحانية ، وأشعل ذلك حماس القدماء وأبكاهم .
بقي الإخوة معنا باقي هذا اليوم واليوم التالي فقط وغادروا وسط دهشتنا لهذه المشاركة الخاطفة . وللحقيقة أحزنني شعوري بالراحة لذهابهم ، وكاد أن يبكيني –
ليس فراقهم ولا انفعالاتهم الإيمانية – بل مشاكلهم الداخلية وإزعاجهم للقادة الأفغان .
لأول مرة أشاهد هذا الإزعاج العربي ، وكشأن أغلب التجارب الأولى
فإنها تحمل في ثناياها معالم المستقبل . كان إزعاجا ذي شقين الأول والأهم إزعاج فقهي والثاني إزعاج عسكري .
مولوي أرسلان رحماني واحد من أشهر قادة المجاهدين ميدانيا وهو من منطقة الأورجون – ووزير حاليا في كابل يشغل وزارة العدل – وكان أول ضحايا الإزعاج الفقهي للمتطوعين العرب . ومن حسن حظه أنه وقع في يد شاب من الإخوان المسلمين لطيف المعشر مبتسم دائما هادئ الطبع

ع صبور . واستغل الأخ عبد الله عبد الرحمن كل ميزاته تلك في إقناع مولوي أرسلان بالإقلاع عن تناول النسوار وهو نوع من التنباك الأخضر يتم تعاطيه عن طريق الفم ، بتخزينه خلف الشفة السفلى – وهو شائع جدا في أفغانستان بين الرجال والنساء والأطفال وحتى العلماء وطلاب العلم –.
مولوي أرسلان عالم أيضا ودافع عن موقفه قائلا أن علماء الأحناف في أكثرهم يجيزون النسوار وقليل منهم يرى أنه مكروه .
الأخ عبد الله مهذب وصبور واستطاع أن يواصل النقاش لمدة يوم كامل . تعمدت ألا أحضر سوى الإفتتاحية وفي اليوم التالي سألت مولوي أرسلان عن النتيجة فقال أنه قد خسر المعركة واضطر أن يعاهد الأخ عبد الله ويقسم على أن لا يتناول النسوار مرة أخرى . وقد أوفى مولوي أرسلان بعهده وكلما قابلته بعدها – وكان ذلك على فترات متباعدة بالأشهر والسنوات – كان يخبرني ضاحكا أنه ما زال محافظا على عهده . غادر الوفد المركز وانقطع مولوي أرسلان لمدة يوم أو يومين عن اجتماعات مجلس الشورى للقيادة بسبب صداع شديد في الرأس

و